يصدرها
حلمي مراد
مطبوعات كتابي
جمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية
أرواح هائمة
في الأدغال
من أروع ما كتب
الروائي العالمي الصيت
سومرست موم

سومرست موم

أرواح هائمة فى الأدغال!

THE TREMBLING LEAF
AH KING
THE CASUARINA TREE
BY:
SAUMERSET MAUGHAM

الثمن ١٠ قروش

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها الان اثنان وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد اول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص اجرة البريدالمسجل ، ماعدا العدد : العاشر وثمنه عشرون قرشاوالأعداد ١٢ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا . اما الاعداد الستة الاولى والعددالعشرون فقد نفدت ، والادارة مستعدةلشرائها

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا ((عن سنة)) خالصة اجر البريد المسجل ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى

• ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بان الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ثلاثة واربعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى منتصف كل شهر . وتطلب قائمة باسمائها من الادارة .

وثمن النسخة ١٠قروش ، عدا الاعداد : ١و٤و٧و١٩و٢٢و٣٤ فثمن النسخة ٢٠ قرشا ، و ١٢ ومن ٢٨ الى ٣٢ ومن ٣٥ الى ٣٧ ، و ٤٠ فثمن النسخة ١٢ قرشا - والاعداد ٣ و ٥ و ٦ - ٨ قروش • ويضاف قرشان مقابل أجر البريد المسجل عن كل عدد .

مطبوعات

كتابي

التزجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب الرابع والاربعون

ارواح هائمة .. فى الادغال !

ترجمة : وديع سعيد

الادارة : عمارة الجندول - ١٤ شارع ٢٦ يوليو - بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

«سومرست موم» وهذه القصص الثلاث!

• **ليس** من شك فى ان انسحاب « سومرست موم » من مجال الانتاج الادبى سيخلف فراغا كبيرا . اذ ان « موم » تفرد بأسلوب معين ، ونوع من القصص ، وطريقة لعرض الاحداث وايراد الحوار فى رواياته ، من العسير ان تجتمع كلها معا فى انتاج كاتب ما .. **كما أن أسفاره ورحلاته ، مكنته من ان ينقل قصصه بين مختلف الاجواء والاصقاع ، بحيث لا يمل القارىء الوفى له ، الذى يحرص على أن يقرأ له كل ماينتج ..** وليس يعزى مثل هذا القارىء سوى أن « سومرست » قد أنتج فى أعوام النشاط من حياته الادبية ، انتاجا غزيرا ، وثروة قصصية طائلة : بين روايات، وقصص طويلة، وقصص قصيرة ، ومسرحيات .. ولم يدع ركنا فى عالم القصة الا ارتاده : فمن قصص عاطفية ، الى جريمة ، الى قصص وصفية وتصويرية ، الى مشكلات اجتماعية ، الى تحليلات نفسية دقيقة . **وكثيرا ما كان يجمع لونين او ثلاثةأو أكثر من هذه الالوان فى القصة الواحدة ..** ولعلك قد لمست هذه البراعة فيما قدمه لك « كتابى » من ملخصات لقصص « موم » ومسرحياته ، وفى قصة «الخاطئة» التى قدمتها لك «مطبوعات كتابى » فى رابع أعدادها .

نحو آفاق جديدة ..

• **ومناسبة** اعتزال « موم » الانتاج ، فرصة خليقةبان تتطلب تقديم بعض تحفه الرائعة لك ..

ولكن اختيار التحف الجديرة بمثل هذه المناسبة ، لم يكن بالمهمة الميسورة .. فما أكثر ما انتجته المطابع العربية من روايات « موم » وقصصه . ومع أن ما ترجم منها ترجمة

كاملة ، أمينة ــ لم تمتد اليها يد التحريف او لاختصار ــ قلة ضئيلة ، **الا أن اختيار المادة التى تجدها بين يديك ــ فى هذا العدد من « مطبوعات كتابى » ــ كان يتطلب البحث عن أنواع جديدة ، متباينة ، تتيح لك تنويعا يدخل شيئا من الجدة والطرافة على ماتقرأه من مواد قصصية فى العادة .**

وكان أول عوامل الجدة والطرافة ، هو الانتقال من الاجواء القصصية التى الفتها وعرفتها ، الى أجواء جديدة لم يسبق لك أن ارتدتها ، أو أن صلتك بها حديثة ، لم تتجاوز بعد مجرد الاستطلاع الذى يقف بك عند الحواف ، دون ايغال أو تعمق .. وهنا قفزت الى الذهن بقاع الشرق الاقصى : **حوض المحيط الهادى،والجزر العديدة المتناثرة بين الساحل الاسيوى الشرقى وقارة استراليا ، وجنوب شرقى آسيا ..** فلقد رتاد « موم » هذه البقاع فى أسفاره العديدة ، وخلال عمله فى « المخابرات السرية البريطانية » .. وفى هذه أو تلك ، كانت حاسته ــ كأديب وقصصى يسعى الى التعمق والبحث قبل أن يسعى الى تشويق القارىء وامتاعه وتسليته ــ تطغى على كل اعتبار .

واذ تم اختيار مسرح الوقائع ، برزت من بين انتاج « سومرست موم » ثلاث مجموعات ضم فيها أروع ماكتب عن تلك الاصقاع .. وقد ضمت هذه المجموعات اربع عشرة قصة ، بين طويلة وقصيرة . ولكن أيا من هذه القصص لاتكفى لان تملأ صفحات عدد كامل من « مطبوعات كتابى » .. وبعملية حسابية صغيرة ، تبين أن لابد للعدد من ثلاث قصص، **فهل تختار القصص الثلاث من بين الاربع عشرة قصة ، دون مراعاة لتقسيمها بين المجلدات الثلاثة ؟ .. او تختار بحيث تمثل كل قصة منها مجموعة من هذه المجموعات ؟**

وكان لابد من قراءة القصص الاربع عشرة لاختيار الثلاث

المنشودات ، واذا القراءة تجيب عن ذلك التساؤل ، وتحدد أفضل ثلاث قصص فى تلك المجلدات .. واذا كل قصة تمثل فعلا مجموعة من المجموعات الثلاث .. من تلقاء ذاتها ، دون تعمد أو تحيز !

وهكذا اختيرت القصص الثلاث !

• **وهكذا** اختيرت القصص الثلاث التى يضمها هذا العدد من « مطبوعات كتابى » .. أختيرت وفقا لعوامل أهمها :

١ - **جدة الميدان الذى تدور فيه** : ومدى ما أورده «موم» من تفصيلات وصفية تمكنك من ان تزيد معلوماتك العامة . فان القصة يجب الا تكون مادة للتسلية وقضاء الوقت فحسب، وانما يجب أن تكون - كذلك - وسيلة لتنمية الثقافة والمدارك

٢ - **طرافة المادة** : فقد اعتدنا أن تدور القصص حول الحب والغرام ، حتى أخذ الكتاب يكررون موضوعاتهم مع تلوين فى العرض والاسلوب والحبكة ، وحتى ضاق القراء بهذا التكرار الممل .. وهنا تظهر عبقرية « موم » فى ابتكار موضوعات قصصه .. حتى القصة التى تدور حول الحب ، اختار لها فكرة طريفة ، وعرضا يمكن أن يكون من مظاهر الطابع الفردى لموم كقصاص !

٣ - **الشفافية** : وهذا تعبير قد يبدو غريبا فى هذا السياق ، ولكن هذه القصص - فى الواقع - تشف حقا عن أفكار الكاتب ، وعن أسلوبه ، وعن فنه القصصى .. ثم - **وقبل كل شىء - عن روح الكاتب وشخصيته . فان اسومرست موم أن يفخر بأن روح الكاتب فيه تطغى على ما عداها .** والكاتب القصصى الصادق ، هو الذى يعكس فى قصصه الحقائق بصدق لا اصطناع فيه ولا تزييف . وقد حرص « سومرست موم » - فى القصص التى نقدمها هنا - على أن يصور الحياة فى البلاد التى قضى عليها أن تكون ضحايا للجشع

البريطانى .. فى المستعمرات . أو بالاحرى ، حرص « موم » على أن يصور حياة « البيض » المستعمرين فى تلك البلادالتى احتلوها وراحوا يمتصون خيراتها باسم حمل أضواء « الحضارة » و « المدنية » اليها .. وكانت شخصيته الخاصة كانجليزى وموظف فى « المخابرات السرية » ـ لفترة من الزمن ـ تحاول أن تطغى على فنه ، ولكن شخصيته ككاتب نزيه ، عف ، كانت لا تلبث أن تتغلب فى سياق الوصف ، فتكشف عن كثير من الامور التى يمر القارىء العادى بها عفوا ، وربما لم يفطن اليها .. ولكن القارىء الباحث المدقق ، الذى لا يقرأ ـ لمجرد التسلية ـ لا يملك سوى أن يتبينها واضحة ، بعبارات صريحة، تكشف عن زيف المزاعم التى يتعلل بها الاستعمار للبقاء فى تلك البلاد .

على أن مدى كل هذه العوامل التى روعيت فى اختيار قصص هذا العدد من « مطبوعات كتابى » ـ وهى : جدة الميدان ، وطرافة المادة ، والشفافية ـ لن تبين واضحة تمام الوضوح ، الا حين نتحدث عن كل قصة على حدة ..

القصة الاولى : شاب صالح فى أحضان الغواية !

• ولقد اخترت القصة الاولى « أرواح هائمة » ؛ أو ـ كما أسماها « موم » أصلا ـ « نييل ماك آدم » NEIL MAC ADAM ، من مجموعة أطلق عليها اسم « آه كينج » AH KING ، نشرت لاول مرة فى سبتمبر سنة ١٩٣٣ ، ثم نشرت للمرتين الثانية والثالثة فى أكتوبر من العام ذاته .. ونشرت بعد ذلك خمس مرات .

وتعد مقدمة هذه المجموعة دراسة أدبية طريفة بصدد التأليف عن البلاد الأجنبية، فان كثيرا من كتاب القصة، يعتقدون ان التأليف معناه التمسك بالجو المحلى ، ولو .. ولو عمد الواحد منهم الى نقل مايعجب به من قصص أجنبية يسبغ

عليها الجو المحلى ، ويخلع على ابطالها اسماء محلية !! .. ولكن «موم» يذهب الى ان من حق القصصى أن يضع أحداث قصصه فى أطار من بيئة البلدان التى يزورها ومن أجوائها — اذا كان رحالة — على شريطة ان يرى أن هذه الاحداث لا يمكن أن تقع فى البيئة والجو اللذين يعيش فيهما عادة ، فى بلاده .. اذ أن القصة يجب أن تعتمد على البيئة والجو اللذين توجد فيهما الشخصيات التى تقوم بالادوار فيها !

ثم ينتقل الى الجزء الذى يهمنا فى هذه الدراسة ، اذ يقول: «وما حاولت فى أى من قصصى — التى من هذا النوع — أن أعالج أبناء البلاد التى اتخذتها مسرحا للوقائع ، الا بقدر اثرهم فى حياة البيض الذين يعيشون بينهم . ذلك لان الكاتب الانجليزى يعانى مشقة فى سبيل الالمام بالقدر الكافى من المعلومات عن مواطنيه الذين يتعرف عليهم — طوال حياته — بالمشاهدة ، والملاحظة ، والشعور ، وحكم العادة .. فما بالك اذا كان الامر يتعلق بأفراد من عنصر آخر غير عنصره اطلاقا ! .. أن الحوافز التى تلهم الرجل الاسمر او الاصفر فى الحياة، مسجلة فى مجموعة من القوانين لا سبيل للرجل الابيض الى استكناه حقيقتها ، ومن ثم فليس بوسعه أن يطمئن الى أنه يعرض التفسير الحقيقى لتصرف قد يبدو غاية فى البساطة» !

والآن ، فان الامانة الادبية تجعل «موم» يخشى ان يكتب عن أهالى البلاد التى زارها — الا فى حدود ضيقة — لانه لم يعش بينهم بحيث يندمج فيهم ، ويشرب مشربهم ، ويتقمص نشأتهم ، ويكتسب عاداتهم وتقاليدهم ونوازعهم بالقدر الكافى .. ومن ثم فقد اقتصر — فى هذه القصص — على أن يصف «الاثر الذى تطبعه — على نفر من البيض — الحياة التى يحيونها فى بعض البلاد النائية .. فان البيض فى هذه الاوساط ، كثيرا ما يعمدون الى تطوير فطرتهم وأمزجتهم

الخاصة وصفاتهم الى درجة تبدو مستحيلة فى غير تلك الظروف . ذلك لان العوامل التى تؤثر على أبناء تلك البلاد ، تؤثر عليهم هم أيضا ، **فأنت غالبا ماتجدهم مجردين من تلك الصفات المركبة المعقدة التى تجعل شخصيات أولئك الذين يعيشون فى الظروف البراقة المصطنعة – التى تتسم بها الحياة المتمدينة المثقفة – مادة لدراسة لاتنتهى ولا تنضب !»**

وعلى هدى هذه الآراء ، نرى « موم » يرسم – فى اطار مستمد من بعض بقاع ولايات الملايو – مأساة الزوجة التى تعيش مع زوج منصرف لابحاثه العلمية .. فهى لاتجد سلوى سوى القراءة والتدخين .. ولكنها ولدت أصلا وفى عروقها دماء حارة ، تتلظى بالنزوات ، ولا تزيدها الروايات سوى سخونة، ولا تزيدها الثقة العمياء التى يضعها الزوج فى زوجته سوى اندفاع ! .. والزوج منصرف الى بحوثه ، لايبدو ذكاؤه فى أوج يقظته الا فى المسائل العلمية ، دون المسائل الدنيوية !

وفى هذه القصة يرسم لنا « موم » شخصية شاب طيب صالح .. بكل ما للطيبة والصلاح من معنى ، فهو يصر على الاحتفاظ بـ « بكارته » للزوجة التى سيقدر له أن يحظى بها فى المستقبل ، فلا يزيد تمسكه هذا زوجة العالم – وهو فى الوقت ذاته رئيسه – سوى تدلها فى هواه ، وتهافتا على اغوائه .. وهذه شخصية ماكان « موم » ليجد لها وسطا ملائما سوى تلك الادغال النائية .. فان الشاب الطيب الصالح الذى يستطيع أن يصمد ضد أعنف الغوايات – فى الاوساط التى نسميها متمدينة – نادر كل الندرة !

القصة الثانية : بين النعرة الاستعمارية والامانة الادبية !

• **لننتقل** اذن الى القصة الثانية : « جبان ؟ ! » ، أو «خيط من اللون الاصفر» THE YELLOW STREAK : كما أطلق عليها « موم » .. وقد اخترت من بين ست قصص ضمتها

مجموعة أسماها الكاتب «شجرة الجزورينا» THE CASUARINA TREE .. وهى تسمية طريفة ، يجدر بك أن تعرف أصلها ، كما ذكره « موم » :

« .. ولكنهم يقولون كذلك أنه عندما يتم لاشجار التين البنغالى أن تمتص المياه التى تكون المستنقعات ، حول مصبات الانهار، وتغدو الاراضى صالحة للزراعة، فان شجرة «الجزورينا» تنبت من تلقاء ذاتها ، نتعمل بدورها على اصلاح التربة وتخصيبها .. فاذا ما أتمت مهمتها ، ماتت قبل أن تزحف عليها طفيليات الادغال العملاقة . ومن ثم خطر لى ان «شجرة الجزورينا » عنوان لابأس به لمجموعة من القصص عن الانجليز الذين يعيشون فى (الملايو) و (بورنيو) ، اذ تصورت أنهم — اذ يفدون بعد طلائع الرواد — فيفتحون تلك البلاد للحضارة الغربية ، انما يقومون بمثل دور تلك الشجرة ! »

هنا كان « موم » يكتب وقد تغلبت عليه النعرة القومية .. وكذلك فعل حين حاول أن يصور خسة أولئك الذين جاءوا من آباء من البيض وأمهات من بنات المستعمرات ..

انها النعرة الاستعمارية الخبيثة ، التى قد يكون الاصل والمنصب فرضاها على « موم » . ولكن الروح الادبية الامينة تعرف كيف تتسلل خلال هذه النعرة .. فيرسم قلم القصصى صورة لموظفين الانجليز فى المستعمرات ، وكيف انهم يتزوجون من بنات البلاد ليرضوا شهواتهم ، ثم يتخلوا عنهن وعن أطفالهن فيما بعد .. ان قصص هذه المجموعة « شجرة الجزورينا » مليئة بالامثال التى تبين هذا الواقع . **ثم تغافل الامانة الادبية النعرة الاستعمارية ، فترسم صورة واضحة لما يقيمه « رسل الحضارة الغربية » فى المستعمرات من فوارق عنصرية ولونية ،** نستطيع أن نلمسها بجلاء فى القلق والهم اللذين جثما على « ايزارت » لوجود دم أسمر فى عروقه !!

القصة الثالثة : هنا تنتصر الامانة الادبية !

• **بقيت** القصة الثالثة « الانتصار القاتل » أو «ماكنتوش» MACKINTOSH كما أسماها « موم » .. وقد اختيرت من مجموعة أطلق عليها اسم « رجفة ورقة شجرة » THE TREMBLING OF A LEAF .. **وهذه القصة تمثل بحق أمانة «موم» ككاتب قصصي وأديب ، سواء كانت هذه الامانة نابعة عن نفسه ، أو كانت روحه الادبية تفرضها عليه فرضا !**

والذي يقرأ القصة ، لايملك الا أن يرى أن الافتراض الاخير هو الارجح . فان التعصب للعنصر كان يملى على «موم» ان يحاول تبرير قسوة « ووكر » ، الذى كان مديرا اداريا لاحدى المناطق النائية ، أى بمثابة (مأمور مركز) .. فهو فظ ، جلف ، محب للانتقام من الاهالى اذا غضب عليهم ، محب للتشفى منهم اذا ما أذلهم .. هكذا يصوره « موم » وهو فى تيار الوحى الادبى . **ثم يفطن الى ما لهذه الصورة من أثر فاضح للاستعمار البريطانى ، فيبادر الى تخفيفها ، دون أن يمحوها ـ وهذه امانة ! ـ فيحاول أن يبرر هذه القسوة بأنها شدة الاب الذى يحب الخير لابنائه .. ولكن الامانة الادبية تعاود التسلط على « موم »** . فيصور « ماكنتوش » ـ مساعد « ووكر » ـ وهو يحلل لنفسه مسلك رئيسه ، فيرى أن هذا الفظ لم يكن يحب الاهالى كأبناء ـ كما كان يزعم ـ الا لانهم كانوا فى قبضة يده .. كان يحبهم كما يحب الرجل الانانى كلبه !

ان هذه القصة الاخيرة من أقوى القصص التى كتبها « موم » فى حياته .. لا لشىء الا لانها تماثل صراعا قويا ، عنيفا ، فى نفس الكاتب .. تمثل صراعا بين الامانة الادبية والنعرة العنصرية !

ونحن لانملك ازاء ما نلمسه من نوبات هذا الصراع خلال القصة ، سوى أن نعجب بموم .. لان وجود الصراع فى حد ذاته ، دليل على أن ضميره لايزال حيا !

براعة فذة فى اختيار الخاتمة

• **بقيت** النواحى الفنية فى القصص الثلاث .. ولن نتناول منها ، فى هذه العجالة ، سوى ناحية واحدة .. ناحية البراعة الفذة فى ابتكار الخاتمة .. **وفى قصة ((نبيل ماك آدم)) :** احاطت الزوجة المفتونة بالفتى العف ، وضيقت عليه الخناق ، وهددته بأكثر مما هددت به روجة عزيز مصر ، النبى يوسف .. فماذا يفعل ؟ .. لم يعد امامه مهرب البتة ، ولم يبق سوى ان يستسلم . **وهنا يخف ((موم)) الى انقاذ الموقف ، فيصنع للقصة نهاية لا يمكن أن تخطر ببال القارىء ، وهو يمضى فى تتبع الاحداث فى سياقها الطبيعى !**

وفى قصة ((خيط من الدم الاصفر)) : يمعن فى تصوير ((ايزارت)) كجبان خسيس ، وفى تصوير ((كامبيون)) فى صورة المغدور الذى يتسامح ويتستر على الغادر .. فيكشف فى النهاية أن هذا التستر وذاك التسامح انما كان مردهما الى أن ((كامبيون)) كان يظن فى نفسه انه هو الذى تخلى عن نجدة الآخر !

وفى قصة ((ماكنتوش)) : يهيىء الجو بحيث يبدو أن((ووكر)) ولا بد مقتول فى ليله معينة .. ويوقن ((ماكنتوش)) من ذلك ، فيضطرب . ويعمد الى اثبات وجوده فى داره ، بأن يدير لحنا على ((الجراموفون)) ، ويجلس فى انتظار نبأ الاغتيال ، واذا ((ووكر)) يدخل عليه دون ماضر او بأس .. **حتى اذا قتل ((ووكر)) اخيرا ، ذات مساء ، يتوقع القارىء ان يغتبط ((ماكنتوش)) لتخلصه من هذا الرئيس الفظ المغرور ، لاسيما وأنه سيخلفه فى منصبه ، ولكن .. ؟ !**

ولكن .. لن نفسد عليك روعة الخاتمة التى ابتكرها ((موم)) .. ولن نستبقيك بعيدا عن القصص لاكثر من هذا ..

أرواح هائمة!

(نيل ماك آدم)

NEIL MAC ADAM

كان « الكابتن بريدون » رجلا لطيفا دمث الاخلاق . وعندما أبلغه « أنجوس مونرو » – أمين متحف كوالا سولور – أنه نصح « نييل ماك آدم » – مساعده الجديد – بأن ينزل عند وصوله الى (سنغافورة) فى فندق « فان دايك » ، وعندما طلب اليه ان يعنى بالفتى حتى لا يصاب بضر – خلال الايام القلائل التى لا بد له من ان يقضيها هناك – قال أنه سيبذل كل جهده .

وكان « الكابتن بريدون » يتولى قيادة السفينة « السلطان أحمد » ، وقد اعتاد أن ينزل دائما فى فندق « فان دايك » عندما يكون فى (سنغافورة) . فقد كان متزوجا من يابانية ، وكان يستأجر غرفة من الفندق ، يتخذها دارا .. فلما عاد من رحلته – التى استغرقت أسبوعين – على طول ساحل (بورنيو) ، أبلغه المدير الهولندى للفندق أن « نييل » قد وصل منذ يومين . وكان الفتى جالسا فى حديقة الفندق المتربة الصغيرة ، يقرأ أعدادا قديمة من صحيفة « ستريتس تايمز » ، فتفرس فيه « بريدون » أولا ، ثم تقدم اليه وقال: « الست ماك آدم؟ » . فهب «نييل» واقفا ، وقد تضرج وجهه حتى منابت شعره ، ورد بخجل قائلا : « بلى .. »

– ان اسمى « بريدون » ، وأنا ربان السفينة « السلطان أحمد » .. انك ستبحر معى يوم الثلاثاء القادم ، وقد طلب « مونرو » منى أن أرعاك .. فما رأيك فى أن نتناول « أستينجا » ؟ .. أحسبك قد عرفت الآن معنى هذه الكلمة !

– شكرا لك ، ولكنى لا أشرب الخمر

وكانت تشوب حديثه لكنة اسكتلندية صارخة . فقال بريدون : « لست ألومك على هذا ، فكم من رجل طيب تقضى عليه الخمر ، فى هذه البلاد ! »

ونادى الخادم الصينى ، وامره بأن يأتى له بكأس مضاعف من الويسكى ، وبعض الصودا . ثم قال لنيل : « ماذا فعلت منذ أن حضرت الى هنا ؟ » . فأجاب الشاب : « تجولت فى البلدة »

– ليس فى سنغافورة الكثير مما يستحق المشاهدة
– لقد وجدت أشياء كثيرة جديرة بالمشاهدة

وكان اول ما فعله – بطبيعة الحال – هو أن زار المتحف . ومع أنه لم يجد فيه الكثير مما لم يكن قد شاهده فى بلاده من قبل ، فان ما كان يحويه من الوحوش والطيور والزواحف والفراشات والحشرات – التى تعيش فى هذه المنطقة – اثار اعجابه ودهشته . وقد أفرد فيه قسم لذلك الجـــزء من (بورنيو) ، الذى كانت (كوالا سواور) عاصمته . ولما كانت هذه المخلوقات ستشغل القسط الاوفر من اهتمامه فى الثلاث السنوات القادمة ، فانه فحصها بعناية .. ولكن أشد ما بهره كان خارج المتحف .. فى الشوارع . ولولا أنه كان شابا متزنا رزينا ، لضحك ملء شدقيه فرحا وابتهاجا . فقد كان شيئا جديدا عليه .. وقد ظل يسير حتى كلت قدماه ، فوقف فى ركن من شارع مزدحم ، يرقب بعجب ذلك الصف الطويل من مركبات ((الريكشة)) والرجال الصفر الاجسام الذين يجرونها وهم يعدون بخطوات قصيرة . ووقف ايضا على جسر مقام على قناة ، فشـاهد القوارب المحلية تنســاب فى اتجـاهين متعاكسين ، وكأنها اسماك السردين فى علبة . واطل على المحال الصينية فى شارع (فيكتوريا) ، حيث تباع عدة أشياء غريبة .. ورأى تجار (بومباى المترهلين الضخام ، يقفون على ابواب محالهم ، وقد حاولوا أن يبيعوه بعض الحرير والمجوهرات . وراقب أبناء عشائر « التاميل » بوجوههم التى تنم عن التفكير والتأمل ، وهم يمشون فى رشاقة مهيبة .. وشاهد العرب ذوى اللحى والطاقيات البيضاء ، وهم يبدون انفة مترفعة .

وكانت الشمس ترسل أشعتها الساطعة الوهاجة على هذا المنظر المتباين المعالم ، وقد شعر بالارتباك ، وظن ان الامر يقتضى منه سنوات ريثما يعرف وجهته فى هذا العالم الحافل ذى الالوان المتعددة .

* * *

وبعد أن تناولا العشاء – فى تلك الليلة – سأله الكابتن بريدون عما اذا كان يود مشاهدة البلدة ، وقال له : « خليق بك أن ترى شيئا من الحياة أثناء وجودك هنا ! »

واستقلا مركبتين من مركبات ((آريكشة)) وذهبا الى الحى الصينى . وكان الربان – الذى يمتنع عن شرب الخمر عادة ، وهو فى البحر – قد عوض فى النهار حرمانه ، وأخذ يشعر بالابتهاج . ووقفت المركبتان عند دار فى شارع جانبى ، فهبط الرجلان ، وطرقا الباب . حتى اذا فتح ، اجتازا ردهة ضيقة ، فوصلا الى غرفة كبيرة ، صفت الارائك بحذاء جدرانها – وقد كسيت بقماش احمر اللون – وجلست عليها بعض النسوة ، بين فرنسيات وايطاليات وأمريكيات . وكان فى الغرفة معزف ميكانيكى تنبعث منه أنغام موسيقية عالية ، وقد راح نفر قليل يرقصون على وقعها . وطلب الكابتن بريدون بعض الشراب ، فأخذت امرأتان أو ثلاث ينظرن اليهما فى اغراء ، وهن ينتظرن الدعوة . فقال الكابتن فى غير تورع : « حسنا أيها الشاب .. هل تميل الى واحدة من هؤلاء ؟ »

– لا !

– هل تعلم انه لاتوجد فتيات من البيض حيث أنت ذاهب ؟

فتمتم الشاب : « آه ، حسنا ! » . وعاد الكابتن يسأله : « أتود أن نذهب لترى نسوة من الاهالى ؟ » . وأجاب نييل : « لا بأس ! » . فدفع الكابتن ثمن الشراب وخرجا . وذهبا الى دار أخرى ، كانت فيها فتيات صينيات صغيرات الاجسام ، انيقات ، دقيقات الاقدام ، وأيديهن كالازهار . وكن يرتدين

ثيابا من الحرير المزركش برسوم تمثل زهورا . ولكن وجوههن المخضبة كانت أشبه بالاقنعة . وأخذن ينظرن الى الغريبين بأعين سوداء ساخرة .. وكأنهن من غير البشر ، الى درجة عجيبة !

وقال بريدون في لهجة من يؤدى واجبا : « لقد أحضرتك هنا لانني رأيت انك خليق بأن ترى المكان . وتكفيك مجرد نظرة على المكان ، فهم لا يحبوننا لسبب ما ، حتى أن بعض هذه الدور الصينية لا تسمح للرجل الابيض بأن يلجها . وهم يصفوننا بأن رائحتنا كريهة ، أليس هذا مضحكا ؟ ! .. انهم يقولون أن رائحتنا أشبه برائحة الجثث ! » . فهتف الشاب : « نحن ؟ »

ـ دعنا نرى اليابانيات ، فهن ظريفات ! .. ان امرأتى يابانية كما تعرف ، فتعال معى ، آخذك الى مكان فيه فتيات يابانيات .. وأن أكون هولنديا اذا أنت لم تجد بغيتك بينهن !

وكانت المركبتان تنتظرانهما، فاستقلاهما . وأدلى « الكابتن بريدون » الى السائقين بالاتجاه ، فانطلقا يجران المركبتين .. واستقبلتهما في الدار سيدة يابانية بدينة ، في أوسط العمر ، انحنت لهما عند دخولهما ، واقتادتهما الى غرفة نظيفة ليس فيها من الاثاث غير الحصير على الارض ، فجلسا . وبعد برهة ، دخلت فتاة صغيرة تحمل صحفة عليها قدحان من الشاى الباهت اللون . وانحنت في حياء ، وقدمت لكل منهما

قدحا . وتكلم الكابتن مع المرأة المتوسطة العمر ، فنظرت الى نبيل وابتسمت ، وقالت شيئا للفتاة الصغيرة خرجت على اثره — من الغرفة . وان هى الا برهة حتى دخلت أربع فتيات . وكن فاتنات فى زيهن القومى (الكيمونو) ، وشعورهن السوداء اللامعة المقصوصة بمهارة . وكن صغيرات القدود ، ملتفات الاعواد ، مستديرات الوجوه ، ضاحكات العيون . وانحنين — حين دخلن — حتى كادت جباههن أن تمس الارض ، وتمتمن بتحيات مهذبة . وكان حديثهن كشقشقة الطيور !.. ثم تقدمن وجثون — كل اثنتين الى جانبى احد الرجلين — وأخذن يغازلنهما برقة وحلاوة . وسرعان ما لف الكابتن بريدون ذراعيه حول الخصرين النحيلين . وراح الجميع يتحدثون فى أتم آيات السرور ! .. وخيل لنبيل أن فتاتى الكابتن كانتا تسخران منه ، لان أعينهما البراقة تحولت نحوه بخبث ، فاحمر وجهه . ولكن الفتاتين الاخريين التصقتا به ، وراحتا تتحدثان اليه باليابانية ، وكأنه يفهم كل كلمة تقولانها . ولاحتا سعيدتين الى حد أثار ضحكه .. وكانتا شديدتى العناية به ، فأمسكتا له القدح ليرتشف الشاى منه دون أن يتكبد مشقة حمله فى يده ، وأشعلتا له سيجارة ، ومدت احداهما يدا بضة صغيرة لتتلقى الرماد فلا يقع على ملابسه ، وأخذتا تربتان وجهه الناعم ، وتنظران فى فضول الى يديه الكبيرتين .. كانتا لعوبتين كالقطط ! .. وما لبث الكابتن ان قال : « حسنا ، أيهما تفضل ؟ .. اختر لنفسك ! » . فتساءل : « ماذا تعنى ؟ »

— سأنتظر ريثما تحزم أمرك ، ثم أدبر أمر نفسى !

— لست أريد أيا منهما ، وسأعود لانام

— لماذا ؟ .. ماذا حدث ؟ .. ما أحسبك خائفا ؟

— لا .. كل ما فى الامر أننى لا أميل لذلك . ولكن لا تدعنى اقف فى طريقك ! .. اننى عائد الى الفندق

ـ اذا لم تكن راغباً فى شىء من هـذا ، فلست أريده أنا الآخر . فانما كنت أبغى أن أجاريك وأؤنسك !

وتحدث الى السيدة المتوسطة العمر . والظاهر أن ما قاله حمل الفتيات على أن ينظرن الى نييل فى عجب طارىء . وقد ردت السيدة على الكابتن ولكنه هز كتفيه ، وهنا أبدت احدى الفتيات ملاحظة جعلت الجميع يضحكون . فتساءل نييل : « ماذا قالت ؟ » . وأجاب الكابتن مبتسما : « انها تعابثك لتستدرجك ! » . ولكنه مع هذا رمق نييل فى استغراب . **أما الفتاة ، فبعد أن أضحكتهم ، تحدثت مباشرة الى نييل . ولكنه لم يفهم شيئاً ، ألهم الا أن السخرية كانت ظاهـره فى نظراتها ، مما جعل وجهه يتضرج ، ثم يعبس .** فما كان ليحب أن يكون موضع سخرية ، غير أن الفتاة ضحكت ، وألقت ذراعها حول عنقه

وقال الكابتن: « هيا ، لننصرف !» .. حتى اذا بلغا الفندق، سأله نييـل : « ما الذى قالته الفتـاة حتى جعلت الجميع يضحكون ؟ » . فأجاب : « قالت أنك .. بكر ! » . واذ ذاك قال الشاب : « لست أرى فى هذا ما يدعو الى الضحك » .

ـ وهل هذا القول صحيح ؟ ـ أظنه كذلك !

ـ ما عمرك ؟ ـ اثنان وعشرون عاما !

ـ وفيم انتظارك ؟ ـ الى أن أتزوج !

فصمت الربان .. وعندما وصلا الى نهاية الدرج ، مد يده وأومضت عينه عندما ألقى على نييل السلام ، ولكن نييـل واجهه بنظرة صريحة ، صادقة ، لا اضطراب فيها .

* * *

وأبحـرا بعـد ثلاثة أيام . وكان نييـل الراكب الابيض الوحيد فى السفينة. وكان يقبل على القراءة عندما يكون الكابتن مشغولا . وكان يقرأ كتاب « أرخبيل الملايو » لادجار والاس ـ للمرة الثانية ـ فقد سبق أن قرأه وهو صبى . ومع ذلك

فقد بدا كأنه جديد عليه ، واستأثر بكل اهتمامه . فاذا لم يكن الكابتن منصرفا الى العمل ، فانهما كانا يلعبان الورق معا ، أو يجلسان على ظهر السفينة يدخنان ويتحدثان .

وكان نبيل نجل طبيب من الارياف . ولم يكن فى استطاعته أن يتذكر فترة من حياته لم يهتم فيها بالتاريخ الطبيعى .. وعندما انتهى من الدراسة الثانوية ، ذهب الى جامعة أدنبرة ، فحصل فيها على درجة ((البكالوريوس)) فى العلوم ، بمرتبة الشرف . وكان يسعى للحصول على وظيفة معيد فى علم الاحياء ، عندما قرأ فى مجلة ((ناتشر)) اعلانا عن وظيفة مساعد لامين متحف (كوالا سولور) . وكان ((أنجوس مونرو)) — امين المتحف — قد عاش فى (أدنبرة) مع عمه الذى كان تاجرا من اهل (جلاسجو) ، فأرسل هذا العم الى ((أنجوس)) يطلب منه أن يجرب هذا الفتى ، وقال ان نبيل وان كان مشغوفا بعلم الحشرات ، الا انه تدرب كثيرا على تحنيط الطيور والحيوانات ، وهى ناحية ورد فى الاعلان انها مهمة . كما ارسل شهادات من مدرسى نبيل القدامى ، وقال ان الفتى يجيد لعب كرة القدم ، وانه كان عضوا فى فريق جامعته ! .. ولم تنقض بضعة أسابيع حتى وصلت برقية بتعيين نبيل . وان هما الا اسبوعان حتى سافر فعلا

وسأل نبيل الكابتن: ((أى نوع من الرجال المستر مونرو؟)) .

فقال : ((انه شخص طيب ، والجميع يحبونه !))

— لقد اطلعت على رسائله فى المجلات العلمية ، وقد نشرت له رسالة فى العدد الاخير من مجلة ((ايبيس)) .

— لست أدرى شيئا عن هذا ، وكل ما أعرفه هو أن له زوجة روسية ،ولكنها غير محبوبة كثيرا !

— لقد تلقيت منه خطابا وأنا فى (سنغافورة) ، قال فيه انه سيستضيفنى فترة ، ريثما أتمكن من الطواف بالبلد ، واتبين ما يمكننى عمله !

وكانت السفينة عندئذ تمخر النهر ، وشوهدت عند مصبه قرية للصيادين قائمة على أعمدة فى وسط الماء ، وقد اكتسى الشاطىء بالنخيل وأنواع أخرى من الاشجار ، امتدت وراءها غابة كثيفة ، وظهر فى الافق شبح جبل يرتفع الى السماء الزرقاء .. وأثار نيبل هذا المنظر ، فأخذت ضربات قلبه تشتد وهو يستوعب هذه الصورة الرائعة بعينيه .. **واستولت عليه الدهشة ، اذ كان يتوقع أن يرى أرضا محفوفة بالاسرار ، ولكنه لم يكن يتوقع ان يرى هذه السماء الزرقاء الصافية ، ولا السحب البيضاء القليلة الظاهرة فى الافق ، وكأنها أشرعة سفن ساكنة لا حركة فيها ، تنجلى تحت أشعة الشمس ..** وكانت الاشجار الخضراء فى الغابة متانقة تحت الضوء الساطع ، وقد تناثرت بيوت (الملايو) ذات السقوف المغطاة بالغاب ، وقبعت فى أحضان أشجار الفاكهة . ورأى نيبل الاهالى فى قوارب صغيرة ، يجدفون وهم وقوف . ولم يخامره أى شعور بأتفه اكتئاب ، بل شعر فى هذا الصباح المشرق بالحرية ، وأحس بالفضاء الواسع .. وهكذا استقبلته البلاد بترحاب رائع ، وادرك أنه سيكون سعيدا فيها . والقى الكابتن بريدون ـ الذى كان واقفا فى مركزه فى السفينة ـ نظرة ودية على الفتى الواقف تحته .. لقد أحبه خلال الايام الاربعة التى استغرقتها الرحلة .. صحيح أنه لم يكن يشرب الخمر ، ولا كان يستسيغ النكتة ، ولكن جديته هذه كانت تنطوى على شىء جذاب . فهو يرى كل شىء مهما وممتعا . وهذا ـ بطبيعة الحال ـ ما كان يحمله على الا يجد فى النكتة متعة . **ولكنه كان يضحك للنكتة ـ وان لم يستسغها ـ لا لشىء الا لانه كان يشعر بأنك تنتظر منه ذلك ! .. وكان يضحك لان الحياة عظيمة ، ويظهر الامتنان لكل شىء تقوله له ، ولو كان تافها ..** فهو لا يطلب منك شيئا قط ، دون أن يقول : « أرجوك » ، وهو على الدوام يقول : « اشكرك » ، عندما تعطيه هذا الشىء !

.. وكان وسيما ، وهذا ما لم يكن ينكره أحد ! .. ووقف نبيل ويداه على الحاجز ، يتطلع الى الشاطىء وهو يمر أمامه .. كان طويل القامة ــ يبلغ مائة وثمانين سنتيمترا طولا ــ عريض المنكبين ، ذا شعر كستنائى مجعد له بريق غريب يشبه الذهب أحيانا ، عندما يسقط عليه الضوء .. وكانت عيناه الكبيرتان الزرقاوان تبرقان دماثة ، وتعبران عن هنائه .. كما كان انفه صغيرا ، وفمه كبيرا ، وذقنه توحى بقوة العزيمة ، ووجهه كبيرا الى حد ما . **ولكن أهم ما كان يجتذب الانظار اليه هو جسده ــ اذ كان ناصع البياض ، ناعمــا ــ واللون الوردى الذى تميزت به خداه .. وقصارى القول أن جسمه كان جميلا ، جديرا بأن يكون لامرأة** .. وكان الكابتن بريدون يقابله فى كل صباح بنكتة لا تتغير : « هــل حلقت لحيتــك اليوم ؟ » . فيمر نبيــل بيده على ذقنــه ، ويقول : « لا .. أظن أنها بحاجة الى حلاقة ؟ » . فكان الربان يضحك دائما ويقول : « بحاجة اليها ؟ ! .. ان لك وجها كعجز الطفل ! ! » . وكان وجه نبيل يتضرج دائما ، وهو يتمتم متلعثما : « اننى أحلق لحيتى مرة فى الاسبوع ! »

ولكن شكله لم يكن العامل الوحيد الذى كان يحمل الناس على حبه ، بل كانت هناك أيضا الصراحة والنشاط وغضارة الشباب ، التى كان يواجه بها الدنيا .. ومع كل ما كان عليه

من عزيمة ، ومن وقار وجدية فى معالجة كل امر ، ومن ميل الى مناقشة كل نقطة تثار ، فقد كان فى اخلاقه شىء من بساطة عجيبة تشيع فى نفسك شعورا غريبا .. ولم يكن فى وسع ((الكابتن)) ان يدرك كنه هذا الشىء . فكان يقول لنفسه : « ترى ايرجع هذا الشىء الى أنه لم يتصل قط بامرأة ؟ .. ياله من امر عجيب ! .. ما كان من المعقول أن تتركه الفتيات وشأنه ، وقد أوتى هذه البشرة ! »

ولكن السفينة « السلطان أحمد » كانت تقترب من منعرج فى النهر ، تظهر بعده (كوالا سولور) للعيان ، فقطعت الأعمال الضرورية على الربان تأملاته ، إذ اتصل بغرفة الآلات ، فاذا سرعة السفينة تنخفض الى النصف . وبدت (كوالا سولور) مستلقية على الشاطىء الايسر للنهر : بلدة صغيرة بيضاء ، نظيفة .. وفوق تل — الى اليمين — قامت القلعة وقصر السلطان . وهب نسيم داعب علم السلطان المرفوع على سارية طويلة ، فتحرك فى زهو .. وألقت السفينة مرساها وسط النهر ، فصعد اليها الطبيب وضابط البوليس اللذان جاءا فى زورق الحكومة . وكان برفقتهما شخص طويل القامة نحيل الجسم ، فى ملابس بيضاء . ووقف الربان عند أول الممر ، فصافح الرجال الثلاثة ، ثم تحول الى الاخير منهم ، وقال : ((لقد احضرت اليك الشاب سالما معافى مفعما بالامل !)) .

ونظر الى نيبل وقال يقدم الرجل : ((هذا هو مونرو !))

وبسط الرجل الطويل النحيل يده الى نيبل ، وتفرس فيه بعين فاحصة ، فاحمر وجه نيبل قليلا ، وابتسم فانفرجت شفتاه عن أسنان جميلة ، وقال : « كيف حالك ياسيدى ؟ »

ولم يبتسم مونرو بشفتيه وانما بعينيه الرماديتين .. وكانت خداه غائرتين ، وله أنف انفى وشفتان شاحبتان ، وبشرة لوحتها الشمس بسمرة شديدة .. وكان الاجهاد يبدو جليا على وجهه . ولكن مظهره كان ينم عن لطف مفرط .

فسرعان ما شعر نبيل بالثقة فيه .. وقدمه الكابتن للطبيب وضابط البوليس، واقترح أن يتناولوا معا شيئا من الشراب. وعندما جلسوا واحضر الخادم زجاجات البيرة ، فخلع مونرو القبعة عن رأسه .. ورأى نبيل تحتها شعرا كستنائى اللون، بدا الشيب يدب فيه .. كان الرجل فى الاربعين من العمر ، هادئا ، رزينا ، يمتاز بطابع عقلى عن الطبيب الحاد الحركة ، وضابط البوليس المزهو بنفسه .

واذ ملأ الخادم أربعة أقداح بالبيرة ، قال الكابتن : « ان ماك آدم لايشرب خمرا ! » . **فقال مونرو : « هذا خير وأفضل . وأرجو ألا تكون قد استدرجته فى طريق الاثم ! ». فأومضت عين الربان وهو يجيب : « لقد حاولت ذلك فى سنغافورة ، فلم يحدث شىء! »**

وبعد أن انتهى « مونرو » من شرب قدح البيرة التفت الى نبيل وقال : « وبعد .. انهبط الى الشاطىء ؟ » .. وعهد بمتاع نبيل الى خادم مونرو ، ثم هبط الرجلان الى أحد الزوارق المحلية . واذ بلغا البر قال مونرو : « اتحب ان تذهب رأسا الى الدار ، أو أن تقوم أولا بجولة .. ان أمامنا ساعتين قبل موعد الغذاء ! » . فقال نبيل : « الا نستطيع أن نذهب الى المتحف ؟ ».. فابتسم مونرو ابتسامة خفيفة نمت بجلاء عن اغتباطه . وكان نبيل خجولا ، ولم يكن مونرو ثرثارا بطبيعته ، ولهذا سارا فى صمت .. وعند النهر ، رأيا أكواخ الاهالى التى يعيش فيها أهل الملايو عيشتهم الازلية التى لاتتغير .. وكانوا يعملون ، والكن فى غير عجلة ، وان أشعرك ذلك بنشاط عادى مشوب بالسعادة .. **كان ثمة ما يوحى بالحياة الرتيبة ، التى قوامها الولادة ، والموت ، والحب والامور العامة التى لاغنى للبشر عنها !** .. ومرا بالاسواق والشوارع الضيقة ذات السقوف المقبوة (البواكى) ، حيث رأيا الصينيين يعملون ويأكلون ، ويتحدثون بأصوات عالية

كعادتهم ، ويكدون ويكدحون ويناضلون الى الابد

وقال مونرو : « انها ليست مثل سنغافورة حقا ، ولكنى أعتقد على الدوام انها بلدة بهيجة ! » . وكان يتحدث بلهجة أهدأ من لهجة نييل ، وان كانت ملكنة الاسكتلندية ظاهرة فيها ، مما أدى الى ارتياح نييل ، فما كان بوسعه أن يقصى عن عقله أن انجليزية الشعب الانجليزى مشوهة ! .. وكان المتحف مبنى حجريا جميلا . واذ اجتازا أبوابه ، أعتدل مونرو ونصب قامته بحركة غريزية .. وادى الخادم الواقف لدى المدخل التحية ، فتحدث اليه مونرو بلغة الملايو ، مبينا له - على ماظهر - امر نييل ، فقد التفت الخادم الى الشاب وابتسم ، وادى له التحية مرة أخرى . وكان الجو فى الداخل رطبا اذا قيس بحر الخارج . كما كان الضوء مريحا بعد الوهج الذى صادفاه فى الشوارع

وقال مونرو : « أخشى أن يخيب ظنك ، فنحن لم نحصل على نصف ماكان ينبغى أن يكون لدينا ، وما كان يعوقنا الى الآن سوى الافتقار الى المال . وكان علينا أن نبذل مافى وسعنا ، فأرجو أن تتساهل فى الحكم ! »

وتقدم نييل وكأنه سباح يغوص مطمئنا فى بحر ، خلال فصل الصيف .. وكانت المعروضات منظمة بشكل يدعو الى الاعجاب ، لان مونرو سعى الى توفير الجو المسلى الى جانب الناحية التعليمية : فكانت الطيور والوحوش والزواحف معروضة وقد أحيطت - على قدر الامكان - بالاوساط الطبيعية التى تعيش فيها ، بشكل يوحى بوجود الحياة . وفقد نييل خجله ، فراح يتحدث فى حماسة صبيانية عن هذا وذاك ، موجها سيلا لانهاية له من الاسئلة ، وقد استبد به الاهتمام . ولم يشعر الاثنان بمرور الوقت ، حتى لقد دهش مونرو عندما نظر الى ساعته . فما لبثا أن خرجا من المتحف ، واستقلا مركبتين من مركبات « الريكشة » الى الدار .

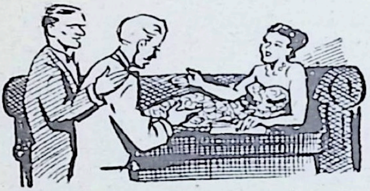

وقاد مونرو الشاب الى غرفة الاستقبال ، فاذا فيهاسيدة مستلقية على أريكة ، وهى تقرأ كتابا .. ونهضت ببطء عند دخولهما الحجرة ، فقال مونرو : « هذه زوجتى .. أرجو أن لا نكون قد تأخرنا كثيرا يا داريا ! » . **وابتسمت السيدة وقالت : « وفيم يهم هـذا ؟ .. أهناك ماهو أقل قيمة من الوقت ؟ »**

ومدت السيدة يدها الى نييل ــ وكانت يدا كبيرة الى حد ما ــ وصوبت اليه نظرة طويلة فاحصة ، ولكنها تنم عن ود. ثم قالت لزوجها : « أظنك كنت تريه المتحف ! »

وكانت سيدة فى الخامسة والثلاثين ، متوسطة الطول ، ذات وجه أسمر شاحب ، وعينين زرقاوين . وكان شعرها ــ المفروق عند منتصف رأسها ، والمعقود عند أعلى عنقها ــ غير منسق ، وذا لون بنى شاحب عجيب . أما وجهها فكان كبيرا ، بارز عظام الوجنتين ، مكتنز الانف بعض الشىء . **ولم تكن جميلة ، ولكن حركاتها البطيئة كانت مقترنة بفتنة مثيرة . كما كان فى تصرفاتها تراخ جسدى لا يمكن لغير بليدى الاحساس أن يغفلوه ! ..** وكانت ترتدى ثوبا قطنيا أخضر اللون ، وتتحدث الانجليزية باجادة تامة ، وان كانت تشوبها لكنة خفيفة .

وجلسوا يتناولون طعام الغداء ، وقد عاد الخجل الى نييل مرة أخرى . ولكن داريا لم تلحظ ذلك ــ على مابدا ــ فراحت

تتحدث بحرية وطلاقة . سألته عن رحلته وعن رأيه فى (سنغافورة)، وحدثته عن الناس الذين سيلتقى بهم ، وقالت ان مونرو سيأخذه ـ بعد ظهر ذلك اليوم ـ لزيارة المقيم ـ لان السلطان كان متغيبا عن البلاد ـ ثم يذهب به الى النادى حيث يقابل كل الناس ! .. واستقرت عيناها الزرقاوان عليه باهتمام ، وهى تقول : « لسوف تغدو شخصية معروفة ! » . ولم يكن من الصعب على أى شخص أقل ذكاء من نبيل أن يلاحظ انها كانت تبدى اهتماما كبيرا بحجمه ، وفتوته ، وشعره اللامع الجعد ، وبشرته البديعة . فقد استطردت قائلة : « انهم لا يميلون الينا كثيرا ! »

فقال زوجها : « هذا هراء ، وأنت حساسة أكثر مما ينبغى يا داريا ! .. كل ما فى الامر أنهم انجليز ! »

ـ انهم يرون ان من المضحك أن يكون « أنجوس » عالما ، ويظنون أن من الحطة أن أكون روسية .. ولكن هذا لايهمنى، فهم أغبى من رمانى حظى العاثر الى المقام بينهم وأكثرهم تفاهة وضيق أفق !

ـ لا تزعجى « ماك آدم » فى لحظة وصوله .. لسوف يجدهم كرماء ذوى حفاوة !

وسألت ماك آدم : « ما اسمك الاول ؟ » . فأجابها : « نبيل » . واذ ذاك قالت : « سأناديك به ، وعليك أن تنادينى باسم داريا ، لاننى اكره أن ينادونى باسم المسز مونرو ، فان هذا يجعلنى أشعر كما لو كنت زوجة وزير ! » .. واحمر وجه نبيل وارتبك . فقد ضايقه أن تطلب منه بهذه السرعة أن يرفع الكلفة فيما بينهما ! .. ومضت هى تقول : « بعض الرجال هنا ليسوا أشرارا ! » فقال مونرو : « انهم يؤدون أعمالهم على خير وجه ، وهذا ماجاءوا الى هنا من أجله » .

ـ انهم يصطادون، ويلعبون كرة القدم والتنس والكريكيت،

وعلاقتى بهم على مايرام .. أما النساء فلا سبيل الى احتمالهن، اذ انهن غيورات وخبيثات وكسولات .. لايستطعن التحدث فى شىء ، فاذا طرحت موضوعا أدبيا نظرن اليك بازدراء ، وكأنك شخص غير مهذب ! .. وماذا يملكن أن يتحدثن فيه ؟ .. انهن لايهتممن بشىء . فاذا أنت تحدثت اليهن عن الجسد ، اعتبرنك وقحا ، واذا تحدثت عن الروح توهمنك متحذلقا !

وابتسم مونرو وقال بروحه الكريمة السمحة : « لاتأخذن كلام زوجتى بحرفيته ، فان الجالية هنا كأية جالية اخرى فى الشرق ، فهم ليسوا اغبياء جدا ، ولا مهرة جدا ، وانما هم ودودون رقيقو الحاشية ، وهذا ليس بالشىء القليل ! » . فقالت السيدة : « **لست أريد الناس ودودين رقيقى الحاشية، وانما أريدهم ذوى حيوية وعاطفة . . اريدهم أن يعنوا بالبشر، وان يضفوا على الامور الروحية أكثر مما يبدون من الاهتمام بكأس من الجن أو طعام مخلوط بالتوابل .. أريد أن يكون للفن والادب مقام بينهم !** » . ثم التفتت الى نبيل فجأة ، وسألته : « هل لك روح ؟ » . فقال مرتبكا : « لست أدرى .. الواقع اننى لا أعرف ما تعنينه بهذا ! »

— لماذا تضرج وجهك عندما وجهت اليك السؤال ؟ .. لماذا تخجل من روحك ؟ .. انها أهم مافيك ، فحدثنى عنها، لاننى مهتمة بك وأريد أن أعرف !

وبدا لنبيل أن من المحرج أن يعامل بهذه الطريقة من شخص غريب تماما عنه . . أبداً لم يسبق له ان قابل مثيلا لهذه المرأة، فقد كان شابا جادا ، اذا وجه اليه سؤال صريح ، بذل جهدا للاجابة عنه ، وكان وجود « مونرو » هو الذى أربكه ! .. وقال لدارنيا : « لست أدرى ما تعنينه بكلمة روح .. اذا كنت تعنين كيانا غير مادى أو ذاتا غير مجسدة، خلقها الخالق على حدة ، لتكون ذات ارتباط مؤقت بالجسم المادى ، فان اجابتى

تكون بالنفى .. ويخيل الى أن هذه النظرية القائلة بازدواج جوهر الشخصية الانسانية لا يمكن لاى قادر على أن ينظر الى برهانها نظرة هادئة ، ان يدافع عنها . **أما اذا كنت من ناحية أخرى تعنين بالروح مجموعة العناصر الجسدية التى تؤلف مانعرفه باسم شخصية الفرد ، فانى اذن أقول ان لدى روحا بطبيعة الحال ! »**

فابتسمت داريا وقالت : « يالك من رقيق ، وانك للميح الى درجة عجيبة ! .. لا ، **انما أعنى القلب بنزواته ، والجسد بشهواته ، والسرمدية التى فينا ! ..** الا نبئنى ، ماذا قرات فى رحلتك ؟ .. أم تراك اكتفيت بلعب التنس على ظهر الباخرة ؟ »

ودهش نبيل لانتقالها من موضوع الى آخر فجأة ، وكان خليقا بأن يستاء لولا البشاشة التى ظهرت فى عينيها ، وما كان فى طباعها من بساطة طبيعية خالية من الاصطناع . وابتسم « مونرو » بهدوء لارتباك الشاب .. وعندما ابتسم، اصبحت الخطوط الممتدة من جانبى انفه الى ركنى فمه عبارة عن غضون وتجعدات ! .. وقال نبيل : « لقد قرأت كثيرا لكونراد » . فتساءلت : « للمتعة أو لتصقل عقلك ؟ » . فأجاب : « للأمرين معا ، فأنا معجب به الى أبلغ حد ! » . واذذاك طوحت داريا بذراعيها فى حركة احتجاج مبالغ فيها ، وصاحت : « هذا البولندى ؟ !.. كيف تسمحون أيها الانجليز لانفسكم بأن يبهرها هذا المتلاعب بالانفاظ ؟ ! .. لقد اجتمعت فيه كل سطحية مواطنيه .. **فأنت اذا تعمقت فى التفكير فى هذا السيل المتدفق من الكلمات ، والجمل التى تحمل أكثر من تأويل ، والبلاغة البراقة ، والعمق المصطنع ، فماذا تجد ؟ .. لن تجد غير شيء عادى تافه ! ..** انه أشبه بممثل من الدرجة الثانية ، يرتدى ثوبا شاعريا ، ويلقى كلمات من مسرحية لفيكتور هوجو ، فاذا انت تقول ـ فى الدقائق الخمس

الاولى ـ انها بطولة .. ثم تتمرد روحك ، فتصيح : لا ، هذا زيف .. زيف .. زيف ! »

وكانت تتكلم بعاطفة لم يعهدها نبيل من احد المتحدثين فى الفن والادب ، وقد شاع الاحمرار فى وجهها ـ الذى كان يفتقد اللون عادة ـ وابرقت عيناها .. فقال نبيل : « مامن كاتب يعرف كيف يهيىء الجو ككونراد ، وفى وسعى أن ابصر الشرق والمسه واشم عبيره وأنا اقرأ له ! »

ـ هراء ! ماذا تعرف عن الشرق ؟ .. سيقول لك كل امرىء أن كونراد ارتكب أفدح الاخطاء فيما ذكره عن الشرق ! .. سل انجوس !

فقال مونرو : « من الطبيعى انه لم يلتزم الدقة فى كل الحالات . فان (بورنيو) التى وصفها ليست هى (بورنيو) التى نعرفها . فلقد شاهدها من فوق سفينة تجارية ، ولم يكن دقيقا فى ملاحظة ما شاهده . ولكن هل لهذا قيمة ؟ .. لست أدرى لماذا يجب أن ندع الحقيقة تشوه الخيال ، **ولست اظن أنه ينال من الكاتب أن يخلق من وحى روحه بلادا مظلمة ، غامضة ، ذات جو شاعرى ، وبطولة ! »**

فقالت السيدة : « انك عاطفى يا عزيزى انجوس ! » .. ثم التفتت الى نبيل وقالت : « يجب أن تقرأ لتورجنيف .. ويجب أن تقرأ لتولستوى .. ويجب أن تقرأ لدستويفسكى ! »

* * *

ولم يعرف نبيل كيف يحكم على « داريا » ، فقد تجاوزت المراحل الاولى للتعارف ، وعاملته ـ فى الحال ـ كأنه شخص عرفته خير معرفة طوال حياتها . وادهشه هذا ، وحيره ، اذ لاح له أنه سلوك أرعن .. كانت غريزته قد اعتادت أن تتوخى الحذر عندما يلتقى بأى امرىء . ومع انه كان ودودا ، الا انه لم يكن يميل الى أن يتمادى فى الود قبل أن يتبين الطريق

أمامه .. لم يكن يميل الى أن يمنح أى شخص ثقته قبل أن يتأكد من ان هناك مبررا لذلك .. ولكنك لم تكن تستطيع أن تتمالك نفسك مع « داريا » ، اذ انها كانت تنتزع الثقة انتزاعا .. كانت تسحب المشاعر والافكار التى يحتفظ بها أغلب الناس لانفسهم ، مثلها فى هذا مثل المسرف الذى يلقى بقطع الذهب وسط حشد من الناس ! .. انها لم تكن تتحدث ولا كانت تتصرف كما يفعل كل انسان عرفه من قبل .. ولم تكن تبالى بما تقــول ، بل كانت تتكلم عن الوظائف الطبيعية للحيوان الممثل فى الانسان ، بطريقة جعلت الدم يتدفق الى خديه ، فأثار بذلك سخريتها ، وقالت له : « يا لك من غر !.. اى عيب فى هذا الكلام؟!. عندما اريدأن أتعاطى دواء مسهلا ، فما الذى يمنعنى من ان أقول ذلك ؟ .. وعندما أعتقد انك تريد دواء كهذا ، فما الذى يمنع ان أقول لك ذلك ؟ »

ـ انك على حق .. من الناحية النظرية !

وحملته على أن يحدثها عن والده وأمه وأخوته ، وعن حياته فى المدرسة وفى الجامعة . وحدثته عن نفسها .. كان والدها قائدا برتبة « جنرال » ، وقد قتل فى الحرب . وكانت أمها أميرة من اسرة « لوتشكوف » .. وكانوا فى روسيا الشرقية عندما استولى البلاشفة على السلطة ، فهربوا الى (يوكوهاما) ، وعاشوا فيها حياة بؤس وشقاء فباعوا جواهرهم وما استطاعوا أن ينجوا به من تحف .. وهناك ، تزوجت من مواطن لاجىء مثلها ، لم تسعد معه ، ولم تلبث أن طلقت منه بعد عامين !..

وماتت والدتها ، ثم اضطرت ــ اذ غدت معدمة ــ الى كسب عيشها بجميع السبل التى كانت تملكها .. فعملت فى هيئة أمريكية للغوث ، وعملت كمدرسة فى احدى مدارس الارساليات ، واشتغلت فى مستشفى !

وغلى دم نييل واشتد ارتباكه ، عندما حدثته عن الرجال الذين حاولوا استغلال فرصة ضعفها وفقرها . ولم تخف

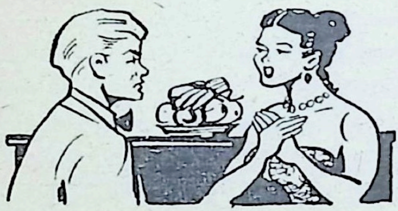

عنه شيئا من التفاصيل . فقال : « يا للوحوش ! » . فأجابته وهى تهز كتفيها : « آه .. كل الرجال على هذه الشاكلة ! » .. وذكرت أنها دافعت – ذات مرة – عن فضيلتها باشهار المسدس ، ثم قالت : « لقد هددته ، واقسمت أننى سأقتله اذا تقدم خطوة واحدة منى .. ولو أنه تقدم لكنت قتلته ككلب ! » . فهتف نيل : « يا لله ! »

ومضت تروى قصتها فقالت انها قابلت « أنجوس » فى (يوكوهاما) – وكان يقضى اجازته فى اليابان – فأسرتها إستقامته والخلق المهذب اللذان كانا ظاهرين بوضوح فيه . **وأعجبت برقته وحفاوته .. ولم يكن رجل اعمال ، وانما كان عالما ، والعلم أخ شقيق للفن .. وقد كفل لها « أنجوس » السلام والامن . وكانت قد تعبت من اليابان ، فبدت لها (بورنيو) ارضا محفوفة بالغموض .. وقد مضى على زواجها من « أنجوس » خمس سنوات !**

وأعطت نيل روايات روسية ليقرأها .. أعطته : « آباء وأبناء » ، و « آنا كارنينا » ، و « الاخوة كارامازوف » .. وقالت : « هذه الكتب الثلاثة هى أثمن الذخائر فى أدبنا ، فاقرأها ! .. انها أعظم روايات شهدها العالم ! » .. وكانت – ككثير من مواطنيها – تتكلم وكأنما ليس فى العالم أدب آخر ،

وكأن عددا من الروايات والقصص، وعددا من القصائد ، ونحو ست من التمثيليات الجيدة ، قد جعلت كل ما أنتجه العالم من أدب مجرد كم مهمل ! .. وهكذا سحرت نيل وطفت عليه .. وقالت له وهى تلقى اليه بنظرات رقيقة ناعمة : ((**انك يا نبيل تشبه اليوشا (بطل الاخوه كارامازوف) .. ولكنك اليوشا اسكتلندى يتميز بالشك والفطنة اللتين لا تسمحان لروحك .. لا تسمحان لما فى نفسك من جمال روحى بأن يظهر وينجلى !))**

فقال بحجل : ((ليس بى أى شبه باليوشا !))

ــ انك لاتعرف من الذى تشبهه ، لانك لاتعرف شيئا عن نفسك ! .. لماذا تنصرف الى دراسة التاريخ الطبيعى ؟ أمن أجل المال ؟ .. لقدكان فى استطاعتك أن تكسب كثيرا من المال لو انك اشتغلت فى مكتب عمك المحامى فى (جلاسجو) ! .. اننى لاحس فيك بشىء غريب .. شىء سماوى ، حتى أننى لاود أن أخر ساجدة عند قدميك ، كما فعل الاب زوسيما اذ ركع أمام ديمترى ، فى ((الاخوة كارامازوف)) !

فابتسم نيل ، وان اكتسى وجهه بالاحمرار ، وقال : ((ارجو الا تفعلى !)) .

غير أن الروايات التى قرأها جعلته يراها أقل غرابة مما كانت، اذ هيأت حولها جوا مكنه من أن يكشف فيها عن خصال ربما كانت غير مألوفة فى النساء اللواتى عرفهن فى اسكتلندا ــ وهن أمه وبنات عمه فى جلاسجو ــ **ولكنها كانت ميزات شائعة بين كثير من شخصيات القصص الخيالية الروسية . فلم يعد يعجب لحبها السهر والاسراف فى احتساء الشاى ، والاستلقاء على الاريكة طول النهار تقريبا ، وادمانها التدخين .. كان بوسعها ان تظل أياما بطولها لا تفعل سوى ذلك ، دون ان تسأم ! .. كانت تنطوى على خليط من الخمول والحيوية !..**

وكثيرا ماكانت تقول ــ وهى تهز كتفيها ــ انها شرقية ، وما

اصبحت أوربية الا بمحض المصادفة . وكانت ذات بهاء خداع يوحى بانها شرقيه فعلا . وكانت مهمله للغاية ، فلم يبد انها كانت تستنكر ان تتناثر أعقاب السجاير ، والصحف القديمة، والعلب المعدنية الخاويه ، فى جنبات غرفة الجلوس . على أن نبيل خال ان فيها شيئا من « آنا كارنينا » ، فحول اليها العطف الذى شعر به نحو هذه المراة المثيرة للاشفاق . اذ فهم كبرياءها : فما كان من الشذوذ ان تنبذ سيدت الجالية اللاتى تعرف عليهن بعد ذلك ــ شيئا فشيئا ــ فاذا هن من عامه الناس .. كان عقلها أسرع تفكيرا من عقولهن ، وكانت اكثر ثقافه منهن ، كما انها اوتيت ــ فوق ذلك ــ نوعا من الحساسية الجياشة التى كن يبهتن لها الى درجة غير عادية . ومع انها كانت فى المنزل ترتدى « الساروبج » و « الباجو » ــ وهما زى نساء تلك الاصقاع ــ الا انها كانت اذا خرجت مع « انجوس » للعشــاء ، تأنقت فى ثيابها بدرجة غــير مألوفه هناك . وكانت تحب ان تظهر مفاتن صدرها الكبير وظهرها الجميل، وكانت تصبغ خديها وتكحل عينيها كما تفعل الممثلات عندما يظهرن على المسرح ! .

ومع أن نبيل كان يضخط لتلك النظرات المشغوفة أوالمهتاجة التى كان ظهورها يثيرها ، الا أنه لم يكن يملك سوى أن يرى ــ فى قرارة نفسه ــ أن مما يرثى له أن تجعل من نفسها نهبا للانظار، وكانت تبدو عظيمة فى الواقع ، ولكنك كنت خليقا بان ترى أنها ليست جديرة بالاحترام ، اذا لم تكن تعرفها ! ..

وكان فيها أمور لم يفهمها : فقــد كانت ذات شهيــة عظيمة للاكل ، وكانت تأكل أكثر مما كان ياكل هو وانجوس معا !.. ولم يكن فى وسعه أن يعتاد الصراحة التى كانت تتوخاها فى مناقشة الشؤون الجنسية .. وكانت ــ من ناحيتها ــ ترى ان من المؤكد انه كان على صلات بكثير من النساء فى مسقط راسه وفى (ادنبره) ، ولهذا أخذت تلح عليه لكى يذكر لهـا

تفاصيل مغامراته . ولكن دهاءه الاسكتلندى ساعده على أن يروغ من الحاحها ويتهرب من اسئلتها . وكانت تضحك لهذا الاحجام . وكانت تفزعه احيانا : فقد اخذ يألف الصراحة التى كانت تبدى بها اعجابها بشكله . ولم تكن تتحرك له نأمة عندما كانت تقول له انه جميل أشبه بآنه شاب من آلهة الشمال ، فقد كان الغزل ينحسر عنه كما ينحسر الماء عن ظهر بطة .. **ولكنه لم يكن يحب منها أن تمر بيدها — وكانت يدا كبيرة ، ولكنها ناعمة جدا — على شعره ، وتتخلل اصابعها خصلاته برفق . ولم يكن يستسيغ تلك القبلة التى كانت تطبعها على خده وهى تبتسم !** .. وحدث يوما انها ارادت أن تشرب ، فبدأت تصب الماء فى كوب كانت على المائدة ، واذا نييل يسرع قائلا : « هذه كوبى ، وقد شربت فيها ! »

— وماذا فى هذا ؟ .. انك لست مصابا بالزهرى، أليس كذلك؟

— أنا نفسى أكره أن أشرب من كوب غيرى !

وكانت غريبة الاطوار فيما يتعلق بالسجائر كذلك . فقد حدث مرة أن كان معها ، فأشعل سيجارة ، ولكنها مدت يدها وأخذتها من فمه ، وقالت انها تريدها . ثم شرعت تدخنها ، وبعد أن جذبت منها نفسا أو اثنين ، أعادتها اليه وقالت انها لم تعد ترغب فى مزيد . وكان طرف السيجارة الذى دفعته فى فمها قد اصطبغ بخضاب شفتيها ، فكره أن يدخنها ، ولكنه

خاف ان تظنه فظا ، انه القى بالسيجارة ، فاخذ يدخنها باشمئزاز ! .. وكثيرا ماكانت تطلب منه سيجارة ، فاذا قدمها اليها سألته أن يشعلها لها . وعندما يفعل ذلك ويمد يده بالسيجارة ، تفتح شفتيها لكى يضعها بينهما ! .. ولم يكن بوسعه أن يمنع طرف السيجارة من أن يبتل من فمه ، فكان يعجب من انهاكانت تطيق ان تضعها فى فمها بعد ان كانت فى فمه هو ! .. وكان على يقين أن مونرو لا يستسيغ هذا . ولكنها ذهبت الى درجة ان فعلت ذلك مرة أو مرتين فى النادى، فشعر نبيل اذ ذاك بأن لون وجهه أصبح قرمزيا ، وود لو انها لم تكن على هذه العادات المستهجنة . ولكنه ظن انها عادات روسية . ولم يكن فى وسع المرء أن ينكر انها خير رفيقة، فقد كان حديثها مثيرا الى حد عجيب .. كان — من قبيل التورية — اشبه بالشمبانيا (التى ذاقها نبيل مرة واحدة ولم يستسغها) . ولم يكن ثمة ماتعجز عن الكلام فيه .. وما كانت تتحدث كالرجال . فأنت حين تتحدث الى رجل، تعرف عادة ما سيقوله، بعد أن تسمع أول حديثه . أما مع «دار يا»، فما كان بوسعك أن تتنبأ بما توشك ان تقول . وكانت بديهتها رائعة ، فكانت تمنحك آراء ، وتوسع مداركك ، وتثير خيالك .. وقد شعر نبيل بحيوية لم يسبق له أن شعر بها ، وخيل اليه أنه يسير على قمم جبال ، وان آفاق الروح غير محدودة .. واصبح يحس بنوع من الغبطة اذا ما فكر فى المجال العظيم الذى التقى فيه عقله بعقلها .. كانت هذه الاحاديث تجعل من اللذة الحسية المزهوة زبدا تافها ! .. واستطاع أن يرى أن المرأة كانت أذكى من صادف من النساء — من وجوه عديدة — مع أن نبيل كان بطبيعته حذرا ، ونادرا ماكان يصدر رايا — ولو فيما بينه وبين نفسه — مالم يكن متأكدا منه !

وكانت الى جانب هذا الذكاء زوجة « انجوس مونرو » .. ومهما يكن من تحفظ نبيل ازاء « داريا » ، فانه لم يكن يشعر

بأى حذر من ناحية « أنجوس » ! .. وكانت براعتها النفذة خليقة بأن تتضاءل ، اذا هى لم تفد من الاعجاب البالغ الذى كان يكنه لزوجها . **فقد كان نبيل يترك نفسه على سجيتها فى حضرة « أنجوس » ، اذ كان يشعر نحوه بما لم يسبق أن شعر به نحو أى شخص آخر . فقد كان « أنجوس » عاقلا ، متزنا ، متسامحا الى أقصى الحدود ، وهذا هو الطراز الذى كان نبيل يرجو أن يكونه عندما تتقدم به السن ! ..** كان قليل الكلام ، فاذا تكلم صدر فى حديثه عن عقـل راجح . وكان حكيما ، ذا نكتة لاذعة يفهمها نبيل، وتجعل من المزاح الانجليزى الذى يصدر عن قلوب رواد النادى عبثا تافها ! .. كذلك كان كريما ، صبورا ، له مهابة يستحيل على اى امرىء ازاءها ان يرفع الكلفة معه ، ولكنه لم يكن — مع هذا — متعجرفا ولا متكبرا ، وانما كان صادقا ، وأمينا . ولم يكن اعجاب نبيل به كعالم يقل عن أعجابه به كرجل. فقد كان واسع التفكير ، دقيقا . ومع أن اهتمامه كان منحصرا فى البحوث ، فقد كان يؤدى اجراءات العمل اليوميـة المألوفة فى المتحف بمواظبـة وأمانة .

* * *

وكان فى تلك الفترة معنيا بالحشرات العصوية ويعتزم وضع رسالة فى مقدرتها على التوالد العذرى . وقد وقع حادث ذو علاقة بالتجارب — التى كان يقوم بها — كان له أثره البالغ فى نفس نبيل . فقد حدث يوما أن أفلت قرد صغير من وثاقه ، واكل جميع اليرقات التى كانت التجارب تجرى عليها ، فأتلف الدليل الذى كان مونرو يعتمد عليه . وقد كاد نبيل ان يبكى عندما رأى هذا ، ولكن انجوس اكتفى بأن اخذ القرد وابتسم وربت عليه ، وهو يردد العبارة المأثورة عن اسحق نيوتن : « دياموند ! دياموند ! .. انك لا تدري مـدى ماأوقعت من تلف !»

وكان يدرس التقليد والمحاكاة بين المخلوقات كذلك . وقد نقل الى نيبل عدوى اهتمامه بهذا الموضوع المثير للجدل، وطالما عقدا محادثات طويلة بشأنه . وقد دهش نيبل لغزارة معرفة امين المتحف ، الذى بدا كالموسوعة ، مما جعل نيبل يخجل من جهله .. وعندما تحدث مونرو عن رحلاته الى الريف ، ليجمع عينات من الحشرات لتجاربه ، اشتدت حماسة نيبل، **فقد كانت هذه هى الحياة الحقيقية ، فى رأيه .. حياة المتاعب والصعاب ، التى تقترن بالحرمان فى أغلب الاحيان ، وبالخطر فى بعض الاحيان ، والتى يتمثل الجزاء عنها فى نشوة الحصول على عينات نادرة — أو جديدة ، على الاقل — وفى جمال المناظر ، وتأمل الطبيعة ، وفى الشعور — فوق كل شىء — بالحرية من كل قيد .** وكان هذا الجزء من العمل هو الذى عين نيبل لمباشرته أساسا ، فقد كان مونرو منهمكا فى البحوث بحيث بات من العسير عليه أن يتغيب عن مركزه بضعة أسابيع فى الرحلة الواحدة ، كما أن داريا كانت ترفض على الدوام أن ترافقه ، لانها كانت تشعر بخوف لا حد له من الغابة ، وكانت تذعر من الوحوش والافاعى والحشرات السامة ، وكان مونرو لاينفك يؤكد لها أنه ما من حيوان يؤذيها الا اذا عاكسته أو أخافته . ولكنها لم تستطع — برغم هذا — أن تتغلب على خوفها الغريزى . **ولم يكن يحب أن يفارقها ، اذ انها لم تكن تهتم بالمجتمع المحلى ، وكان يعلم أن ابتعاده عنها يجعل الحياة فى نظرها مملة الى حد لا يطاق . ولكن السلطان كان شديد الاهتمام بالتاريخ الطبيعى ، وتواقا الى أن يستكمل المتحف جميع الاحياء فى تلك البلاد .** وكان على مونرو ونيبل أن يقوما معا برحلة ، حتى يتعلم نيبل كيف يمضى فى العمل . وقد مكثا أشهرا يدرسان خطط هذه الرحلة . واخذ نيبل يتطلع اليها كما لم يتطلع الى أى شىء فى حياته !

وكان – فى تلك الاثناء – قد تعلم لغة (الملايو) ، والم الماما سريعا بمختلف اللهجات التى قد تفيده فى رحلته .. كما كان يلعب التنس وكرة القدم .. وسرعان ماعرف كل شخص من افراد الجالية الاوربيــة . وكان يطـرح عنه العلم والقصص الروســية ، اذا مانزل ميـدان كرة القــدم ، فينصرف الى الاستمتاع باللعب . وكان قويا وسريعا ونشيطا فى لعبه .

* * *

ولم يكن فى النية ان يقيم نييل اقامة مستمرة مع مونرو . وقد كانت هناك استراحة رحيبة فى (كوالا سولور) ، ولكن القاعدة كانت تقضى بأن لايقيم المرء فيها لاكثر من اسبوعين ، فكان الاعزاب يؤلفون جماعات تشترك كل منها فى دار واحدة . اذ لم تكن لهم مساكن رسمية .. وعندما وصل نييل ، لم يكن هناك مكان خال فى احدى هذه الدور . **ولكن حدث ذات مساء – بعد أن كان قد أقام فى البلاد أربعــة أشــهر – أن أخبره ((وارنج)) و ((جونسون)) ، بينما كانا يجلسان معه بعد مباراة فى التنس ، أن زميلا لهما فى الدار سيعود الى بلاده ، وسألاه عما اذا كان يحب أن ينضم اليهما فى المسكن ..** وكانا شابين فى مثل سنه ، ومن أعضاء فريق كرة القدم ، وقدمال اليهما نييل . وكان «وارنج» يعمل فى الجمارك ، و«جرنسون» فى البوليس . وقد ابتهج نييل لهــذه الفكرة ، وتقبلهــا على الفور ، فأبلغاه بنفقات هذه الاقامة ، واتفقــا معــه على يوم ينتقل فيه الى الدار ، على أن يكون هذا اليوم بعد أسبوعين .

وأبلغ مونرو وزوجته بهذا النبأ فى وقت العشاء ، قائلا : « انه لجميل منكما أن أبقيتمانى معكما هذه الفترة الطويلة ، ولكنى كنت على مضض ؛ اذ فرضت نفسى عليكما .. كنت فى اشد حالات الخجل . اما الآن فلم يبق أمامى أى عذر ! » .

فقالت داريا : ((**ولكننا نحب أن تقيم معنا هنا فلست بحاجة الى عذر ما !))**

ـ ما أراني أقيم هنا الى مالا نهاية !

ـ ولم لا ؟ .. ان مرتبك ضئيل ، فما جدوى انفاقه فى المسكن والمأكل ؟ .. ثم انك لن تلبث أن تضيق بوارنج وجونسون لانهما غبيان ، ولا يفكران فى شىء غير الانصات الى « الجراموفون » ، واللعب !

وكان من المناسب حقا أن يعيش الانسان بغير مقابل ، فقد كان يقتصد الشطر الاكبر من مرتبه . وكان بطبيعته ميالا الى الاقتصاد ، ولم يعتد التبذير اذا مالم تدع اليه ضرورة . ولكنه ـ برغم هذا كله ـ كان ذا انفة ، فليس بوسعه أن يعيش على حساب الاخرين . وقد نظرت اليه « داريا » بهدوء ، وبعينين فاحصتين ، وقالت : « لقد الفناك ـ انا ونجوس ـ وأعتقد أننا سنفتقدك . ويمكنك اذا أردت أن تدفع نفقات اقامتك معنا .. انك لاتكبدنا شيئا ، ولكنى على استعداد لان أتبين ـ من حساب الطاهى ـ المبلغ الذى تتكلفه ، وتستطيع أن تدفعه اذا كان ذلك يهون عليك الامور ! » . فأجاب بشىء من التردد : « ان ايواء غريب فى المنزل من الامور المزعجة ولا بد ! » . ولكنها قالت : « ستكون اقامتك فى تلك الدار مزرية ! .. ويلها من قاذورات ، تلك التى يأكلونها ! »

وكان صحيحا أن المرء يأكل عند آل مونرو وجبات لا يجد خيرا منها فى أى مكان آخر فى (كوالا سولور) ، وقد عرف نبيل هذا بالتجربة ، اذ تناول طعام عشائه مرات فى دور أخرى ـ منها دار المقيم ـ فلم يجد ماهو أفضل من طعام آل مونرو . اذ كانت « داريا » ذواقة للطعام ، حريصة على أن يكون الطاهى بارعا الى أقصى درجة . فكان يطهى لها الاكلات الروسية التى تغرى بالاقبال عليها ، وكان حساء الكرنب على مائدتها ، جديرا بأن يسير المرء خمسة أميال ليظفر بنصيبه منه .

وظل مونرو لا يقول شيئا . ولكنه ما لبث أن قال :

« يسعدني أن تبقى معنا . ومن المناسب أن تكون فى عين المكان الذى أكون فيه، حتى اذا استجد شيء امكننا ان نبحثه فى وقته .. ان وارنج وجونسون من خير الفتيان ، ولكنك قد تتبين ـ بعد أن تقضى معهما فترة من الزمن ـ انهما محدودا الافق ! » . **فقال نبيل : « آه ، لا بأس اذن ، وسيسرنى البقاء . فالله يعلم أننى لا أريد أحسن من هذا .. كل ما فى الامر أننى خشيت أن أكون قد أثقلت عليكما ! »**

وهطل المطر فى اليوم التالى ، واشتد الى حد اصبح من المستحيل معه لعب التنس أو كرة القدم ، غير أن نبيل ارتدى ـ حوالى الساعة السادسة ـ معطفا واقيا من المطر ، وذهب الى النادى . ولم يكن هناك أحد غير المقيم ، الذى كان جالسا فى مقعد مريح ، يقرأ احدى المجلات .. وكان يدعى «تريفليان» ويزعم أنه كان يمت الى صديق « بيرون » الذى كان يحمل هذا الاسم . وكان طويل القامة ، بدينا ، أشيب الشعر ، ذا وجه كبير أحمر يشبه وجه الممثل الهزلى . وقد كان مغرما بالمسرحيات التى يؤديها الهواة ، وكان أعزب وان اشتهر بأنه كان ولوعا بالفتيــات ، ويحب تعــاطى شراب « الجن » قبل العشاء ، ويدين بمنصبه هذا لصداقته للسلطان .. كما انه كان لطيف المعشر ، محدثا لبقا ، لايحب العمل كثيرا ، بل يحب ان يسير كل شيء فى يسر وسهولة دون أن يثير أحد اية مشــاكل . **ومع أنه لم يكن كفءا ، الا أنه كان محبــوبا من الجميع ، لانه كان لين العريكة ، مضيافا . والواقع أنه بهذا جعل الحياة مريحة أكثر مما لو أنه كان نشيطا وكفءا !**

واذ وقع نظره على نبيل ، أومأ اليه محييا وقال : « حسنا أيها الشاب ، كيف حال الحشرات اليوم ؟ » . فأجاب نبيل بلهجة جدية : « فى خير حال يا سيدى ! » .

وان هى الا بضع دقائق، حتى دخل «وارنج» و «جونسون» وشخص ثالث ، كان موظفا حكوميا يدعى «بيشوب» . وسألوا

نييل أن يشترك معهم فى لعب « البريدج » ، ولكنه اعتذر . فذهب بيشوب الى المقيم وسأله : « هل تتكرم بأن تكون رابعنا فى اللعب .. فليس فى النادى اليوم كثيرون » . فنظر المقيم الى الآخرين ثم قال : « لا بأس . سأفرغ من قراءة هذا الموضوع ، ثم أنضم اليكم ، فابدأوا اللعب وكأننى معكم ، ولن أغيب أكثر من خمس دقائق ! » .. وسار نييل الى الرجال الثلاثة ، وقال لوارنج : « بهذه المناسبة ، أشكرك كل الشكر يا وارنج ، ولكنى لن أستطيع الانتقال الى داركم ، لان مونرو وزوجته سألانى ان أستمر فى الاقامة معهما ! » .. وارتسمت على وجه « وارنج » ابتسامة عريضة وقال: « هذا عجيب ! » . فقال نييل : « **انه لطف بالغ منهما ، أليس كذلك ؟ .. لقد احتفا فى هذا ، حتى أننى لم أستطع الرفض !** »

فقال بيشوب : « ما الذى قلته لك ؟ » . فأجاب وارنج : « لست ألوم الفتى ! » .. وكان فى مسلك الشابين شىء غريب لم يرق لنييل . فقد بدا له أنهما كانا يتهكمان ، فاحمر وجهه وصاح : « عم تتحدثان بحق الشيطان ؟ » . فقال بيشوب : « **آه ، لا تغضب .. اننا نعرف صاحبتنا « داريا » ، ولست أنت أول شاب جميل الطلعة تستهويه ، ولن تكون الاخير !** »

ولم يكد ينتهى من كلامه حتى كانت قبضة نييل قد انطلقت كالبرق ، فأصابت وجه بيشوب ، فسقط على الارض . وهب جونسون فطوق وسط نييل ، لانه كان قد فقد سيطرته على أعصابه ، وأخذ يصيح ذائلا : « دعنى ، فسوف أقتله ما لم يسحب ما قال ! » . وانتبه المقيم الى الهرج ، فقام متثاقلا ، واتجه نحوهم ليستجلى الامر وقال : « ما هذا ؟ .. ما هذا ؟ .. ماذا تلعبون أيها الاولاد ، بحق الجحيم ؟ » .. وبهت الجميع ، اذ كانوا قد نسوا وجوده ، وهو صاحب السلطان عليهم . فتخلى جونسون عن نييل ، واستجمع بيشوب نفسه ووقف ، وتجهم وجه المقيم وسأل نييل : « ما معنى هذا ؟ .. هل

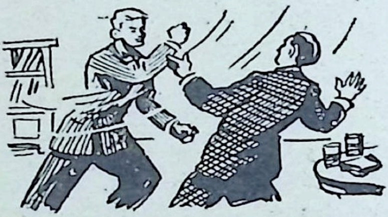

ضربت بيشوب ؟ » . فأجاب: « أجل يا سيدى» . وعاد المقيم يسأله : « ولماذا ؟ » . واذ أجاب : « لانه فاه بعبارة تمس شرف سيدة » ، أبرقت عينا المقيم ولكنه استمر فى حديثه قائلا : « وأية سيدة ؟ »

فرفع نبيل رأسه عاليا ، وانتصبت قامته ، وقال : « اننى أرفض الاجابه ! »

ولو لم يكن المقيم أطول من نبيل ببوصتين ، واكبر منه حجما ، لكان موقف الشاب أدعى للارهاب .. وقال المقيم لنبيل : « لا تكن غبيا ! » . فقال جونسون : « انها داريا موررو ! » . واذ ذاك قال المقيم : « وماذا قلت يا بيشوب؟» .

ـ لقد نسيت الكلمات التى استخدمتها ، ولكنى قلت ما معناه انها شاركت عددا كبيرا من الشبان الفراش ، وعبرت عن ظنى بأنها لم تفلت فرصه لان تفعل ذلك مع « ماك آدم » أيضا !

ـ انه ظن ينطوى على أشد الاهانات ، ويحسن بك أن تعتذر اليه وتصافحه !

ـ لقد تلقيت لكمة شديدة ، ولن تلبث عينى أن تتورم .. وليلعننى الله اذا أنا اعتذرت عن صدق قلته !

ـ انك من كبر السن بحيث تدرك أن مجرد صدق قولك يجعله أبلغ اهانة . اما عن تورم عينك ، فيقال أن قطعة من

اللحم النيىء تفيد فى مثل هذه الظروف ! ! .. واذا كنت اضع رغبتى فى ان تعتذر ، فى قالب رجاء ، فليس هذا سوى مجاملة وادبا . ولكنها فى الواقع امر !

وسادت فترة من الصمت ، بدا المقيم خلالها متلطفا .. وما لبث بيشوب أن قال فى تجهم : « اننى أعتذر عما قلت يا سيدى » . فقال المقيم : « والآن .. دورك يا ماك آدم ! »

ـ آسف لاننى آذيته يا سيدى ، واعتذر انا الآخر !

فقال المقيم : « فلتتصافحا ! » .. وتصافح الشابان ، فاستطرد المقيم قائلا : « لست احب ان يتسع هذا الموضوع ، لانه لن يكون سارا لمونرو الذى نحبه جميعا على ما أعتقد . فهل أعتمد عليكم فى أن تعقلوا ألسنتكم ؟ » . فأومأوا جميعا برؤوسهم . ومضى المقيم يقول : « والآن .. انصرفوا ، وابق أنت يا ماك آدم ، فانى أحب أن أزجى اليك بضع كلمات ! » ..

وعندما أصبح الاثنان وحيدين ، جلس المقيم وأشعل سيجارا لنفسه ، وقدم آخر لنيل ، ولكن هذا اعتذر لانه لم يكن يدخن غير السجائر .. وقال المقيم مبتسما : « انك شاب عنيف جدا ، ولست أحب أن يظهر الموظفون الذين تحت امرتى بمثل هذه المظاهر فى مكان عام » .

ـ ان المسز مونرو صديقة حميمة لى ، وقد أظهرت لى عطفا كبيرا ، فلست أطيق أن أسمع شيئا ضدها !

ـ اننى أخشى اذن ان تضطر الى ان تنشىء لنفسك وظيفة جديدة تناسبك ، اذا بقيت هنا زمنا أطول

فصمت نيل برهة ، ووقف منتصبا امام المقيم ، فارع الطول ، لا يشوب وجهه الجاد سوى امارات الصدق .. وطوح برأسه الى الوراء فى تحد ، وأظهر الانفعال لكنته الاسكتلندية اوضح من المألوف ، وهو يقول : « لقد اقمت مع آل مونرو اربعة اشهر ، واقسم لك بشرفى على انه ـ فى النطاق الذى يمسنى ـ ليست هناك اية ذرة من الحقيقة فيما قانه

هذا الوحش .. فلم تبد المسز مونرو لى معاملة يمكن أن تصفها بأنها منطوية على ود لا مبرر له ، ولم تظهر أية بادرة توحى الى ــ بالقول أو بالفعل ــ بأن لديها أية فكرة غير بريئة . وانما كانت لى بمثابة «الام أو الشقيقة الكبرى ! » .. وظل المقيم يراقبه فى تهكم واستهزاء ، ثم قال : « يسعدنى جدا أن أسمع هذا فهو أحسن ما سمعته عنها منذ وقت طويل ! » .

ــ أنت تصدقنى يا سيدى .. أليس كذلك ؟

ــ طبعا ؟ .. وربما تكون قد أصلحتها !

ونادى المقيم الساقى ، فطلب منه كأسا من الجن ثم التفت الى نييل وقال: « هذا يكفى، ويمكنك الآن أن تذهب اذا أردت . ولكنى لا أريد المزيد من العراك ، فحذار ، والا أوقعك هذا فى متاعب ! »

* * *

وعندما سار نييل عائدا الى دار مونرو ، كان المطر قد توقف عن الهطول ، وظهرت النجوم فى رقعة السماء المخملية ، واخذت الفراشات تطير فى الحديقة وتنتقل بين الازهار ، وتصاعد من الارض دفء معطر .. مما كان يوحى اليك بأنك اذا توقفت عن السير استطعت أن تسمع حركة نمو الزرع الجميل .. وكانت زهرة الليل البيضاء تبعث فى الجو أريجا شذيا .

وكان مونرو يجلس فى الشرفة منهمكا فى نسخ بعض المذكرات على الآلة الكاتبة ، بينما استلقت « داريا » على مقعد طويل ، وراحت تقرأ .. وكان المصباح المعلق وراءها يلقى ضوءه على شعرها القاتم ، فيكسبه بريقا يبديه كالهالة ! .. وعندما سمعت خطواته ، وضعت الكتب جانبا ونظرت اليه وابتسمت ابتسامة مسرفة فى الود . وقالت : « اين كنت يا نييل ؟ » . فاجاب : « فى النادى » . وعادت تقول : « وهل كان هناك أحد ؟»

وكان المنظر عائليا مريحا ، وفى مسلك « داريا » دعة وطمانينة يستحيل على الانسان أن لا يتأثر بهما ، وقد انصرف كل من الزوجين الى مايهمه ، ومع ذلك فقد لاح أنهما متحدان ، وان ائتلافهما طبيعى الى حد لا يمكن لاى انسان أن يتصور معه أنهما غير سعيدين ! .. ولم يصدق نبيل كلمة واحدة مما قال بيشوب وما لمح به المقيم ، فقد كانت هذه أمورا لا يقبلها العقل ، ولكن هو متأكدا — على أية حال — من أن ماساورهم من ريب نحوه كان بعيدا عن الحقيقة ، فلماذا لا يكون باقى الحديث غير حقيقى كذلك ! .. لقد كانت بهؤلاء الناس افكار خبيثة ، وكانوا أشرارا ، ولهذا فهم يظنون أن كل شخص آخر على شاكلتهم ! .. وشعر بألم فى مفاصل أصابعه ، ولكنه شعر أيضا بالاغتباط لانه آذى بيشوب .. وتمنى لو يعرف من الذى بدأ اذاعة هذه الشائعة الخبيثة ، اذن لدق عنقه ! .

غير أن مونرو قطع عليه أفكاره ، معينا موعد الرحلة التى بحثا امرها طويلا . وبدأ — بطريقته الدقيقة — يعد العدة للرحلة ، حتى لا ينسيا شيئا فى اللحظة الاخيرة . وكانت الخطة التى رسمها تتمثل فى أن يمضيا فى النهر الى أقصى مايستطاع ، ثم يشقا طريقهما خلال الغابة ويسعيا وراء العينات على جبل (هيتام) الذى لا يعرفه الكثيرون . وكانا يتوقعان أن تستغرق الرحلة شهرين . وأخذت روح مونرو المعنوية ترتفع باقتراب موعد الرحيل . ومع أنه لم يكن يتحدث كثيرا — بل ظل هادئا متماسكا أعصابه — الا انه لم يكن من العسير على المرء ان يحكم من البريق الظاهر فى عينيه والنشاط الذى دب فى خطواته ، بمدى تشوقه الى البدء فى الرحلة .. وبينما كان فى المتحف فى صبيحة أحد الايام ظهر عليه المرح ، وقال فجأة لنبيل ، بعد أن فرغا من بعض تجارب كانا يجريانها : « لدى أنباء سارة لك .... ان داريا ستأتى معنا ! »

— هل ستأتى حقيقة ؟ .. انه لامر عظيم حقا !

واغتبط نييل لهذا النبأ ، بينما قال مونرو :

ــ انها المرة الاولى التى تمكنت فيها من اغرائها بمرافقتى . وكم نبأتها أنها ستسر وتستمتع بالترحال ، ولكنها لم تكن تصغى الى ! .. ان النساء من مخلوقات شاذة ! .. لقد يئست من اقناعها ، فلم أسألها المجىء فى هذه المرة ، ولكنها فاجأتنى فى الليلة الماضية برغبتها فى مرافقتنا !

فقال نييل : « اشد ما انا مسرور ! » . واردف مونرو : « لم اكن أستسيغ فكرة تركها وحدها فترة طويلة . أما الآن ، فبوسعنا ان نبقى فى الرحلة اطول فترة نشاء ! »

وبدأت الرحلة فى ساعة مبكرة من صباح احد الايام وقد استقلوا اربعة قوارب ، يقودها بحارة من ابناء الملايو . وكانت الحملة تتألف من خدمهم واربعة من الصيادين ، من عشائر « الدياك » . وجلس البيض الثلاثة متجاورين تحت السقيفة ــ فى أحد هذه القوارب ــ بينما كان الخدم الصينيون و « الدياك » فى القوارب الاخرى . وقد اصطحبوا اكياسا من الارز لمرافقيهم ، وأطعمة لانفسهم ، وملابس ، وكتبا ، وكل ما كان ضروريا لعملهم .. وما كان أسعدهم حين تركوا المدنية وراءهم ، فاستولى عليهم المرح واخذوا يتحدثون ويدخنون ويقرأون! .. وكانت حركة النهر مهدئة للاعصاب الى حد رائع ! .. وتناولوا طعام الغداء على شاطىء مكسو بالحشائش والاعشاب ، حتى اذا كان الغسق ، ألقوا المراسى لقضاء الليل ، وقد ناموا فى دار طويلة ، واحتفل الاهالى بزيارتهم ، فقدموا شراب « العرق » ، وأقاموا حفلة راقصة يقصر عن وصفها الخيال !

وفى اليوم التالى ، أخذ مجرى النهر يضيق ، فزاد فى شعورهم بأنهم مقدمون على المجهول . أما النباتات التى حفلت بها حواف الشاطئين ــ وكأنها حشد من الناس المتحمسين تدفعهم من ورائها حشود أكبر ــ فقد فتنت نييل الى حد بث فى نفسه عجبا وغبطة ! .. حتى اذا كان اليوم الثالث ،

انتقلوا الى قوارب اخف وزنا ، اذ ازداد المجرى ضحلا والتيار اندفاعا . ولكن التيار اشتد ، فلم يعد فى طاقة السحارة أن يجدفوا ، بل استخدموا المدراة لتسيير القوارب ضد التيار بحركات قوية رائعة . وكانوا بين الحين والآخر يمرون بشلالات ، فينزلون الى الشاطىء ، ويفرغون القوارب ، ثم يسحبونها خلال ممرات مملوءة بالصخور ..

* * *

وفى اليوم الخامس بلغوا بقعة لم يتمكنوا بعدها من التقدم. وكانت هناك دار حكومية فقضوا فيها ليلتين ، قام خلالها مونرو باتخاذ الاجراءات اللازمة ليوغلوا فى داخل البلاد . فطلب حمالين لنقل متاعهم ، ورجالا ليبنوا لهم دارا عندما يصلون الي جبل (هيتام) . وكان لزاما على مونرو أن يقابل زعيم قرية مجاورة ، فرأى ـ اقتصادا فى الوقت ـ أن يذهب بنفسه الي الزعيم ، بدلا من أن يستدعيه اليه . وبهذا ذهب الى القرية فى فجر اليوم التالى لوصولهم،ورافقه دليل واثنان من ((الدياك)) . وكان يتوقع أن يعود فى بضع ساعات .

وبعد أن ودع نبيل رئيسه ، رأى أن يستحم . وكانت هناك بركة غير بعيدة عن الدار ، ينساب فيها الماء صافيا ، حتى لتستطيع أن ترى كل ذرة من رمال القاع . وكان النهر فى هذه البقعة ضيقا للغاية ، حتى أن أشجار الضفتين كانت تتعانق فوقه .. كانت بقعة جميلة ، ذكرت نبيل بالبرك الاسكتلندية التى كان يستحم فيها وهو غلام ، وان كانت ـ مع هذا ـ تختلف عنها اختلافا غريبا ، اذ كان يخيم عليها جو شاعرى ، وإحساس بالطبيعة البكر ، مما ملأ قلبه بمشاعر تعذر عليه تحليلها .. ولقد حاول تحليلها ـ فى الواقع ـ ولكن رؤوسا اكبر سنا من رأسه ، عجزت عن تعرف كنه هذه السعادة ! .. وكان هناك طائر ازرق اللون ، يقف على فرع شجرة ، وقد انعكس لونه

الازرق الزاهى على ماء الجدول الشفاف . ثم طار ، فاذا له جناحان فى بريق الجواهر . والظاهر أنه فوجىء بظهور نبيل الذى خلع ثيابه ، وارتمى فى الماء !

وكان الماء عذبا ، ولكنه لم يكن باردا . فأخذ يضرب فيه بيديه ورجليه ، مستمتعا بحركة ساقيه القويتين . ثم استلقى على ظهره ، وأخذ يتطلع — خلال الاغصان — الى السماء الزرقاء ، والى الشمس التى كانت ترسل أشعتها على سطح الماء . ولكنه سمع فجأة صوتا يقول : ((ما أنصع بياض جسمك يا نبيل !)) . فشهق وانتفض من استلقائه ، وغاص بجسمه فى الماء ، ثم استدار فرأى دار يا واقفة على الشاطىء !..

وقال : ((اسمعى .. ليست على جسدى ثياب ما !))

— اننى ارى هذا .. وانه لاكثر متعة أن يستحم الانسان بغير ملابس! انتظر برهة ، فانى آتية اليك ، اذ يلوح الاستحمام ممتعـــا !

وأخذت تخلع ملابسها ، فأسرع يشيح بوجهه . ثم سمع صوت ارتطام جسمها بالماء ، فضرب الماء مرتين أو ثلاثا ليبتعد فيفسح لها مكانا تسبح فيه بمنأى عنه . ولكنها سبحت نحوه وقالت : ((أليس الشعور بالماء على الجسم لذيذا ؟))

وضحكت ، وفتحت كفها ناثرة الماء عليه ، فارتبك ولم يدر الى اية ناحية يوجه نظره ، اذ كان من المستحيل عليه — فى هذا الماء الصافى — الا يرى انها كانت عارية من كل شىء . ولم

يكن الامر سيئا وهى فى الماء ، ولكنه لم يتمالك أن يفكر فى الصعوبه التى ستحف بمبارحة الماء . وبدا ان « داريا » كانت منتشية ، اذ هتفت : « نست أبالى بأن يبتل شعرى .» . ثم انقلبت على ظهرها ، وسبحت حول البركه بضربات قوية ، بينما كان نبيل يقول لنفسه أن خير ما يجب ان يفعله — عندما تغادر الماء — هو أن يوليها ظهره ريثما ترتدى ملابسها وتنصرف .. ثم يغادر الماء بعد ذلك . ولكنها لم تكن شاعرة بحرج الموقف — فيما بدا — فاغتاظ منها ومن مسلكها غير اللائق . وقد ظلت تتحدث أليه وكأنها على البر فى كامل ملابسها .. بل انها راحت تلفت انتباهه اليها ، اذ قالت : « هل يبدو شعرى بشع المنظر ؟ .. انه من الخشونة بحيث يغدو كذيول الجرذان اذا ما ابتل ! .. امسكنى من تحت كتفى لحظة ، ريثما احاول أن أعقصه ! »

— انه لا بأس به ، ومن الخير أن تتركيه الآن

— انني أكاد أموت من الجوع ، فما رأيك فى تناول الفطور ؟

— اذا خرجت من الماء أولا ، وارتديت ملابسك ، فسأتبعك بعد دقيقة واحدة

قالت : « حسنا » . وسبحت نحو الشاطىء بحركتين من ذراعيها . أما نبيل فقد حول نظره الى ناحية اخرى حتى لا يراها وهى تخرج عارية من الماء .. ولكنها لم تلبث أن صاحت : « لست قادرة على الخروج ، فتعال وساعدنى ! » .. فقد كان النزول الى النهر سهلا ، ولكن الشاطىء كان عاليا ، بحيث يتعين على المرء أن يرفع نفسه بأن يتشبث بغصن شجرة .. وقال نبيل : « لا أستطيع ذلك ، فليست على جسيمى قطعة من الملابس »

— أعرف هذا ، فلا تكن متزمتا كديمقراطيك الاسكتلنديين ، بل اخرج الى الشاطىء ، ومد الى يدك لتساعدنى على الخروج!

ولم يكن هناك مفر من هذا ، فخرج نييل وسحبها وراءه . وكانت قد تركت ملابسها بجوار ملابسه ، فاخذت تجفف جسمها . ولم يسع نييل الا أن يحذو حذوها . ولكنه ادارتها ظهره من باب الكياسه والذوق ، فقالت له : ((**الحق أن لك جسما جميلا للغاية ، فهو أبيض ، ناعم الملمس ، كأنه جسم امرأة !.. انه لامر عجيب أن تكون هذه الصفات مقترنة بمثل قوتك وفتوتك.. ثم أنك لم تؤت شعرة واحدة على صدرك !**)). فلف نييل ((الساورنج)) — المئزر — حول خصره ، وسلك ذراعيه فى ((الباجو)) ، ثم سألها : ((أعلى استعداد أنت ؟)).

وظل نييل بعد الفطور متجهما بعض الشيء .. لقد كانت ((داريا)) ممعنة فى صبغتها الروسية الى ابعد مدى . وكان من الغباء أن تتصرف تصرفا كهذا ، لم يكن فيه شيء من الضرر — بطبيعة الامر — ولكنه كان عين النوع الذى يحمل الناس على أن يظنوا فيها الظنون .. وأسوأ ما كان فى الامر ، انك لم تكن تملك أن تنبهها الى الامر بأية اشارة ، فانها ما كانت تفعل سوى أن تضحك منك. **ولكن الواقع هو أنه لو كان قد قدر لواحد من أولئك الرجال الذين فى (كوالا سولور) أن يراهما يستحمان سويا وهما عاريان ، لما أفلحت أية حجة فى اقناعه بأنه لم يحدث بينهما شيء غير لائق !** .. وقد اعترف نييل بينه وبين نفسه — وبطريقته المنصفة — بأنه لايملك أن يلوم أشخاصا كهؤلاء.. كان تصرفها أسوأ ما يكون ، فما كان من حقها أن تزج بشخص فى مثل هذا المأزق .. وشعر بأنه مغفل، فقد كان المسلك مجافيا للياقة ، مهما يكن رأيك أو حجتك !

* * *

وفى صباح اليوم التالى ، شاهدا الحمالين آتين فى صف طويل ، وقد حمل كل منهم نصيبه من الامتعة فى سلة علقت على ظهره ، ووراءهم الخدم والاولاد والصيادون . فانضما

الى هذا الموكب ، وسار الجميع فى طريق يمتد فوق الحواف السفلى المجبل ، خلال وهاد ومرتفعات تكسوها أعشاب طويلة . وكانوا يصادفون – بين فترة واخرى – جداول ضيقة اجتازوها على جسور مصنوعة من الغاب . وكانت الشمس تلفحهم بحرارتها العنيفة . ووصلوا بعد ظهر ذلك اليوم الى ظلال اجمة من اشجار الغاب ، فكانت متنفسا لهم بعد ذلك القيظ الشديد . وكان منظر الغاب رائعا وهو ينتصب فى رشاقة الى ارتفاعات لا يكاد يصدقها العقل .. **وأخيرا ، وصلوا الى الغابة الكبرى : أشجار ضخمة تلتف حولها النباتات المتسلقة الغزيرة ، وقد تعانقت الفروع والاغصان ، وخيمت عليها الرهبة !** .. وشق القوم طريقهم خلال الاعشاب والنباتات الكثيفة ، ضاربين وسط ظلام خفيف كظلام الغسق ، لا يحظون بلمحة من ضياء الشمس الا بين آن وآخر ، خلال الاغصان المتشابكة فوقهم .. ولم يروا انسانا أو حيوانا ، لان سكان الغابة يجفلون عادة لاول صوت لوقع الاقدام ، فيختفون عن الانظار ! .. وكانوا يسمعون الطيور فى أعالى الاشجار ، ولكنهم لم يروا منها غير طائر « أبى الزهور » المغرد ، الذى يتنقل بين الشجيرات ويحط على الزهور ليداعبها ويغنى لها . وما لبث القوم ان حطوا الرحال لقضاء الليل . فأعد الحمالون فرشا من الاغصان بسطوا عليه قماشا واقيا من البلل والرطوبة . واعد الطاهى الصينى العشاء ، فلما انتهوا من تناوله ، تأهبوا للنوم .

وكانت هذه هى الليلة الاولى التى يقضيها نييل فى غابة ، ولهذا لم يستطع النوم . فقد كان الظلام دامسا ، واصوات الحشرات التى لا تحصى تكاد تصم اذنيه ، ولكنها كانت اشبه بصوت حركة المرور فى مدينة كبيرة .. صوت مسترسل ، رتيب ، حتى لقد كان يخيل لنييل – فى لحظات وجيزة – انه صمت لا يعكره شيء .. فاذا ما سمع صرخة أطلقها قرد هاجمته

أفعى ، أو صياح طائر من طيور الليل ، اوشك قلبه أن يقفز من صدره ، ودخله احساس خفى ، بأن جميع المخلوقات المحيطة بهم تراقبهم .. كان هناك صراع وحشى مستمر فى جوف الغابة ، وراء نار المعسكر ، بينما كانوا - هم البيض الثلاثة - ينامون على فراشهم المعد من أغصان الاشجار ، لا يملكون دفاعا عن أنفسهم . كانوا وحيدين أمام أهوال الطبيعة . وكان مونرو بجواره ، وأنفاسه تتردد بهدوء خلال نومه العميق .

وهمست داريا : « أمستيقظ أنت يا نييل ؟ » . فأجاب :

- أجل ! ماذا بك ؟ - انى خائفة

- ليس هناك ما يخيف

- الصمت رهيب .. ليتنى لم ارافقكم !

وأشعلت سيجارة .. وما لبث النعاس أن استولى على نييل ، ولكنه سرعان ما استيقظ على صوت نقر طير « نقار الخشب » وضحكته الرقيقة ، وهو يطير من شجرة الى اخرى ، وكأنه يسخر منهم !

وبعد أن تناولوا فطورا سريعا - فى الصباح التالى - استأنفت الحملة سيرها . وكانت القردة تقفز بين الاغصان وتتجمع فى ندى الفجر المتساقط من أوراق الشجر ، وصرخاتها الغريبة أشبه بنداء الطير .. وبدد الضوء مخاوف « داريا » ، فاذا بها متيقظة الحواس ، مرحة ، بالرغم من أنها قضت ليلة لم تر فيها النوم . ومضى القوم يتسلقون الجبل حتى وصلوا بعد الظهر الى مكان مناسب لاقامة معسكر ، وهنا قرر مونرو أن يقيم بيتا . وبدأ الرجال العمل ، فقطعوا بسكاكينهم الطويلة جريد النخيل وأغصان الشجيرات ، وسرعان ما اقاموا كوخا من غرفتين ، يرتفع عن الارض فوق أعمدة من الخشب .. وكان نظيفا ، جديدا ، ناضر الخضرة ، زكى العبير .

ولم يكن مونرو وزوجته يشعران بالغربة فى أى مكان : هو

بفضل قدم تعوده ، وهي لانها ظلت سنوات تجوب العالم ، ولانها أوتيت موهبة القطط في اراحة نفسها اينما حلت . فان هو الا يوم واحد ، حتى كانوا قد دبروا كل شيء ، واستقروا ، واصبح لهم برنامج يومي لا يتغير . ففي الصباح الباكر ، كان نبيل ومونرو يخرجان — كل على حدة — لجمع العينات . اما فترة بعد الظهر ، فكانت تقضي في تثبيت الحشرات في صناديق ، والفراشات بين صفحات من الورق ، وتحنيط الطيور . حتى اذا حل الظلام ، راحا يتصيدان اليرقات . وكانت ((داريا)) تشغل بشؤون البيت والخدم والحياكة والقراءة ، وتدخن ما لا حصر له من السجائر . ومرت الايام بهيجة ، رتيبة ، ولكنها حافلة بالاحداث . وكان نبيل مفتونا : ارتاد الجبل من جميع نواحيه . وعثر في أحد الايام على أنواع جديدة من الحشرات العصوية ، فأطلق عليها مونرو اسم ((كويكيوبينا ماك آدم)) .. وهذه هي الشهرة بعينها ! .. وشعر نبيل — وكان عندئذ في الثانية والعشرين من العمر — بأنه لم يعش سدى . ولكن حدث — في يوم آخر — ان كادت أفعى أن تقتله ، ولكنه نجا بأعجوبة .. لم يكن قد رآها نظرا لخضرة لونها ، ولم ينقذه من عدوانها سوى احد الصيادين ((الدياك)) ، وكان يرافقه . فتعاون معه على قتلها ، ونقلاها الى المعسكر . وقد ارتجفت ((داريا)) عندما شاهدتها ، فقد كانت تعاني من ذعر — يكاد يكون جنونيا — من وحوش الغابة . ولم تكن تبتعد عن المعسكر اكثر من بضع ياردات ، خوفا من أن تضل الطريق . وقد سألت نبيل — ذات ليلة — عندما كانوا جالسين يتناولون العشاء : ((هل اخبرك انجوس يوما كيف ضل الطريق ؟)) . فابتسم انجوس وقال : ((انها لم تكن تجربة سارة !)) . واذ ذاك قالت داريا : ((خبرة منها يا انجوس !))

* * *

وتردد انجوس برهة ، فقد كانت تجربة يكره ان يتذكرها. ولكنه قال أخيرا : « كان ذلك منذ بضع سنوات ، وكنت قد خرجت ومعى شبكة صيد الفراشات . وأسعدنى الحظ فى ذلك اليوم ، اذ حصلت على عينت نادرة ، كنت ابحث عنها منذ زمن طويل . وبعد فترة من الوقت احسست بأننى جوعان ؛ فعدت ادراجى . وسرت قليلا ، وهنا طرأ على بالى أننى قد سرت مسافة أبعد من المنطقة التى كنت اعرفها . **وشاهدت فجأة علبة ثقاب فارغة ، ففزعت اذ أدركت أنها عين العلبة أننى ألقيتها عندما بدأت فى العودة . وهذا معناه أنى كنت أسير فى دائرة ، فعدت الى النقطة أنى كنت فيها منذ ساعة ! ..** ولم يسعدنى هذا بطبيعة الحال ، ولكنى فحصت المكان حولى ، ثم بدأت السير من جديد . وكان الجو خانقا ، وقد نضح العرق جسمى .. وظننت أننى اهتديت الى اتجاه المعسكر ، فأخذت أبحث عن الآثار التى طبعتها قدماى فى مجيئى . وخيل الى انى عثرت على علامة او اثنتين ، فانتعش الامل فى نفسى ، وواصلت السير .. وشعرت بظمأ شديد .. ومضيت فى سبيلى مهتديا ببعض النباتات والمعالم الاخرى . **غير أنى ادركت فجأة أننى ضللت الطريق ، اذ لم يكن من المعقول أن أكون قد سرت فى الطريق الصحيح هذه الفترة من الزمن دون أن أصل الى المعسكر ! ..** وأعترف أننى جزعت . غير انه كان من الواجب ان اتمالك نفسى . فجلست ، واخذت افكر فى الموقف .. وكنت اتعذب من العطش ، وقد انقضى الظهر منذ وقت طويل ، ولم يبق على حلول الظلام غير ثلاث ساعات أو أربع . ولم اعجب بفكرة قضاء الليل فى الغابة . وكان الشىء الوحيد الذى هدانى اليه التفكير ، هو محاولة العثور على جدول . فاذا تتبعت مجراه أوصلنى الى جدول أكبر ، ثم الى النهر . ولكن هذا كان يقتضى — بطبيعة الحال — يومين أو ثلاثة أيام ، فلعنت نفسى

لغفلتى ! .. غير انه لم يكن امامى سبيل آخر ، فعاودت السير، حتى اذا قدر لى ان أصادف جدولا، استطعت ان أشرب وأروى عطشى على اية حال . ولكننى لم أعثر على قطرة ماء فى اية ناحية ، فبدأت أشعر بالخوف . ورأيت أننى سأظل فى تجوالى هذا الى ان اسقط اعياء .. وكنت أعرف أن فى الغابة كثيرا من الحيوانات الكاسرة، وانني هالك لا محالة اذا صادفت خرتيتا . وكان أدعى الامور الى جنونى ، انني كنت أعرف انني لم أكن ابعد عن المعسكر بأكثر من عشرة أميال ، فأرغمت نفسى على ان أظل متمالكا قواى العقلية .. وكان النهار قد بدأ يولى، وأخذ الظلام ينتشر فعلا فى أعماق الغابة .. وشعرت بالاسف لانى لم أكن قد حملت معى بندقية فكنت أطلقتها ليسمعها من كانوا فى المعسكر فيعرفوا انى ضللت الطريق ويبحثوا عنى .. وكانت النباتات كثيفة حتى انه لم يكن فى استطاعتى ان ارى الاشياء ، على بعد يزيد عن ست أقدام .. وشعرت - ولست أعرف أكان ذلك بتأثير الاعصاب المرهفة ، أم لا - بان هناك حيوانا يتسلل بجانبى ، فوقفت ، ووقف هو الآخر .. ومشيت فمشى هو ! .. ومع أننى لم أستطع أن ارى شيئا ، أو ألمح اية حركة بين النباتات - بل ولم أسمع صوت تكسر اى غصن ، أو احتكاك جسم بأوراق الشجر - الا انني كنت أعرف الى أى مدى تستطيع هذه المخلوقات أن تسير دون أن تحدث اى صوت .. وكنت متأكدا من ان شيئا ما يتعقبنى ، فأخذ قلبى يدق بعنف حتى ظننت أنه يكاد ينفجر ، وشعرت بخوف شديد ، ولم أستطع أن أمنع نفسى من العدو الا باستخدام كل ما لدى من قدرة على ضبط النفس . فقد كنت أعرف أننى اقضى على نفسى بالهلاك اذا عدوت ، اذ لم يكن ثمة معدى من أن أتعثر فى جذع شجرة فاسقط على الارض ، وعندئذ ينقض الحيوان على .. ولو أننى عمدت الى الجرى ، لما كان ثمة من

يعلم غير الله الى أين أذهب ! .. وشــعرت بان على ان أتمالك قواى .. وأحسست بأننى أكاد أبكى . هذا فضلا عن ذلك العطش غير المحتمل ، الذى كنت أشعر به .. أبدا لم يتملكنى الخوف كما تملكنى اذ ذاك !.. وصدقنى اذا قلت أننى لو كنت أحمل مسدسا ، لاطلقته على رأسى . فقد كان الموقف رهيبا ، فلم أكن أصبو الى أكثر من انهائه . وكنت تعبا بحيث لم أعد أقوى حتى على الترنح ! .. ولو كان لى عدو أصابنى باساءة قاتلة ، لما تمنيت له العذاب الذى عانيته اذ ذاك ! .. وفجاة ، سمعت صوت طلقتين ، فسكن قلبى ! .. اذن فهم يبحثون عنى ؟ ! .. وهنا فقدت صوابى ، فرحت أعدو فى اتجاه الصوت وأنا أصرخ بأعلى صوتى .. وسقطت على الارض، ولكنى نهضت واقفا ، وواصلت العدو ، وظللت اصرخ حتى خيل الى ان رئتى ستنفجران .. وسمعت صوت طلق اخر ، أقرب من الطلقين السابقين ، فعاودت الصراخ .. واذا بى أسمع صراخا يجيبنى، كما ســمعت جلبة تدافع بعض الرجال خــلال النبــاتات .. وسرعان ما رأيت نفسى محاطا بصيادين من « الدياك » ، أخذوا يشدون على يدى ويقبلونهما .. وكانوا يضحكون ويبكون فى وقت واحد ، فكدت أبكى أنا أيضا .. وسقطت فاقد الوعى ، ولكنهم أعطونى بعض الشراب . ولم نكن نبعد بأكثر من ثلاثة أميال عن المعسكر .. وكان الظلام حالكا عندما عدنا اليه ! .. لعمري ، لقد كانت تجربة جعلتنى أقرب ما أكون الى الهلاك ! »

وسرت فى جسد «داريا» رعشة قوية ، بينما اردف زوجها: « صدقانى اذا قلت أننى لا أود ان أضل طريقى فى الغابة مرة أخرى ! » . فسأله نيل: « وماذا كان يحدث لو انهم لم يعثروا عليك ؟ »

ــ أستطيع أن أخبرك بهذا : كنت أجن ! .. واذا لم تلدغنى أفعى ، أو يهاجمنى خرتيت ، كنت أمضى متخبطا الى أن أسقط

أعياء .. أو أموت جوعاً أو ظمأ .. ولا تلبث الوحوش أن تنهش جسمى ، وينظف النمل عظامى من البقايا التى تخلفها الوحوش !

ورن عليهم ــ بعد هذا الحديث ــ صمت ممض !

* * *

وحدث بعد ان قضوا قرابة الشهر على جبل (هيتام) ، ان أصيب « نبيل » بالحمى ، برغم « الكينين » الذى حمله مونرو على ان يتعاطاه بانتظام . ولم تكن الاصابة شديدة ، ولكنه حنق على نفسه لاضطراره الى ملازمة الفراش .. وتولت داريا تمريضه ، فخجل من نفسه لانه أتعبها . ولكنها لم تكن تصغى الى اعتراضاته .. وكانت ــ فى الواقع ــ ذات كفاءة بالغة !.. وزاد من ضيق نبيل أن اضطر الى ان يسمح لهابأن تؤدى له أشياء كان بوسع الخدم الصينيين أن يؤدوها عنها ، ولكنها ظلت ترعاه رعاية تامة . وعندما بلغت الحمى أقصى عنفوانها ، راحت تغسل جسمه بالماء البارد بقطعة من الاسفنج ، فكان يشعر لذلك براحة لا سبيل الى وصفها ، ولكنه كان يشعر بحرج شديد كذلك . بيد انها أصرت على أن تغسل له جسمه فى الصباح مرة ، وفى المساء اخرى . وكانت تقول له : « اننى لم أمكث فى المستشفى البريطانى فى (يوكوهاما) ستة اشهر ، دون أن أتعلم ابسط مقتضيات التمريض .. على الاقل ! »

وكانت تقبله فى فمه فى كل مرة ، بعد أن تنتهى من غسل جسمه . وكانت هذه مودة وتلطفا منها استعذبهما ، ولكنه لم يضف عليهما أهمية تذكر . بل أنه تمادى الى أكثر من ذلك ، فعلق على الامر بدون حياء ، وهو شيء نادر منه . فقد سألها يوما : « هل اعتدت دائما أن تقبلى مرضاك ، فى المستشفى ؟ » . فابتسمت وقالت : « أو لست تحب أن أقبلك ؟ » . والجاب : « لايضيرنى هذا » . فقالت بتهكم : « لعله يعجل بشفائك ! »

وحلم بها فى احدى الليالى ، فاستيقظ فجأة والعرق يكسو جسمه . وشعر بأن درجة حرارته هبطت ، وان حاله قد تحسنت . ولكنه لم يهتم بذلك ، لان ما رآه فى المنام ملأه بالخجل .. واستولى عليه الفزع ، لان مجرد توارد هذه الافكار على راسه ـ ولو فى النـوم ـ أثار أسـفـاه ، اذ احس بانه وحش فاسق ! .. وكانت تباشير النهار قد بدأت تنبثق . وسمع « مونرو » يستيقظ فى الغرفة المجاورة ـ التى كان يشغلها وزوجته ـ وكانت داريا قد نامت فى ساعة متأخرة ، فحرص مونرو على أن لايزعجها .. وعندما مر بغرفة نبيل ، هتف به بصوت خافت : « هالو ! .. امستيقظ انت ؟ »

ـ أجل نقد عاودتنى النوبة ، ولكنى تحسنت الآن

ـ حسن ، يحسن بك أن تبقى فى الفراش اليوم ، وستصبح غدا فى أكمل صحة

ـ أرجو أن ترسل الى « آه تان » بعد ان تتناول فطورك

* * *

وسمع مونرو عندما غادر الدار .. ثم جاء الخادم الصينى ، فطلب نبيل منـــه ما كان يبغى . وان هى الا ســاعة حتى استيقظت داريا ، فجاءت اليه ، وألقت بتحية الصباح . ولكنه لم يستطع التطلع اليها .. وقالت له : « سأتناول فطورى ، ثم آتى لاغسل لك جسمك » . ولكنه أجابها : « لقد اغتسلت ..

استحنت بآه تان على ذلك » . فهتفت متسائلة : « ولماذا ؟ » .
وكان جوابه : « انما اردت أن اعفيك من هذه المشقة ! »
ودنت من الفراش ، وانحنت لتقبله ، ولكنه حول رأسه بعيدا عنها ، وقال : « أرجو ألا تفعلى ! » . فتساءلت فى عجب: « ولماذا ؟ » . فتمتم : « انه عمل سخيف ! » .. وتفرست فيه برهة وهى مأخوذة ، ثم هزت كتفيها وتركته . ولكنها لم تتغيب كثيرا ، بل عادت اليه لترى ما اذا كان بحاجة الى شىء . واذا به يتظاهر بالنوم . فربتت على خده برقة ، ولكنه هتف بها:
« بالله لا تفعلى هذا ! »
ـ ظننتك نائما ! .. ماذا بك اليوم ؟
ـ لا شىء !
ـ لماذا تعاملنى بجفاء ؟ .. هل فعلت ما ساءك ؟
وأجاب باقتضاب : « لا » . ولكنها الحت قائلة : « نبئنى بما هناك ! » ..
وجلست على الفراش ، واخذت يده ، فحول وجهه نحو الحائط وقد بلغ منه الخجل حدا جعله لا يستطيع كلاما . ولكنه تمالك نفسه وقال : « يبدو أنك نسيت اننى رجل ، فاذا بك تعاملينني كصبى فى الثانية عشرة ! »
وغمغمت : « آه ! » ، ثم سكتت . واخذ وجهه يشتد احمرارا ، وقد غضب على نفسه واغتاظ منها .. كان خليقا بداريا أن تكون أكثر لباقة ! .. ولم تلبث قبضتاه ان شدتا على الغطاء بعنف ، وقال : « اننى أعرف أن ليس لمسلكك اى معنى لديك ، وانه ينبغى أن يكون كذلك لدى .. والحق اننى لا ارى له تأويلا ، عندما اكون مستيقظا ، ولكن المرء لا يستطيع شيئا مع احلامه ، وان كانت الاحلام دليلا على مايدور فى العقل الباطن ! »
ـ هل حلمت بى ؟ .. وماذا لو كان هذا قد حدث فعلا ؟ ..

لست ارى فيه أى ضير !

وحول وجهه ، ونظر أليها .. كانت عيناها تتألقان بريقا ، بينما كانت عيناه هو مفعمتين بالانقباض وتبكيت الضمير .. وقال لها : « انك لا تعرفين الرجال ! » . **فانفجرت ضاحكة ، واتحنت فوقه ، وطوقت عنقه بذراعيها ، وهى تقول : « أخبرنى أيها الحبيب عن حلمك ! »** .. وفوجىء بحركتها هذه ، فكاد يجن ، ودفعها جانبا بعنف ، وقال : « ماذاتفعلين..أمجنونة أنت ؟ ! » . وقفز من فراشه فقالت :

— ألا تعرف اننى أحبك حب الجنون ؟

فهتف مبهوتا : « عم تتحدثين ؟ » . وجلس على جانب الفراش ، والارتباك ظاهر عليه بوضوح . فضحكت وقالت : « **وماذا تظننى جئت أفعل فى هذا المكان المرعب ؟ .. انما جئت لاكون معك يا حبيبى !** .. الا تعلم اننى أموت رعبا من الغابة ؟ .. اننى خائفة من ان تكون هناك افاعى او عقارب او اى شىء آخر .. حتى فى هذا البيت ، ولكنى .. أعبدك ! » . فقال بحدة : « ليس لك أن تتحدثى الى هكذا ! » . فابتسمت قائلة : « **لا تكن متزمتا !** » .. فقال متعجلا : « لنخرج من هنا ! »

وخرج الى الشرفة فتبعته . والقى بنفسه على مقعد ، فجثت الى جانبه وحاولت ان تمسك يديه ، ولكنه سحبهما قائلا : « أرى أنك لا بد مجنونة ، واضرع الى الله الا تكونى قد عنيت حقيقة ما قلت ! » . فقالت مبتسمة : « **بل اعنى كل كلمةقلتها !** » .. وضايقه انها لم تبد أى ادراك لفظاعة اعترافها ، فقال : « انسيت زوجك ؟ »

— وماذا يهم من أمره ؟ .. ان انجوس لم يعد يهمنى فى شىء !

فظللت وجهه الناعم سحابة من العبوس وقال ببطء : « أخشى ان تكونى امرأة ســوء ! » . **فضحكت باستهزاء ، وقالت : « ألاننى وقعت فى حبك ؟ .. ما كان يجب أن تكون بهذا الجمال يا حبيبى ! »**

ـ لا تضحكي برب السماء !

ـ لا أستطيع ، فأنت مضحك .. ولكنى أعبدك مع هذا ! .. اننى أحب جسدك الابيض ، وشعرك اللامع ! .. أحبك لانك جامد ، واسكتلندى ، ولا تعرف المجون ! .. أحب قوتك ، وأحب شبابك !

• • • •

وأومضت عيناها ، وتسارعت أنفاسها ، وانحنت فقبلت قدميه العاريتين ، فسحبهما بسرعة وهو يصيح محتجا ، فكاد فى حركته العنيفة أن يقلب المقعد ، وقال : « انك لمجنونة أيتها المراة ، الا تشعرين بالخجل ؟ » .. وأجابته : « لا ! »

ـ ماذا تريدين منى ؟ **ـ الحب !**

ـ اى نوع من الرجال تحسبينني ؟

فأجابت بهدوء : ((رجل .. كبقية الرجال !))

ـ وهل تظنين ، بعد كل ما فعله « انجوس مونرو » معى ، ان بوسعى أن أكون ذلك الوحش اللعين الذى يعبث مع زوجته ؟ .. اننى معجب به أكثر من اعجابى بأى شخص آخر عرفته . فهو عظيم ، وهو يقدر بعشرة من امثالى وأمثالك معا . . اننى لاوثر أن أقتل نفسى عن أن أخونه .. ولست أدرى كيف تظنين أن بوسعى أن أقدم على عمل دنىء كهذا الذى تريديننى عليه !

ـ أواه يا عزيزى ، لا تتحدث بمثل هذا الهراء ! .. بماذا يضره هذا ؟ .. ما ينبغى لك أن تأخذ المسألة بهذا الجد ، فان الحياة جد قصيرة ، ونحن أغبياء اذا لم نقتنص كل فرصة يمكن أن نستخدمها للسرور !

ـ لن تستطيعى بهذا الكلام أن تقلبى الخطأ صوابا !

ـ لست أعرف شيئا عن هذا ، وما أرى الا أن قولك موضع جـــدال !

فنظر اليها مذهولا .. كانت جاثية عنـــد قدميـــه ، وهى

متماكة نفسها . وبدا أنها كانت مستمتعة بالموقف ، غير شاعرة بما كان يشعر به من جدية !.. وما لبث أن قال : « أتعرفين أننى ضربت فتى فى النادى ، لأنه ألقى ملحوظة مهينة عنك ؟ »
– ومن هو ؟
– انه بيشوب
– يا له من كلب قذر ! .. وماذا قال ؟
– قال أنك كنت على علاقات ببعض رجال !
– لست أدرى لماذا لا يعنى الناس بشؤونهم ؟ .. ومع ذلك ، فمن ذا الذى يأبه لما يقولون ؟ .. انى أحبك ، ولم يسبق لى أن أحببت أحدا مثلك .. اننى لمجنونة فعلا بحبك !
– هدئى من تهورك ! .. اهدأى !
– اسمع ! .. عندما ينام « أنجوس » الليلة ، سآتى الى غرفتك ! .. انه ينام كصخرة ، فلا خطر يخشى منه !
– لا تفعلى !
– ولم لا ؟
فهتف : « لا ، لا ، لا ! » .. وشعر بخوف شديد .. وفجأة ، هبت « داريا » واقفة ، واندفعت نحو البيت !

* * *

وعاد مونرو عند الظهر ، فانهمك نيبل معه فى العمل خلال فترة ما بعد الظهيرة .. واشتركت « داريا » معهما كما اعتادت أن تفعل أحيانا . وكانت مرحة حتى لقد ظن مونرو أنها بدأت تستمرىء الحياة فى هذه البقعة . وقد اعترفت فعلا بهذا ، حينما قالت : « ان الحياة ليست رديئة الى هذا الحد ، وانى لاشعر اليوم بالسعادة ! » .

وكانت تغيظ نيبل بقولها ، وهى تبدو كما لو كانت لا تفطن الى انه كان صامتا وكان يحاول أن يبعد نظره عنها . وقال مونرو : « أن نيبل هادىء للغاية ، وأحسب انه لا يزال يشعر ببعض الضعف ! »
– لا .. ولكننى لا أشعر بدبيل كبير للكلام

كان فى حيرة من امره ، فقد كان يوقن من أن « داريا » قادرة على أن تفعل أى شىء . وتذكر ذلك التهور الجنونى الذى اتسمت به « ناستاسيا فيليبوفنا » ـ بطلة قصة « الغبى » ـ فشعر بأنها قادرة على أن تتصرف هى الاخرى بتلك الرعونة التعسة .. ولقد رآها ـ أكثر من مرة ـ تحتد على الخدم الصينيين ، فعرف الى أى مدى تفقد سيطرتها على اعصابها . ولم تكن المقاومة تؤدى الا الى امعانها فى الحنق ، وما لم تحصل فورا على بغيتها ، فانها كانت تذهب فى الغضب الى حد الجنون ، ولكنها ـ لحسن الحظ ـ كانت تفقد فجاة اهتمامها باشىء بعين السرعة التى تهفو بها اليه . ولو انك استطعت أن تحول انتباهها برهة ، نسيت كل شىء عن هذا الشىء . وفى مثل هذه المواقف ، كان نييل يزداد اعجابا بلباقة مونرو . وكان غالبا ما يشعر بسرور خبيث حين يشهد الدهاء الرقيق الذى يستخدمه مونرو ليهدىء من قوة غضبها النسوى . . وكان سخط نييل عليها يزداد بقدر حبه لمونرو .. لقد كان قديسا رفعها من وهاد المهانة والادقاع ، ليتخذها لنفسه زوجة . فهى تدين له بكل شىء ، اذ حماها باسمه ، فاكتسبت الاحترام .. ولعل ابسط عرفان بفضله كان كفيلا بأن يجعل من المستحيل عليها أن تكن فى نفسها أفكارا كالتى عبرت عنها فى ذلك الصباح !.. ولقد كان من العادى أن تصدر المراودات الجريئة عن الرجال ، فهذه شيمتهم !..اما اقدام النساء على ذلك فكان امرا يثير الاشمئزاز .. وهكذا شعر نييل بأن حياءه وعفته قد خدشا ، وأن العاطفة الجامحة التى رآها فى وجهها ، والايماءات غير المحتشمة ، قد اذهلت احتشامه !

وساءل نفسه : اتراها ستنفذ حقيقة وعيدها ، وتاتى الى غرفته ؟ .. ولم يخطر له انها ستجرؤ على هذا . ولكن ماان حل الليل وذهب الجميع الى اسرتهم ، حتى شعر بجزع

شديد حرمه النوم !.. واستلقى على الفراش وجعل يصغى. ولم يكن يعكر السكون غير صيحات رتيبة تصدرعن قنبرة.. وكن يسمع – خلال الجدار المبنى من سعف النخيل – صوت تنفس مونرو المنتظم . وفجأة ، فطن الى ان هناك من كان يسترق الخطى الى غرفته .. وعرف أنها ((داريا)) ! .. وكان رأيه قد استقر على ماينبغى أن يفعل . فقد صاح بصوت عال : ((أهذا أنت يا مونرو ؟))

وتوقفت داريا فجأة .. واستيقظ مونرو . وقال نبيل : ((هناك شخص فى غرفتى ، وقد ظننته اياك !)) . فقالت داريا : ((لاتنزعجا .. انا هذا الشخص ! .. لم أستطع النوم ففكرت فى تدخين سيجارة فى الشرفة)) . فقال مونرو : ((آه ، أفهذا كل شىء ؟ .. حذار أن تصابى ببرد !)) . واجتازت داريا غرفة نبيل وخرجت الى الشرفة . ورآها الشاب تشعل سيجارة ، ثم سمعها – بعد برهة – تأوى الى فراشها .

ولم يرها فى صباح اليوم التالى ، لانه خرج – قبل ان تستيقظ – ليستأنف جمع العينات . وتعمد الا يعود الا وهو واثق من أن مونرو قد عاد الى البيت . وتجنب الانفراد بها الى أن حل الظلام ، ونزل مونرو ليضع شباكا لصيد اليرقات . فلما أصبحا وحيدين ، همست داريا فى صوت غاضب : ((لماذا أيقظت أنجوس فى الليلة الماضية ؟)) .. فهز كتفيه ، وواصل

عمله دون أن يجيب . وعادت تتساءل : « هل خفت ؟ » . فأجاب : « لقد أوتيت قدرا من الحشمة ! »

ـ أوه !.. لا تكن مغرورا

ـ لخير أن أكون مغرورا ، عن أن أكون خنزيرا قذرا !

ـ انني أكرهك ! ـ اذن فدعيني وشأني

ولم تجب ، وانما صفعته ، فاحمر وجهه ، ولكنه لم يفه بكلمة واحدة ! .. وعاد مونرو ، فتعمدا أن يتظاهرا بالانهماك فى عملهما

وظلت داريا بضعة أيام لاتتحدث الى نبيل الا فى أوقات الاكل ، وفى المساء ، وقد حرصا ـ بغير اتفاق سابق ـ على اخفاء ما طرا على علاقتهما من توتر . غير أن الجهد الذى بذلته لتخرج عن صمتها لم يكن ليخفى على أى شخص آخر اكثر شكا من « انجوس » . ولم تكن تتمالك أن تحتد أحيانا على نبيل ..وكانت تمازحه ، ولكن شيئا من الوخز كان يخالط مزاحها ! .. وكانت تعرف كيف تكشف قلة درايته ، ولكنه كان حريصا على الا ترى هذا فيه . وداخله شعور بأن ما كان يبديه من انبساط كان يغيظها !

* * *

وفى أحد الايام ، عاد نبيل من جمع العينات . وكان قد حرص على الا يصل الى البيت الا فى آخر دقيقة ممكنة قبل موعد الغداء . ولكنه دهش عندما وجد أن مونرو لم يكن قد عاد بعد . فسألها : « أين المستر مونرو ؟ »

ـ انه لن يجىء ، فقد بعث برسالة قال فيها أن المكان الذى يوجد فيه ، مكان جميل وانه لن يعود قبل هبوط الليل !

وكان مونرو قد خرج فى الصباح قاصدا الى قمة الجبل ، لان الاماكن المنخفضة لم تمكنه من الحصول على نتائج طيبة

فيما كان يجرى من بحوث على الحيوانات الثديية ، فخطر له أن يبحث عن مكان أعلى ـ تتوفر فيه المياه ـ فينقل إليه المعسكر .. وتناول نييل وداريا غداءهما فى صمت ، حتى اذا فرغا منه ، دخل الشاب البيت ، فأتى بصندوق جمع العينات وبالقبعة . ولم يكن من عادته أن يخرج فى فترة ما بعد الظهر . فسألته داريا بحدة : « الى أين تذهب ؟ »

ـ سأخرج **ـ ولماذا ؟**

ـ لاننى لا اشعر بتعب ما ، وليس ثمة شىء آخر أفعله بعد الظهر .

وفجأة انفجرت باكية وقالت : « كيف يتسنى لك أن تكون قاسيا الى هذا الحد ؟ .. آه ، من القسوة ان تعاملنى هكذا ! » .
فتساءل وهو يطل عليها من علياء قامته ، وقد حمل بوجهه المليح ـ الذى نم عن شىء من الصلابة ـ امارات الحيرة : « ماذا فعلت ؟ »

ـ لقد كنت فظيع القسوة .. اننى لا استحق ان اتعذب هكذا ، مهما يكن ذنبى ! لقد فعلت كل شىء ممكن من اجلك ، فنبئنى بأى شىء كان بوسعى أن أفعله ولم أفعله عن طيب خاطر .. لشد ما أنا تعيسة !

فتململ فى وقفته .. كان فظيعا ان يسمعها تقول ذلك . ولقد كان يزدريها ويخشاها ، ولكنه مع هذا ظل يكن لها ذلك القدر من الاحترام الذى كان يشعر به على الدوام نحوها ، لا لانها سيدة فحسب ، وانما لانها زوجة أنجوس مونرو كذلك ! .. ومضت تبكى دون أن تستطيع ضبط نفسها .. ولحسن الحظ ، كان الصيادون « الدياك » قد خرجوا مع مونرو فى الصباح ، ولم يبق فى المعسكر غير الخدم الصينيين الثلاثة ، الذين ناموا ـ كعادتهم بعد الغداء ـ فى المكان المخصص لهم ، على خمسين ياردة من الدار . ومن ثم فقد كانا وحيدين !

.. وقال نبيل اخيرا : « لست ابغى أن اشقيك ، ولكن الامر كله سخيف ، ومن الغباء أن تقع سيدة مثلك فى حب فتى مثلى . ان الامر يحرجنى . أليس لديك شىء من ضبط النفس ؟ ! »

ـ آه يا الهى ! .. ضبط النفس !

ـ اعنى أنك اذا كنت تهتمين بى حقا ، لما رغبت فى ان تجعلى منى هذا المخلوق السافل . أما من قيمة لما يضعه زوجك فينا من ثقة مطلقة ؟ .. ان مجرد تركه ايانا وحيدين ـ كما نحن الآن ـ خليق بأن يجعلنا نتشبث بشرفنا . انه لا يؤذى ذبابة ، ولن استطيع أن أحترم نفسى اذا خنت هذه الثقة !

فرفعت نظرها فجأة وقالت : « ما الذى يحملك على الظن بأنه لا يرتضى ان يؤذى ذبابة ؟ .. ان كل هذه الزجاجات والصناديق مليئة بحيوانات لا أذى منها ، وقد قتلها جميعا !»

ـ لمصلحة العلم ! .. ان هذا أمر آخر !

ـ يا لك من غبى ! .. غبى !

ـ اذا كنت غبيا ، فهذا ليس ذنبى .. فلماذا تضايقيننى ؟

ـ أتظننى كنت راغبة فى أن أقع فى حبك ؟

ـ يجب أن تخجلى من نفسك !

ـ أخجل ؟ ! .. ما هذا الغباء ؟ .. يا الهى ، ماذا فعلت حتى جعلتنى أدوس قلبى من أجل حمار عنيد مثلك !

ـ انك تتكلمين عما فعلته من أجلى ، فماذا فعل مونرو من أجلك ؟

ـ ان مونرو يضجرنى حتى الموت .. لقد برمت به .. سئمته حتى الموت !

ـ اذن فأنا لست الاول ؟ !

كان منذ اعترافها الغريب ـ بحبه ـ يتعذب بالشك .. الشك فى أن ما قاله اولئك الرجال فى (كوالا سولور) لم يكن

خلوا من الحقيقة .. لقد كان يرفض أن يصدق كلمة واحدة مما قالوا ، بل أنه ظل ـ حتى الآن ـ عاجزا عن ان يحمل نفسه على التفكير بأن فى وسعها أن تكون بمثل هذا الفجور !.. كان من الفظيع حقا أن يفكر فى أن « أنجوس مونرو » كان يعيش فى جنة المغفلين ، وهو الرجل الرقيق ، الكبير الثقة بالناس ! .. لا ، ما كان من المحتمل أن تكون على مثل هذا القدر من السوء ، ولعلها قد أساءت فهمه !

وابتسمت خلال دموعها ، وقالت : « طبعا ، لست الاول .. كيف يمكن أن تكون على هذا القدر من الغباء ؟ .. أواه يا عزيزى ! لا تكن متزمتا الى هذا الحد ! .. اننى أحبك ! »

اذن فالامر حقيقى ! .. لقد حاول أن يقنع نفسه بأن شعورها نحوه كان لونا من الشذوذ .. جنونا قد يستطيعان أن يعملا معا على مغالبته ، فاذا بها .. مجرد عابثة مستهترة ! .. فقال لها : « أو لا تخشين أن يعرف مونرو الحقيقة ؟ » .. ولم تعد تبكى، فقد كانت تهوى التحدث عن نفسها، فخامرها شعور بأنها قد تستطيع أن تغرى نيبل بالاهتمام من جديد بها . فقالت : « يخيل الى أحيانا انه يعرف .. ان لم يكن بعقله فبقلبه ، اذ أنه أوتى ما للمرأة من غريزة ، وما للمرأة من حس مرهف . بل اننى كنت أوقن أحيانا من أنه يشك ، وقد أحسست فى عذابه بلون عجيب من التسامى الروحى ! .. **وكم خيل الى أنه فى ألمه يجد لذة وقوة لا حد لها ! .. فهناك ـ كما تعلم ـ نفوس تشعر بفرح طاغ فى الاسى والعذاب ! »**

ولم يستطع نيبل صبرا على هذه المغالطات ، وقال : « يا للفظاعة ! .. ان عذرك الوحيد هو ان تكونى مجنونة ! » .. وكانت قد أصبحت أكثر ثقة بنفسها ، فرمته بنظرة جريئة ، وقالت : « الا ترانى جذابة ؟ .. كم من الرجال رأونى كذلك !.. ولا بد انك عرفت فى اسكتلندا عشرات من النساء ،

ولكنهن لم يكن بديعات الحسن مثلى ! » .. وراحت تنظر فى خيلاء الى جسمها الجميل المغرى . فقال نبيل : « اننى، لم أعرف أية امرأة اطلاقا ! » . فسألته منكرة : « ولم لا ؟ »

* * *

وبلغت منها الدهشة مبلغا جعلها تقفز واقفة على قدميها . لكنه هز كتفيه ، ولم يجد من نفسه قدرة على أن يخبرها بمدى اشمئزازه من مثل هذه الفكرة ، وبمدى ما كان يراه من دناءة الحب العرضى العابر ، الذى كان زملاؤه فى جامعة (ادنبره) يقبلون عليه . **فقد كان يشعر بغبطة روحية لنقائه وطهره .. كان يعتبر الحب مقدسا ، وكانت العملية الجنسية تثير اشمئزازه واستنكاره ، ولا يجد لها مبررا سوى انجاب الاطفال وقداسة الزواج .** ولكن «داريا» ظلت تتفرس فيه وهى مسمرة فى وقفتها ، وقد تهدجت انفاسها . وفجأة ، صاحت - وهى تبكى - صيحة متهدجة ، مفعمة بالتهلل ومشوبة

برغبة جامحة . والقت بنفسها على ركبتيها راكعة - على الارض - وهى تهتف : « أليوشا ! .. اليوشا ! » . واخذت تبكى وتضحك فى آن واحد .. وانحنت حتى اصبحت مكورة عند قدميه ، وقد انبعثت من حلقها اصوات لا تكاد تشبه الاصوات الآدمية . وسرت رعدة شديدة فى اوصالها ، هزت جسمها هزا ، وكأنما مسها تيار كهربائى شديد .. ولم يدر نبيل أهذه نوبة من الهستيريا ، أو هى نوبة صرع ، فصاح

بها : « كفى عن هذا ! .. كفى ! »

واحتواها بين ذراعيه القويتين ، وأجلسها على المقعد. حتى اذا حاول أن يتركها ، لم تمكنه من ذلك ، بل ألفت ذراعيها حول عنقه فطوقته ، وكست وجهه بالقبلات ! .. وأخذ يناضل لينأى عنها ، واشاح بوجهه ، ووضع يده بين وجهها ووجهه ليقى نفسه ، ولكنها عضت يده فجأة ، وغرست أسنانها فيها ! .. وشعر بألم شديد . وبدون وعى أو تفكير ، انتزع يده وانهال عليها بضربة عنيفة ، وصاح : « يا لك من شيطانة ! »

وأرغمتها حركته العنيفة على التخلى عنه . وأخذ يتأمل يده .. كانت قد عضته فى الجانب المكسو باللحم من راحته ، فأخذ الدم ينزف منها . ولمعت عيناها ، اذ بدأت تشعر بيقظة وحيوية ! .. وعاد يقول : « حسبى هذا منك ... اننى خارج ! » . فقفزت واقفة ، وقالت : « سآتى معك ! » ، وارتدى القبعة ، وتناول ادوات الصيد ، واستدار دون أن ينبس بكلمة ، وقفز الدرجات الثلاث المؤدية الى الخارج . ولكنها تبعته فقال : « اننى ذاهب الى الادغال » . فهتفت : « لست أبالى ! » . **فقد نسيت ـ وسط الرغبة الجامحة التى استولت عليها ـ خوفها الشديد من الغابة ، ولم تعد تبالى بالافاعى ولا بالوحوش الكاسرة ، ولم تعد تعبأ بالاغصان التى تؤذى وجهها ولا بالنباتات المتسلقة التى تتعلق بقدميها !**

وكان نييل قد قضى شهرا يرتاد هذا الجزء من الغابة، فعرف كل شبر فيه . وقال لنفسه انه سيلقنها درسا لن تنساه ، فشق طريقه ـ وسط النباتات ـ بخطوات واسعة .. فتبعته وهى تتعثر ، ولكن عزيمتها كانت قوية . واندفع وقد أعماه الغضب ، فاندفعت وراءه . وراحت تخاطبه دون أن يصغى الى قولها : توسلت اليه ان يشفق عليها ، وأخذت تندب مصيرها .. وتذللت ، وبكت ، وعصرت يديه عصرا ..

وحاولت أن تتملقه ، والكلمات تتدفق من شفتيها كجدول لا ينقطع . كانت كالمجنونة ! .» وأخيرا ، وصلا الى بقعة منبسطة ، فوقف فجاة ، واستدار نحوها ، وقال : « هذا مستحيل . لقد تعبت ، وعندما يعود « انجوس » سأبلغه أننى سأرحل ، وسوف أعود الى (كوالا سواور) صباح غد ، ومنها أرحل الى بلدى ! »

– لن يدعك تذهب ، اذ انه يحتاج اليك ، وهو يعتقد أن لا غنى له عنك !

– لست أحفل بهذا ، وسألفق له حجة !

وتساءلت : « وما هى ؟ » . فأساء فهم مقصدها ، وقال : « آه ، لا حاجة بك الى أن تخافى ، فلن أقول له الحقيقة .. بوسعك أن تحطمى قلبه اذا شئت . أما أنا ، فلن اقدم على هذا ! »

– أنك تعبده ، أليس كذلك ؟ .. هذا الشخص الفاتر البليد الحس !

– انه بمائة من أمثالك !

– سيكون من البديع أن أقول له أنك رحلت لاننى لم أذعن لك اذ راودتنى عن نفسى !

وجفل .. وتفرس فيها ليعرف ما اذا كانت جادة فى هذا . وقال : « لاتكونى غبية ، فما أراك تعتقدين انه سيصدق ذلك ، لانه يعرف أن هذا لا يمكن أن يصدر عنى البتة ! » .

– لا تغال فى ثقتك !

وكانت تتحدث بغير مبالاة ، وبغير ما غرض سوى مواصلة المحاجة . ولكنها رأته خائفا ، فدفعتها غريزة القسوة الى أن تفيد من هذا الموقف . وقالت : « أتنتظر رحمة منى ؟ ! .. لقد أذللتنى الى درجة لا تطاق ، وعاملتنى كما لو أننى كنت مخلوقا قذرا ، وأقسم لو انك فكرت فى الرحيل لذهبت رأسا

الى أنجوس وقلت له أنك انتهزت فرصـــة غيابه وحاولت اغتصابى ! »

ــ أستطيع أن انكر هذا الاتهام ، وليس لديك شهود ، ولن يكون هناك سوى أقوالك واقوالى !

ــ أجل ، ولكن كلمتى ستكون هى الفيصل ، ويمكننى أن أبرهن على ما أقول !

ــ ماذا تعنين ؟

ــ ان الكدمات تظهر بجسمى بسرعة ، وبوسعى أن أريه الكدمة التى نتجت من ضربك اياى .. فضلا عن الجرح الذى فى يدك ! .. فكيف تعلل علامات الاسنان فيها ؟

فنظر اليها مشدوها وقد شحب وجهه ، وساءل نفسه : كيف يستطيع تبرير وجود الكدمة والجرح حقا ؟ ! .. او كان الدافع لهذا هو الدفاع عن النفس ، لامكنه أن يقول الحق ، ولكن هل يصدقه أنجوس ؟ .. انه يعبد زوجته « داريا » ، ومن ثم فهو سيرجح قولها على قوله .. فأى جحود منكر فى مقابل كل ما أبداه مونرو من كرم ، وأى غدر فى مقابل مثل الثقة التى أودعه مونرو اياها ! .. لسوف يحسبه عربيدا قذرا ، وسيكون على حق ، من وجهة نظره ! .. وحز فى قلبه التفكير فى أن مونرو ــ الذى كان نييل على استعداد لان يجود بحياته من أجله ــ قد يسىء الظن به . واحس بتعاسة جعلت الدموع تتبادر الى عينيه ، رغم ما فى ذلك من نبو عن الرجولة .. **ورأت داريا انكساره فطربت ، وأيقنت أنها بدأت ترد اليه ما كلفها من تعاســة وشقاء .. وأصبح فى قبضتها وتحت سيطرتها ، فاستعذبت انتصارها ! ..** وفى غمرة المها ضحكت فى نفسها لفرط غبائه ، ولم تعــرف فى تلك اللحظة اكانت تحبه أم كانت تكرهه ! .. وسألته : « **والآن .. هل تكون طيبا ؟ ! »**

وشهق .. وبدافع من رغبة غريزية طارئة للهرب من هذه المرأة الفظيعة ، دار على عقبيه ، وجرى بأقصى ماوسعه من سرعة . واندفع موغلا فى الغابة كحيوان جريح ، لا يستبين وجهته ولا طريقه ، حتى تقطعت أنفاسه . فوقف وهو يلهث ، وأخرج منديله ، فمسح العرق الذى كان يتساقط على عينيه فيعميهما . وخارت قواه ، فجلس ليستريح ، وهو يقول لنفسه : «يجب أن أحترس،والا ضللت الطريق». وما كان هذا أقل المتاعب التى قد يصادفها ، ولكنه تذكر أن لديه بوصلة صغيرة ، وانه يعرف الوجهة التى يجب أن يتجه اليها . وبدأ السير .. وأخذ يرقب طريقه ، ويسائل نفسه — فى الوقت ذاته — عما ينبغى أن يفعل .. كان موقنا من أن ((داريا)) ستنفذ وعيدها ! .. وكان من المقرر أن يبقوا ثلاثة أسابيع أخرى فى هذا المكان اللعين ، فما كان ليجرؤ على الرحيل ، وما كان ليجرؤ على البقاء ! .. كان عقله فى دوامة ، فرأى أن المسلك الوحيد ، هو أن يعود الى المعسكر ، وأن يفكر فى الامر بهدوء !

وبعد ربع ساعة ، وصل الى بقعة عرفها ، فأن هى الا ساعة حتى كان قد وصل الى المعسكر ، فارتمى على مقعد .. كان كل تفكيره منصرفا الى ((أنجوس)) ، وكان قلبه يدمى عطفا عليه ، وقد وضحت له الآن جميع الامور التى كانت غامضة ، وتكشفت فى ومضة من ومضات الغريزة المريرة ، فعرف لماذا كانت نساء (كوالا سولور) يقفن موقفا عدائيا من ((داريا)) ، ولماذا كن ينظرن الى ((انجوس)) نظرات غريبة ، ويعاملنه بعطف مشوب بسخرية .. لقد كان نييل يعتقد ان هذا راجع الى أن ((انجوس)) كان رجل علم ، فكان يبدو — فى أنظارهن — أحمق ، سخيفا بعض الشىء . ولكنه ادرك الآن أن ذلك انما كان راجعا الى اشفاقهن عليه ، برغم ايمانهن

بغبائه ! .. فقد جعلت منه ((داريا)) أضحوكة الجميع . واذا كان هناك رجل لا يستحق سوء المعاملة من زوجته ، فقد كان هذا الرجل هو ((مونرو)) ! ..

وشهق نيبل فجأة وارتجف ، فقد طرأ على فكره خاطر فجائى ' هو أن ((داريا)) لم تكن تعرف الطريق خلال الغابة ، وقد نسى ــ فى غمرة كربه الشديد ــ الجهة التى ذهبا اليها، فماذا يحدث لها إذا ضلت الطريق ؟ .. لسوف تصاب بالرعب ! .. وتذكر القصة الرهيبة التى رواها له «أنجوس» عن ضلاله فى الغابة . وكان أول ايحاء غريزى شعر به ، هو ان يعود ليبحث عنها ، فاستوى واقفا على قدميه . **واذا بسخط عنيف يتملكه ، فقال لنفسه : ((لا ، لادعها ترجع بنفسها ، فقد ذهبت بمحض ارادتها ، ولتبحث الآن بنفسها عن طريق عودتها .. انها امرأة فظيعة ، تستحق كل ما قد تصادفه !))** .. ورفع نيبل راسه فى تحد ، وارتسمت على جبينه الناعم علامات النقمة ، وشد قبضتيه يستجدى الشجاعة .. وأخيرا استقر على رأى : سيكون من الخير لانجوس الا تعود !

وجلس ثانية . واخذ يحاول سلخ جلد حيوان صغير ، ولكن الجلد كان رقيقا للغاية ، وكانت يدا نيبل ترتجفان برغم محاولته أن يركز اهتمامه فى هذا العمل .. وكانت افكاره تضطرب بعنف ــ وكأنها يرقات فى مصيدة ــ فلم يستطع السيطرة عليها ! .. **ترى ماالذى كان يحدث الآن فى الغابة ؟ .. ماذا فعلت عندما تركها ؟**

واخذ ــ بين الفترة والاخرى ــ يرفع راسه متطلعا الى الفضاء بالرغم منه ، وكأنه كان يتوقع أن تظهر ((داريا)) فى الساحة الخارجية ، وتسير بهدوء فتدخل المنزل .. وشعر بأنه لا يستحق اى لوم ، فهذه كانت يد الله ! .. وارتجف اذ بدات السحب تتجمع فى السماء ، وحل الليل بسرعة . وما

لبث مونرو أن وصل بعد حلول الظلام بقليل ، فقال اذ دخل المنزل : « لقد جئت فى الوقت المناسب ، فلسوف تهب عاصفة هوجاء ! »

وكان فى خير حالاته ، فقد عثر على سهل فيه مياه كثيرة ، ويطل على منظر رائع للبحر . كما عثر على فراشتين أو ثلاث فراشات نادرة الوجود ، وعلى سنجاب طائر . وبدا يعد الخطط لنقل المعسكر الى ذلك المكان الذى تبين له أنه حافل بالاحياء الحيوانية .

وأخيرا دلف مونرو الى داخل البيت لتغيير حذائه الثقيل ، ولكنه لم يلبث أن عاد بسرعة وسأل : « أين داريا ؟ » .. وحاول نييل أن يكون طبيعيا ، فتساءل هو الآخر « أليست فى غرفتها ؟ »

ــ لا .. ربما نزلت الى مأوى الخدم .

وهبط درجات السلم ، ونادى «داريا» ، ولكنها لم تجب . فنادى الخدم ، وسرعان ما أقبل خادم صينى ، فقال انه لم يكن يعلم شيئا عنها ، وانه لم يرها بعد الغداء .. فعاد مونرو وهو يتساءل فى دهشة : « أين يحتمل أن تكون ؟ » . وسار الى الساحة الخلفية للبيت ، وأخذ يناديها ، ثم قال لنييل : **« ليس من المعقول أن تكون قد خرجت ، فليس هناك مكان تذهب اليه . متى رأيتها آخر مرة يا نييل ؟ »**

ــ اننى خرجت بعد الغداء لاجمع عينات ، لان الجمع لم يكن ــ فى الصباح ــ على مايرام ، ولهذا رأيت ان أجرب حظى بعد الظهر

وهتف مونرو فى قلق : « أمر غريب ! » . واخذا يبحثان عنها حول المعسكر .. وظن مونرو انها ربما وجدت لنفسها مكانا مريحا ، فنامت فيه . واشترك الجميع فى البحث عنها .. وبدأ مونرو يشعر بالخوف والقلق ، فقال : « من المستحيل أن تكون قد خرجت للرياضة فضلت الطريق فى الغابة ، فما

سبق لها ان سارت الى أكثر من مائة ياردة من المنزل ، او هذا ما أعرفه عنها أنا — على الاقل — مذ جئنا الى هنا ! »

وشاهد نبيل الرعب المتجسم فى عينى ((مونرو)) فنكس رأسه . وعاد مونرو يقول : « يحسن بنا أن ننادى الجميع ونشرع فى البحث ، فمن المؤكد انها لم تذهب بعيدا ، كما انها تعرف أن خير ما يفعله الانسان اذا ضل فى الغابة ، أن يبقى فى مكانه وينتظر حتى يأتى اليه من يبحثون عنه .. يا لها من مسكينة ! .. لسوف تجن من الخوف ! »

ونادى الصيادين ، وطلب من الخدم الصينيين أن يحضروا المصابيح ! . وأطلق مسدسه كاشارة لداريا . ثم انقسم الجميع الى فريقين ، أحدهما بقيادة مونرو ، والآخر بقيادة نبيل . وسلك الفريقان الطريقين الوعرين اللذين شقوهما فى غدوهم ورواحهم خلال الشهر الذى اقاموه فى المعسكر . واتفقوا جميعا على أن يطلق الفريق الذى يعثر على ((داريا)) ثلاث رصاصات سريعة متتابعة .

وانطلق نبيل واجما ، مكفهر الوجه ، ولكن ضميره كان مستريحا . وخيل اليه انه يحمل فى يديه مرسوم العدالة الالهيه ، فقد كان يعلم أنهم لن يعثروا على « داريا » : وتلاقى الفريقان .. ولم تكن ثمة حاجة الى النظر فى وجه مونرو ، فقد كان شارد الفكر . وشعر نبيل بنفسه كالجراح الذى يرغم على اجراء جراحة خطرة بغير مساعدين ولا أدوات ، فى سبيل انقاذ شخص يحبه .. وهو موقف يحتم عليه أن يكون حازما !

وقال مونرو : « من غير المعقول ان تكون قد ابتعدت كل هذه المسافة ، فعلينا ان نعود فنفتش الغابة فى نطاق ميل من البيت . ولننقب فى كل شبر منها ، فان التفسير الوحيد للموقف هو انها ارتعبت ، أو اغمى عليها ، او لدغتها افعى ! »

ولم يعقب نبيل .. وبدأوا البحث من جديد ، فساروا فى

صفوف ، يفتشون بين النباتات . وأطلقوا الصيحات ، كما كانوا يطلقون رصاصه — بين آونة وأخرى — ثم يصغون الى رد . وحومت طيور الليل ، ثم فرت مذعورة من المصابيح.. وكانوا يشهدون من آن لآخر ما يخيل اليهم انه حيوان — كغزال أو دب أو خرتيت — وهو يهرب من أصواتهم !

وثارت العاصفة فجأة .. فهبت ريح عاتية ، وارعدت السماء ، وشق البرق ظلام الليل ، وكأنه صرخة امرأة برح بها الألم . وأخذت الومضات ((المعذبة)) تظهر بسرعة خاطفة ، الواحدة فى أعقاب الأخرى ، وكأنها راقصات من الجن تتمايل فى هوس وجنون .. وتكشفت أهوال الغابة وكأنما كان القوم فى يوم الحشر .. وظل الرعد يقصف فى السماء ، ويدوى فى هزيم بعد هزيم ، وكأنه موجات كبيرة تتدافع على شواطىء الخلود .. ورنت هذه الاصوات المخيفة فى الفضاء ، فكأن للصوت حجما ووزنا .. وهطل المطر وتدفق سيولا عارمة ، فتهاوت الصخور والإشجار الضخمة ، وتدحرجت من أعلى الجبل .. وكانت اضوضاء عاتية مخيفة ، وتملك الذعر الصيادين ((الدياك)) من الارواح الغاضبة التى تتكلم وسط العاصفة . ولكن مونرو حثهم على مواصلة البحث .

وظل المطر يهطل طول الليل ، ولم يتوقف الرعد ولا البرق حتى بزغ الفجر ، فعادوا الى المعسكر يرتجفون .. وكانت ثيابهم قد ابتلت ، وأضناهم الجهد والتعب . حتى اذا فرغوا من فطورهم ، أراد مونرو أن يواصل البحث الميئوس منه ، **ولكنه أدرك أن لا أمل يرتجى ، وأنهم لن يروا ((داريا)) بعد ذلك على قيد الحياة !. فأرتمى فى اعياء .. وكان وجهه شاحبا ، يحمل أمارات الضنى والعذاب .. وهتف فى اسى ولوعة : ((ياللطفلة المسكينة ! .. ياللطفلة المسكينة !))**

جبان..!

(خيط من الدم الأصفر)

THE YELLOW STREAK

كان القاربان يتقدمان فى يسر وسهولة ، منسابين مع التيار،
يسبق أحدهما الآخر ببضع ياردات ، وقد استقله الرجلان
اللذان كانا يشعران بالغبطة والارتياح ، اذ اطمأنا الى أنهما
سيقضيان الليل فى منزل متمدين ، بعد رحلة استغرقت
سبعة أسابيع قضياها على الانهار ..

وكان « ايزارت » يعيش فى (بورنيو) منذ الحرب ، ولهذا
لم تكن بيوت « الدياك » ــ أهل العشائر المحلية ــ ولا ولائمهم
بالغريبة عنه ، أما « كامبيون » فمع أنه كان جديدا على البلاد
وقد استمرأ فى البداية هذه الجدة وما بعثت فيه من شعور
بالاستغراب ، فانه أصبح فى أشد الشوق الى مقعد يجلس
عليه ، وفراش ينام فيه .. فقد كان « الدياك » بالغى
الحفاوة ، ولكن ما من أحد يستطيع أن يقول أن ثمة أسبابا
الراحة فى دورهم ، كما كانت ثمة رتابة مملة فيما كانوا
يقدمونه الضيف ، فسرعان ماينطرق الملل الى نفسه .
ذلك لان زعيم القرية كان يتقدم فى كل مساء ــ عند وصول
الرحالتين الى المرفأ ــ حاملا علما ، وقد رافقه علية القوم .
فيستقبلون القادمين ويقودونهما الى المنزل « الطويل » ، وهو
فى الواقع قرية أقيمت على عمد، تحت سقف واحد، لاسبيل
الى دخولها الا بتسلق جذع شجرة شدت ــ بطريقة بدائية ــ
على شكل درجات سلم . وكان الجميع يسيرون فى موكب

خلال هذه القرية ، بين دق الطبول وقرع اللوحات النحاسية، وقد اصطفت على جانبى الطريق حشود من القوم ذوى البشرة السمراء ، جالسين ، متربعين ، يتطلعون فى صمت تام الى مرور الضيفين !

وكانت الارض مفروشة بحصير نظيف ، ليجلس عليه الضيفان . وكان الزعيم لا يلبث أن يحضر دجاجة حية ، فيمسكها من ساقيها ، ويلوح بها ثلاث مرات فوق راسيهما، ثم ينادى الارواح بصوت عال ، داعيا اياها أن تشهد .. بينما كان القوم يتوافدون جالبين البيض وشراب « العرق » . ثم تتقدم فتاة صغيرة جدا ، مستحيية ، فى بهاء الزهور ، وان شاعت فى وجهها الجامد الملامح قداسة كهنوتية ، فتحمل كأسا تقدمها الى الرجل الابيض ، وتحملها الى شفتيه ، فيشرب منها حتى يفرغ جميع محتوياتها فى جوفه ، فترتفع – اذ ذاك – الاصوات مهللة . ويشرع الرجال فى الرقص ، واحدا بعد آخر ، كل بالطريقة التى يهواها ، وهو يحمل درعه ورمحه ، ويدور الرقص على قرع الطبول ودق الالواح النحاسية .. حتى اذا انتهى هذا العرض ، أقتيد الضيفان الى احدى الغرف المؤدية الى الشرفة الطويلة ، حيث تجرى الحياة العامة فى القرية . وهناك ، كانا يجدان طعام العشاء معدا ، فتأخذه الفتيات فى اطعامهما بالملاعق الصينية . واذ يبدأ الشراب يعبث بالعقول ، يأخذ الجميع فى الحديث ، ويظلون كذلك الى ساعة مبكرة من الصباح !

* * *

وها قد انتهت زيارتهما للقرية ، فغادراها فى الفجر متجهين الى الشاطىء . وكان النهر – اذ ذاك – ضحلا للغاية ، ومياهه تجرى فى صفاء وبريق فوق القاع المكسو بالحصباء ، وقدمالت الاشجار عليه وتشابكت حتى لم تكن تظهر من السماء غير شقة

زرقاء اللون . ولم يلبث النهر أن اتسع ، فلم يعد الرجال يستعملون المدراة فى تسيير الزورق ، بل اخذوا يستخدمون المجاديف . وظهرت الاشجار وأعواد الغاب والنباتات كأنها باقات ضخمة من ريش النعام ، كما ظهرت أشجار ذات أوراق ضخمة ، وأشجار ذات أوراق شبيهة بالريش كأشجار السنط ونخيل جوز الهند ، وقد نمت سيقانها الطويلة نموا غزيرا وحشيا . وكانت تقوم — هنا وهناك — شجرة ذاوية عارية : قضت عليها صاعقة ، او ماتت لتقادم العهد عليها ، فاذا بياضها يلوح ناصعا اذا قيس بكل الخضرة الناضرة المحيطة بها .. كما كانت تقوم — هنا وهناك — الاشجار التى كانت تتنافس على سيادة الغابة : أشجار طويلة ، تتطاول فوق المستوى العادى للادغال . . وكانت هناك — أيضا — الطفيليات : فبين تقاطع اى فرعين تنمو باقات ضخمة من الاوراق الخضراء اليانعة ، أو نباتات متسلقة ذات أزهار تحجب أوراق الشجرة المنتشرة وكأنها خمار عروس .. وهى تلتف أحيانا حول جذع طويل ، فكأنها غمد بديع ، أو كأنها أذرع مزدهرة تمتد من فرع الى آخر .. وكان ثمة شىء يبهر النفس فى ذلك النماء الضارى المتوثب .. كان يمثل الجراءة الوافرة التى التى اتسمت بها البداوة المتمردة بين خلق الله !

واخذ النهار يولى ، ولم تعد حرارة الجو مرهقة . والقى « كامبيون » نظرة على ساعة معصمه الفضية القديمة . ووجد انه لن يمضى طويل وقت حتى يصلوا الى مقصدهم ، فسأل رفيقه : « اى نوع من الرجال هتشينسون هذا ؟ »

— لست أعرفه ، واعتقد أنه من نوع بالغ الطيبة .

وكان هتشينسون هذا هو المقيم العام ، الذى كانا بزمعان ان يقضيا الليل فى داره .. وقد ارسلا أحد الاهالى فى قارب صغير ليبلغه بوصولهما . فأردف « كامبيون » قائلا : « أرجو

ان يكون لديه بعض الويسكى ، فقد شربت من العرق مايكفينى طول الحياة ! »

وكان « كامبيون » مهندس مناجم ، قابله السلطان فى (سنغافورة) — وهو فى طريقه الى انجلترا ، فلما وجده بلا عمل ، عهد اليه بالذهاب الى (سمبوانو) ليرى ما اذا كان من الممكن العثور على أى معدن ذى فائدة. وارسل الى «ويليس» المقيم العام فى (كوالا سولور) تعليماته لتقديم جميع التسهيلات لكامبيون ، فعهد « ويليس » به الى « ايزارت » لانه كان يتكلم لغة الملايو ولغة « الدياك » — وهى اللغة الوطنية — وكأنه من أهلهما .. وكانت هذه ثالث رحلة يقومان بها فى داخل البلاد ، وقد آن لكامبيون أن يعود ليقدم تقريره ، فكان لزاما عليهما أن يلحقا بالسفينة « السلطان أحمد » ، التى كان من المنتظر أن تمر بمصب النهر عند الفجر — بعد يومين — عسى أن يساعدهما الحظ فيصلا الى (كوالا سولور) بعد ظهر اليوم ذاته .. وكانا مغتبطين بعودتهما اليها ، فهناك التنس والجولف والنادى بما فيه من موائد « البلياردو » وأطعمة لا بأس بها ، وأسباب الراحة التى توفرها المدنية . وكان « ايزارت » فرحا لانه سيلقى صحبة أخرى غير « كامبيون » . وقد نظر اليه بطرف عينه يتأمل جسمه الضئيل ، ورأسه الكبير الاصلع .. ومع أنه كان فى الخمسين من العمر — يقينا — فقد كان قويا صلبا ، ذا عينين زرقاوين براقتين سريعتى الحركة ، وشاربين كثين أشيبين قصيرين .. وكان نادرا ما يظهر بغير غليونه القديم يعض عليه بأسنانه المتكسرة التى زال لونها .. ولم يكن نظيفا ولا أنيقا ، بل كان سرواله القصير « الخاكى » رثا ، وقميصه ممزقا . وكان يضع على رأسه قبعة مهشمة من الفلين .

ولقد خرج « كامبيون » يضرب فى الارض وهو فى الثامنة

عشرة من العمر ، فزار جنوب أفريقيا والصين والمكسيك .. وكان رفيقا مسليا ، يجيد رواية اية قصة ، كما كان على استعداد لان يشرب الخمر ويعاود الشراب مع كل امرىء يقابله ! .. وقد ارتبط الاثنان بعلاقات طيبة ، وان لم يشعر « ايزارت » بألفة تامة معه .. فمع انهما كانا يتمازحان ويتضاحكان ويسكران معا ، الا أن « ايزارت » شعر بأنه لم يكن ثمة تقارب وثيق بينهما ، وبأن علاقتهما لم تتجاوز المعرفة ، رغم ماسادها من ود . وكان مرهف الشعور بما يحدثه من أثر فى نفوس الآخرين ، وقد شعر بأن البهجة ــ التى كان « كامبيون » يبديها ــ كانت تخفى وراءها بعض الفتور ! .. وكذلك استطاعت العينان الزرقاوان البراقتان أن تلما بفكرة شاملة عنه ، وقد ضايق « ايزارت » أن يؤلف « كامبيون » فكرة عنه ، لاسيما وانه لم يعرف هذه الفكرة ونوعها ، كما ضايقه احتمال الا يكون هذا الرجل البسيط الهزيل قد كون لنفسه فكرة طيبة عنه . فقد كان تواقا الى أن يكون محبوبا وموضوع اعجاب .. **كان يحب أن يكون «شخصية محبوبة» ، وأن يغالى الناس فى تصور مكانته ، حتى يستطيع أن يرفض صداقتهم ، أو يمنحهم صداقته وكأنه يتكرم بها عليهم ..** كانت امنيته ان يكون معروفا للجميع بلا استثناء ، وما كان يقعده عن محاولة ذلك سوى الخوف من الصد .. وكان يمضه احيانا أن يشعر بأن افاضته فى التلطف والتودد كانت تدهش أولئك الذين كان يبديها نحوهم !

ولم يكن ــ للمصادفة ــ قد التقى بهتشينسون من قبل ، وان كان قد عرف ــ فى الواقع ــ كل شىء عنه ، كما كان هتشينسون يعرف ــ بدوره ــ كل ما يتعلق به .. وربما كان لهما أصدقاء عديدون مشتركون يستطيعان التحدث عنهم لو قدر لهما ان يلتقيا .. ثم ان هتشينسون كان قد

تلقى علومه فى (ونشستر) ، وقد اغتبط ايزارت اذ كان بوسعه أن يقول لهتشينسون أنه كان فى كلية « هارو » !

وداار الزورق حول منحنى فى النهر ، فظهرت فجأة الدار قائمة على ربوة بارزة . وان هى الا بضع دقائق حتى ظهرت مرساة وقف عليها لفيف من الاهالى ، وشخص فى ثياب بيضاء وقد راحوا يلوحون للقادمين .

وكان « هتشينسون » طويل القامة ، قوى البنية ، أحمر الوجه ، يوحى مظهره اليك بأن تتوقع أن تجد فيه شخصا خفيف الظل ، واثقا من نفسه . ولكنك لاتلبث أن تدهش اذ تكتشف أنه حيى خجول ! .. وبعد أن صافح ضيفه ، قدم ايزارت نفسه ، ثم قدم كامبيون اليه ، فقادهما الى الطريق المفضية الى الدار . وظهر انه كان يحاول جاهدا ان يبدو ودودا ، بيد انه لم يكن من المتعذر على أحدهما أن يتبين انه كان يجد مشقة فى أن يبتكر مادة للحديث .. واخذهما الى الشرفة فوجدا مائدة عليها كؤوس وزجاجات الويسكى والصودا ، فجلسوا جميعا فى مقاعد طويلة مريحة . واذشعر « ايزارت » بأن الارتباك البسيط الذى كان هتشينسون يشعر به - عادة - نحو الاغراب قد ازداد ، اخذ يسهب فى الحديث والمرح ، وبدأ يتكلم عن معارفهما المشتركين فى (كوالا سوانور) ، وسرعان ما نجح فى أن يذكر - بطريقة غير

ملحوظة ـ معلومات توحى بأنه كان فى كلية « هارو » ثم قال: « أظنك كنت فى ونشستر . أليس كذلك ؟ » . فأجابه هتشينسون : « بلى » .

ـ هل تعرف « جورج باركر » ؟ .. لقد كان فى فرقتى فى الجيش ، وكان أيضا فى كلية ونشستر .. وربما كان أصغر منك سنا !

وشعر « ايزارت » أن وجودهما فى هاتين المدرستين بالذات يعد رابطة بينهما .. رابطة أبعدت كامبيون عنهما ، الذى كان من الجلى أنه لم يحظ بهذه الميزة ! .. وشربوا كأسين أو ثلاث كؤوس من الويسكى ، وان هو الا نصف ساعة ، حتى كان « ايزارت » ينادى مضيفه باسم « هتشى » ، وتحدث كثيرا عن « فرقتى » ، وعمن توثق الود بينه وبينهم من الضباط الذين زاملوه فيها . وذكر اسمين او ثلاثة أسماء لا يمكن أن تكون غير معروفة لدى هتشينسون ، وان كان اصحابها من فئة من الناس لم يكن من المحتمل أن يكون كامبيون قد تعرف اليها . ولم يتورع عن أن يوجه اليه سخرية متوارية متعمدة ، عندما ادعى معرفته بشخص ممن تحدث عنه ، فقد قال كامبيون : « بيلى ميدوز ؟ .. لقد عرفت شخصا يدعى بيلى ميدوز فى (سينالوا) ، وكان ذلك منذ عدة سنين ! » . فقال ايزارت مبتسما :

ـ لا أظن أنه نفس الشخص ، فان « بيلى » الذى أعنيه من النبلاء ، انه « اللورد ميدوز » ، الذى يملك جيادا للسباق، الا تذكره ؟ .. انه صاحب الجواد « سبرينج كاروتس »

واقترب وقت العشاء .. وبعد أن اغتسلوا واستبدلوا ثيابهم ، شربوا قدحين من « الجن » .. ولم يكن هتشينسون قد ذهب الى (كوالا سولور) منذ سنة تقريبا ، ولم ير رجلا أبيض منذ ثلاثة أشهر ، فكان توافا الى أن يسرف فى الترحيب

بضيفيه . ولم يكن يملك أن يقدم لهما نبيذا، وانما كانت هناك كميات كبيرة من الويسكى . وأحضر لهما بعد العشاء زجاجة غالية من « البندكتين » ، فازداد مرحهم ، واسرفوا فى الضحك والحديث . وبدأ « ايزارت » يبرز فى المجال ،وخيل اليه أنه لم يحب ــ من قبل ــ شخصا أكثر مما أحب «هتشينسون»، فأخذ يلحف فى دعوته أن يزوره فى (كوالا ســـواور) بأسرع ما كان يستطيع . وأوحى شيء من الخبث الى « ايزارت » أن يستبقى « كامبيون » بعيدا عن الحـديث ، لكى يضـعه فى مكانه ، كما نأى هتشينسون عن محادثه بحكم خجله وحيائه. فما لبث كامبيون أن ابدى رغبته فى أن يأوى الى فراشـه ، بعد أن أكثر من التثاؤب . فاقتاده هتشينسون الى غرفته. وعنـدما عـاد الى ايزارت قال له : « ألا تريد الذهاب الى الفراش الآن ؟ »

ــ لا ، وحياتك ! .. لنتناول كأسا أخرى !

وجلسا يتبادلان الحديث .. وبدأت الخمر تلعب برأسيهما. واذ ذاك ذكر « هتشينسون » لضيفه أنه كان يعاشر احدى فتيات الملايو ، وقد انجب منها طفلين ، ولكنه طلب منهم الا يظهروا خلال مقام كامبيون ! .. وأردف ، وهو يمد النظر نحو الباب الذى أدرك ايزارت أنه يؤدى الى مخدع المضيف: « أحسبها نائمة الآن ، ولكنى أحب أن ترى الطفلين، وسأفعل ذلك فى صباح غد »

وهنا انبعث عويل خافت ، فقام هتشينســون واتجه الى الباب ، وهو يقول : « لقد استيقظ الشيطان الصغير ! » . وفتح الباب ، ودخل الغرفة .. وبعد برهة ، ظهر وهو يحمل طفلا بين ذراعيه ، ووراءه امرأة تتبعه .

وقال لايزارت : « لقد بدأت أسنانه تشق طريقها للظهور . وهى تتعبه وتؤرقه ! » .. وكانت المرأة ترتدى الســارونج

(وهو مئزر يرتديه الرجال والنساء على السواء فى جاوة والملايو) ، وسترة بيضاء خفيفة . وكانت حافية القدمين ، صغيرة السن ، ذات عينين سوداوين جميلتين . وعندما تحدث « ايزارت » اليها ، ابتسمت له ابتسامة مشرقة تفيض بهجة ، ثم جلست وأشعلت سيجارة، وأخذت تجيب - بدون حرج ، ولكن بلا اسراف - عن الاسئلة التى أخذ يوجهها اليها بأدب وكياسة . وسألها هتشينسون عما اذا كانت تحتسى كأسا من الويسكى معهما ، فرفضت . وعندما عاود الرجلان الحديث بالانجليزية ، جلست ساكتة تتأرجح برفق فى مقعدها ، وقد استغرقت فى أفكار هادئة ما كان بوسع احد ان يتنبأ بها !

وقال هتشينسون : « انها فتاة طيبة للغاية ، تتولى العناية بالبيت ، ولا تضايقنى فى شىء . وهذا بطبيعة الحال هو الشىء الوحيد الذى يمكن أن يعمل فى مكان كهذا ! » . فقال ايزارت: « اننى - شخصيا - لا أقدم على شىء كهذا ، فلا بد للانسان - فى النهاية - من أن يرغب فى أن يتزوج ، واذا كان فى ماضيه مثل هذا الشىء ، فانه يغدو مصدرا للكثير من الحرج!»

- ولكن .. من ذا الذى يريد الزواج ؟ .. يالها من حياة لسيدة بيضاء !! .. اننى لا أجسر قط أن أسأل أية سيدة بيضاء أن تعيش هنا ، مهما يكن الثمن !

- انها بطبيعة الحال مسألة مزاج .. واذا قدر ان يكون لى أولاد ، فيهمنى أن تكون امهم من البيض !

فغض هتشينسون نظره ، وأخذ يتفرس فى الطفل الاسمر اللون ، الذى كان يحمله بين ذراعيه . وارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة ، وقال : **« من الطريف حقا أن تعرف الى أى مدى ستحبهم ، فليس من المهم أن يكونوا سودا أو بيضا مادامو ابناءك ! »**

وألقت المرأة نظرة على الطفل ثم نهضت قائلة انها تبغى أن تحمله الى الفراش . فقال هتشينسون :« ارى من المناسب أن نذهب جميعا الى النوم ، فالله وحده يعلم فى اية ساعة نحن الآن ! »

* * *

وذهب « ايزارت » الى غرفته ، ففتح النوافذ التى كان خادمه « حسن » ـ الذى رافقه فى رحلته ـ قد اغلقها ، واطفأ الشمعة حتى لايجتذب ضوؤها البعوض ، ثم جلس الى النافذة ، وأخذ يتطلع الى الظلام الهادىء ، وقد أوحى اليه الويسكى الذى شربه انه كان يقظا ، متنبها كل الانتباه ، وليست به رغبة فى أن يأوى الى فراشه. وقام فخلع ملابسه ، وارتدى « السارونج » ، واشعل سيجارة من تبغ « المانيلا » ، وقد اختفت علامات البشر من وجهه . **فان رؤية هتشينسون وهو ينظر فى شغف الى الطفل الذى أنجبه من امرأة غير بيضاء ، عكر عليه هدوء باله ! .. وقال يحدث نفسه : « لم يكن لهما أى حق فى أن ينجبا أبناء ، فلن تكون لهؤلاء الابناء اية فرصة فى الدنيا ! .. أبدا ! »**

ومر بيديه على ساقيه العاريتين من الثياب ، المكسوتين بالشعر . وارتجف قليلا ، ولا غرو ، فقد حاول كثيرا أن ينمى هاتين الساقين ، ولكنهما ظلتا دائما أشبه بعصا المكنسة ، حتى لقد بات يكرههما ، ويشعر على الدوام بما فيهما من عيب .. كانت اشبه بسيقان أبناء تلك البلاد .. بل انهما ـ فى الواقع ـ الساقان اللتان خلقت الاحذية الطويلة من اجلهما . ولذلك كان يظهر بمظهر طيب جدا ، اذا ما ارتدى الزى الرسمى . فقد كان طويل القامة ، قوى البنية ، يزيد طوله على ست أقدام ، وكان ذا شاربين حالكى السواد ، وشعر اسود. اما عيناه السوداوان ، فكانتا جميلتين كثيرتى

الحركة .. وكان مليح الشكل ، وقد أدرك ذلك حقا ، كما كان حسن الملبس ، واسع الثياب مهدلها عندما تقتضى « الموضة » ذلك بالثياب المهدلة ، وأنيقا عندما يقتضى الظرف أن تكون ثيابه محبوكة حول جسده !

ولقد أحب الجيش ، فكانت صدمة قوية له أن انتهت الحرب ، ولم يتسن له البقاء فى صفوفه .. وكانت مطامعه بسيطة ، فقد كان يرجو دخلا يبلغ ألفى جنيه فى العام ، ويتوق الى اقامة حفلات العشاء الفخمة ، وأن يذهب الى الحفلات والمآدب وهو فى الزى العسكرى .. وكان يصبو الى الاقامة فى لندن !

وكانت والدته تعيش هناك فى الواقع ، وهى التى كانت تعرقل خططه ! .. اذ كان يحار فى أمر تقديمها للمجتمع اذا قدر له أن يخطب الفتاة التى كان يتطلع الى الزواج بها ، وهى من أسرة طيبة ، وتملك بعض المال .. وكان أبوه قد توفى منذ زمن طويل ، وقد قضى الفترة الاخيرة من حياته مقيما — أى حاكما — فى أقصى ولاية من ولايات الملايو . ولهذا كان « ايزارت » واثقا من أنه ما من أحد فى (سمبولو) يعرف شيئا عن أمه .. ومع ذلك ، فقد كان يعيش فى ذعر ، خشية أن يصادفها أحد فى لندن ، فيكتب الى القوم فى (الملايو) ، ويذيع أنها كانت « مولدة » .. من أب أبيض وأم من بنات تلك الاصقاع !.. ولقد كانت حسناء عندما تزوجها والد « ايزارت » — الذى كان مهندسا فى خدمة الحكومة — ولكنها أصبحت عجوزا بدينة ، شيباء الشعر ، تقضى يومها فى خمول ، ولا تكف عن التدخين ! ..

ولقد كان « ايزارت » فى الثانية عشرة عندما توفى والده ، وكان — عندئذ — يستطيع التحدث بلغة الملايو بطلاقة تفوق طلاقته فى الانجليزية !.. وقد أبدت احدى عماته استعدادها للتكفل بنفقات تعليمه ، فسافر الى انجلترا .. ورافقته أمه ،

التى اعتادت أن تقيم فى مساكن مفروشة ، فكانت غرفها مقبضة للنفس ، شديدة الحر ، لكثرة ماكانت تحشد فيهامن ستائر شرقية ، وأدوات للزينة مصنوعة من فضة الملايو .. وكانت الام على شقاق دائم مع صاحبات المساكن التى تستأجرها ، بسبب ماكانت تنثره حولها من بقايا السجاير فى كل مكان . **وكان ايزارت يكره طريقتها فى المصادقة ، فقد كانت تتمادى فى الالفة فترة من الزمن ، الى درجة تثير الدهشة ، ثم يدب الفتور ، وبعد شجار عنيف ، تغادر المنزل الى سواه !**

وكانت أفلام السينما متعتها الوحيدة ، فكانت تذهب الى دور السينما فى جميع أيام الاسبوع .. وكانت ترتدى — فى مسكنها — ثوبا رخيصا ، كثير الزركشة والنقوش . أما اذا خرجت ، فكانت ترتدى — فى غير أناقة ولا نظافة — ثيابا ذات الوان صاخبة ، مما كان يثير كمد ابنها الانيق ، فكان يتشاجر معها كثيرا . ولا عجب فقد كانت تستنفد صبره ! .. **كان يخجل منها ، ولكنه — مع هذا — كان يشعر نحوها بحنان رقيق عميق ، فكأنما بينهما رابطة مجسدة ، تتجاوز مجرد الشعور العادى بين الام والابن ، ولهذا فقد كانت — برغم سيئاتها التى اقضت هناءه — هى الشخص الوحيد فى العالم ، الذى يرتاح اليه ارتياحا تاما !**

ونظرا للمركز الذى كان والده يشغله ، ولمعرفته هو بلغة الملايو — لان والدته كانت تحدثه بها على الدوام — فانه عمد حين وجد نفسه بلا عمل أو منصب ، الى السعى للالتحاق بخدمة سلطان (سمبولو) . وقد أصاب نجاحا فى هذه الخدمة ، وفى المجتمع الذى يقيم هناك . اذ كان يجيد العابا كثيرة ، وكان قويا ورياضيا مبرزا ، وقد عرض فى استراحة (كوالا سولور) الكؤوس التى ظفر بها فى مسابقات العدو

والقفز فى كلية « هارو » ، وقد اضاف اليها بعد ذلك كؤوسا اخرى ظفر بها فى مباريات الجولف والتنس .. وكان بفضل ما حوته جعبته من أحاديث شيقة ، النجم اللامع فى المآدب والحفلات .. وكانت بشاشته عاملا فى تصريف الامور ، وكان خليقا - بعد كل هذا - بأن يكون سعيدا ، ولكنه كان - الواقع - كان بائسا شقيا !.. ولقد كان يتوق أن يكون من الشخصيات المعروفة المحبوبة . ولكن هاجسا راح يوحى اليه - فى الحاح كان فى هذه اللحظة أقوى منه فى أية لحظة من قبل - بأن الشهرة الشعبية قد أفلتت منه . وكان يخشى أن يكون أهل (كوالا سولور) قد عرفوا - ولو بمحض المصادفة - أن فى عروق هذا الشخص الذى يقابل بالترحيب فى كل مكان ، دما من بلادهم !

وكان يعلم تماما ما ينبغى أن يتوقعه لو انهم عرفوا ذلك ، فلن يقولوا عندئذ أنه مرح ودود ، بل سيقولون انه عادى الى اقصى حد .. وسيقولون كذلك انه مهمل ، وغير كفء ، كغيره من المولدين .. ولسوف يسخرون منه عندما يتحدث عن الزواج بسيدة من البيض ! .. ياله من اجحاف وغبن ! .. اى فارق هذا الذى تحدثه هذه القطرة من الدم المحلى التى تجرى فى عروقه ؟ ! .. ان هذه القطرة بالذات ستحدوهم على ان يكونوا على الدوام متحفزين ، انتظارا للفشل المرتقب فى

اللحظة الحرجة . فان كل امرىء كان يوقن من انه لا يمكن الاعتماد على الخلاسيين ، ومن ثم فقد اخذ يتوقع أن يتخلوا عنه ، عندما تحين هذه اللحظة ، أن آجلا أو عاجلا ! .. كان يعرف ذلك ويوقن منه ، ولكنه راح يسائل نفسه ، فى تلك الليلة : **ألا يكون فشل الخلاسيين راجعا الى أن الفشل كان منتظرا منهم ؟ ! .. يالهم من بؤساء مساكين ، لم تتح لهم أية فرصة !**

وصاح ديك بصوت عال ، فانتبه « ايزارت » الى أن الوقت قد مضى به بعيدا .. وبدأ يشعر بالبرد ، فأوى الى مرقده.

وعندما أحضر له « حسن » الشاى — فى الصباح التالى — كان يشعر بصداع حاد . وعندما ذهب الى حجرة المائدة لتناول الفطور ، لم يقو على أن يلقى نظره على شرائح اللحم والبيض الموضوعة أمامه .. وكان هتشينسون — هو الآخر — فى حال غير طيبة ، فقال وهو يبتسم ليخفى تعبه : «أحسب اننا جعلنا من ليلة الامس ليلة ليلاء ! » . فهتف ايزارت : « اننى أشعر كأننى فى جحيم ! » .. وهنا قال هتشينسون : « سأفطر بقدح من الويسكى والصودا » . ولم يكن ايزارت « سأفطر بقدح من الويسكى والصودا ! » . ولم يكن ايزارت وهو يقبل على التهام اللحوم بشهية طيبة !

وقال كامبيون فى سخرية : « يالله يا ايزارت ! .. شد مايبدو خيشو ماك أسمرين ! .. أبدا لم أر فى حيانى مثل هذه السمرة العجيبة ! » . فتضرج وجه ايزارت ، اذ كان اسمرار لونه نقطة حساسة بالنسبة له . ولكنه ارغم نفسه على أن يطلق ضحكة ، مظهرا البهجة ، وقال :

— الواقع ان لى جدة اسبانية ، وأذكر أننى عندما كنت فى « هارو » ، تشاجرت مع أحد الصبية وضربته ضربا مبرحا لانه نعتنى بأنى « مولد » !

فقال هتشينسون : « انك أسمر اللون ! .. هل سألك

احد من الملايو عما اذا كان يجرى فى عروقك دم محلى ؟ » .
فأجاب ايزارت متضاحكا : « أجل .. لعنة الله على جرأتهم! »

★ ★ ★

وفى الصباح ، اقلع قارب بأمتعتهما ليسبقهما الى مصب النهر، وليخبر ربان السفينة «السلطان أحمد» — اذا قدر أن تصل قبل الموعد المقرر لها — انهما كانا فى طريقهما الى السفينة وكان على ايزارت وكامبيون أن يقلعا فورا ، حتى يصلا الى المكان الذى كان مقررا أن يقضيا الليل فيه ، قبل أن تمر موجة المد ، وهى موجة من مياه المد تندفع فى بعض الانهار — بسبب خاصية فى الارض — وكان النهر الذى يبحران فيه يتعرض لمثل هذه الموجة . وكان هتشينسون قد أبلغهما عنها فى الليلة الماضية .. وقد أبدى كامبيون — الذى لم يسبق له أن رأى شيئا كهذا — اهتماما كبيرا بأمرها . فقال هتشينسون : « انها من خير الموجات فى بورنيو ، وهى جديرة بالمشاهدة ! »

وأبلغهما كيف أن الوطنيين يترقبون عادة اللحظة التى تأتى فيها الموجة فيمتطونها لتنقلهم بسرعة رهيبة تخطف الانفاس خطفا . وقال لهما انه قام بهذه التجربة مرة واحدة . ثم أردف : « لن أعاود التجربة مرة أخرى ، فقد أخرجنى الرعب الذى شعرت به عن وعيى ! »

وقال ايزارت : « لكم أود أن أجرب ذلك مرة ! » .

— انها مثيرة الى حد بالغ ، ولكن صدقونى اذا قلت أنكما اذا كنتما فى أحد القوارب المحلية ، ولم يعرف الوطنى الذى يقوده اللحظة المناسبة التى تهب فيها الموجة ، فانها لا تلبث أن تدهمكما وتلقى بكما فى تيار عارم . وعندئذ لا تكون هناك اية فرصة للنجاة ! .. وفى رأيى أن المجازفة بالتعرض لها ليست من الرياضة فى شىء !

فقال كامبيون : « اننى اجتزت فى حياتى عددا كبيرا من

الشلالات ! »

— كل الشلالات تعد تافهة اذا قيست بهذه الموجة . وما عليك الا أن تنتظر لتراها ! ... أنها من أفظع ما عرفت ! .. ألا تعلم أن مالا يقل عن عشرة من الاهالى يغرقون فى الموجة التى تدخل هذا النهر ، فى كل عام ؟

وجلسوا على مقاعد مريحه فى الشرفة، حيث قضوا الشطر الاكبر من فترة الصباح . ثم أخذهما هيتشنسون فأراهما دار المحكمة . وأديرت كؤوس « الجن » بعد ذلك ، فشربوا كأسين أو ثلاثا .. وانتعش ايزارت ، فلما مد الطعام — فى النهايه — شعر بشهية رائعة .. وكان هتشينسون يطنب فى امتداح « الكارى » الذى يطهى فى الملايو ، فما ان وضعت الاطباق الساخنة — التى كان البخار يتصاعد منهـا — حتى اقبل الضيفان عليهـا ، وراحا يأكلان بشراهة . والح هتشينسون عليهما بالشراب ، وهو يقول : « ليس امامكما — خلال الرحلة — غير النوم ؛ فلماذا لاتسكران ؟ »

ولم يكن يطيق أن يتركهما يفارقانه بهذه السرعة ، فما كان أجمل أن يجتمع — بعد هذه الفترة الطويلة التى قضاها فى هذه البلاد — برجلين من البيض ويتحدث اليهما ، ولهذا راح يتلكأ فى الاكل ، ويلح عليهما فى تناول مزيدمن الطعام . وقال لهما انهما لن يجدا فى البيت الطويل — الذى ينزلان فيه خلال الرحلة — غير طعام تافه ، وغير شراب العرق فقط .

واقترح كامبيون مرة أو مرتين أن يشرعا فى الرحلة ، ولكن هتشينسون كان يستمهله مؤكدا له أن هناك متسعا من الوقت .. وكذلك فعل « ايزارت » ، اذ كان قد أحس بالسعادة والطمأنينة . وبعث هتشينسون فى طلب زجاجة « البندكتين » الثمينة .. وكانوا قد شربوا بعضا منها فى الليلة السابقة ، فرأى أن يأتوا عليها معا قبل أن يغادراه !

وعندما رافقهما ـ فى النهاية ـ الى النهر ، كانوا جميعا فى منتهى المرح ، ولم يكن أى منهم ثابت القدمين ! .. وكانت تقوم فى وسط الزورق سقيفه ، وقد فرش هتشينسون حصيرة تحتها .. اما البحارة فكانوا من المسجونين ، وقد جىء بهم من السجن ليبحروا بالرجلين الابيضين، وقد ارتدى كل منهم مئزرا « سارونج » قذرا ، عليه علامة السجن . ووقفوا ممسكين بالمجاديف فى انتظار الراحلين .. وبعد أن صافح « ايزارت » و « كامبيون » هتشينسون ، تهالكا على الحصير ! .

* * *

وأقلع الزورق فى النهر الواسع الهادىء ، الذى كان ماؤه يتألق تحت حرارة شمس بعد الظهر الساطعة ، فكأنه نحاس مصقول براق . وكان فى امكانهما ان يريا من القارب ضفة النهر ـ على البعد ـ بأشجارها الخضراء المتشابكة . وشعر الاثنان بالنعاس ، ولكن « ايزارت » وجد متعة غريبة فى أن يقاوم قليلا ذلك التثاقل الذى أخذ يدب فى جسمه ، وقد استقر عزمه على أن لايدع النوم يغلبه قبل أن ينتهى من تدخين السيجارة المصنوعة من طباق « المانيلا » . وأخيرا ، كاد عقب السيجارة أن يحرق أصابعه ، فقذف به فى البحر ، وقال : « سأنعم باغفاءة بديعة ! »

فسأله كامبيون : « وما رأيك فى موجة المد ؟ »

ـ آه ، لا بأس ! .. لاداعى لان نضايق نفسينا بهذا !

وتثاءب فى صوت عال ، وشعر بان مفاصله قد ثقلت حتى أصبحت كالرصاص..ومرت برهة شعر فيها بخدر لذيذ ، ثم راح فى غفوة لم يعد خلالها يشعر بشىء ! .. ولكن « كامبيون » أيقظه فجأة ، وأخذ يهزه صائحا :

ـ أنظر ... ما هذا ؟

ـ ماذا ؟ .. ما الذى تتساءل عنه ؟

وكان يتحدث بتثاقل ، لان النوم كان لا يزال يغالبه ، ولكنه تابع بعينيه اشاره « كامبيون » .. ولم يسمع شيئا ، ولكنه راى ـ على مسافة ليست بالقريبة ـ قمتين او ثلاثا لموجات متتابعة ، يلاحق بعضها بعضا . ولم يكن في منظرها ما يدعو الى الخوف أو الجزع ، فقال ايزارت : « أوه .. أظنها موجه المد ! »

فسأله كامبيون : « **وماذا ترانا فاعلين ازاءها ؟** »

ولم يكن « ايزارت » قد أفاق تماما من نعاسه ، فابتسم للقلق الذى بدا جليا فى صوت كامبيون ، وقال له :

ـ لا تقلق ، فان الذين معنا يعرفون كل شىء عن هذه المسألة ، كما انهم يعرفون كل المعرفة ما يجب ان يعملوه .. وربما أصابنا بعض الرذاذ فحسب !

وبينما كانا يتبادلان هذه الكلمات ، كانت الموجة تقترب بسرعة كبيرة ، وقد سمع لها هدير كهدير بحر غاضب . ورأى ايزارت أمواجا أكبر بكثير مما كان يتصور ، فلم يرتح الى منظرها . وشد حزامه حول خصره ، حتى لا ينزلق سرواله (بنطلونه) القصير اذا تأرجح الزورق ..

ولم تكد تنقضى لحظة ، حتى داهمتهم الموجة .. كانت أشبه بجدار ضخم من الماء ، لاح انه يرتفع شامخا فوقهم .. ولعل ارتفاعه كان يبلغ عشر أقدام او اثنتى عشرة قدما ، ولكنك لم تكن تستطيع قياسه الا بالنسبة الى فزعك ! .. وتبدى بجلاء أنه لا سبيل لاى زورق الى أن يقاوم هذا الطوفان الجارف !

واندفعت الموجة الاولى فغمرتهم واغرقتهم جميعا ، وملأت نصف الزورق بالماء .. وجاءت الموجة الثانية فى أعقاب الاولى مباشرة ، فلطمتهم ! .. واخذ البحارة يصرخون ويحركون المجاديف بجنون . وصاح مراقب الدفة مصدرا أمرا ، غير

أن البحارة كانوا عاجزين فى وسط هذا السيل الطاغى ، وكان من المفزع لهم حقا ان يروا كيف كانوا يفقدون بسرعة كل سيطرة على الزورق .. فقد حولت قوة المياه اتجاه الزورق ، فأصبح فى وضع مستعرض فى النهر ، ثم حملته معها على قمة الموجه .. واقتربت موجه ضخمه أخرى ، ثم اندفعت نحوهم بقوة ، فغمرتهم . وبدأ الزورق يغرق ، فخرج « ايزارت » و « كامبيون » من تحت اسقيفه ، حيث كانا مستلقيين ، وقد شعرا ــ على حين غرة ــ بأن الزورق راح يميد تحت اقدامهما ..

ووجدا نفسيهما يصارعان المياه ، وهى تحيط بهما وتدفعهما بقوة . وكان أول خاطر تبادر لذهن « ايزارت » هو أن يسبح فى اتجاه الشاطىء ، ولكن خادمه « حسن » صاح به وناشده أن يتشبث بالقارب .. وحذا الجميع حذوه .

وصاح كامبيون ، يسأل ايزارت : « أانت بخير ؟ »

فأجابه ايزارت قائلا : « أجل ، وها أنذا انعم بالاستحمام! »

***

وظن أن اضطراب الماء سينقطع ــ بعد أن مرت موجة المد سارية فى النهر ــ وأنهم لن يلبثوا بعد بضع دقائق أن يخرجوا مرة اخرى الى مياه هادئة . وقد نسى أنهم كانوا ــ فى الواقع ــ محمولين على قمة موجة المد الكبرى ، وقد أخذت الامواج ــ التى اثارها اندفاعها ــ تتدافع نحوهم ، وتهاجمهم بعنف . فتشبثوا بحافة الزورق ، وبالقاعدة التى كانت السقيفة تقوم عليها . ثم مرت موجة أكبر ، فضربت القارب بقوة جعلته ينقلب ويهوى فوقهم . وافلتت قبضاتهم ما كانوا يتشبثون به ، فراحوا يتخبطون .. وبدا لهم أنه لم يعد أمامهم غير قاع الزورق المقلوب يستطيعون التعلق به ، ولكنه كان أملس ، وكأنه مطلى بالشحم ! .. وقد حاول « ايزارت »

عبثا ان يتشبث به ، ولكن يديه كانتا تنزلقان عن هذاالسطح الاملس ..

واستمر القارب ينقلب على كل جانب ، فأمسك ايزارت بحافته باستماتة .. ولكنه شعر به ينزلق من قبضته. واخيراً نجح فى التعلق بالسقيفة . ومضى الزورق فى تقلبه ، وهو يدور ببطء .. وحاول مرة اخرى ان يمسك بأسفله ، ولكنه كان يدور بانتظام رهيب ! .. **وظن أن السبب فى هذا راجع الى أن الجميع كانوا يتعلقون بجانب واحد منه ، فحاول ان يحمل البحارة على الانتقال الى الجانب الاخر ، ولكنه لم يستطع أن يحملهم على فهم الموقف ، فكان كل واحد منهم يصرخ ، وكانت الامواج تنقض عليهم فى زئير رهيب مرعب!..** وكلما انقلب الزورق فوقهم ، كان ايزارت يندفع الى جوف الماء ، ولا يرتفع الا عندما تتيح له حافة الزورق وسقيفته فرصة التشبث بأى منهما ..

كان نضالا رهيبا ! .. وكادت أنفاسه تنقطع ، وشعر بأن قواه أخذت تخور .. وكان يعرف انه لم يكن يستطيع الصمود طويلا ، ولكنه مع هذا لم يشعر بخوف ولا جزع ، اذ أن التعب كان قد بلغ منه مبلغا لم يعد معه يهتم بمايحدث!

وكان « حسن » بجانبه ، فما لبث ايزارت ان ابلغه ان التعب قد برح به ، وانه كان يرى ان خير مايمكن عمله هو الاندفاع نحو الشاطىء ، اذ انه لم يكن يبدو بعيدا بأكثر من ستين ياردة . ولكن حسنا ناشده ألا يفعل ذلك .. وكانوا لايزالون محمولين على هذه الامواج الصاخبة العارمة .. **وظل الزورق يدور ويدور ، وهم يتخبطون فوقه ، وكأنهم سناجب فى قفص ! .. وابتلع « ايزارت » كمية كبيرة من الماء ، وشعر بأنه اوشك أن يهلك !**

ولم يكن فى مقدور « حسن » ان يقدم له اية مساعدة ،

ولكن وجوده كان مدعاة لاطمئنانه . فقد كان ايزارت يعرف ان هذا الفتى قد ألف الماءطوال حياته ، وانه لهذا كان سباحا قويا .

وشعر ايزارت - لدقيقة او دقيقتين - ان قاع الزورق ظل الى اسفل ، فلم يدر سبب هذا ، ولكنه تمكن - فى هذه الحالة - من التشبث بحافة الزورق . ويالهامن لحظة عظيمة ، استطاع فيها ان يتنفس ! .. وشاهد عندئذ قاربين صغيرين يقلان بعض اهل الملايو . وكانا محمولين على هذه الامواج ، وقد مرا كلمح البرق ، فصاح ركاب زورق ايزارت يطلبون النجدة ، ولكن الملايويين اشاحوا بوجوههم ومضوا فى طريقهم .. **ولقد رأوا الرجلين الابيضين ولكنهم لم يشاءوا أن يزجوا بأنفسهم فيما قد يعود عليهم بمتاعب .. وكان من المؤلم حقا أن يريا هؤلاء الناس يمرون بهما ويتركونهما دون أن يهتما بسلامتهما !**

وعلى حين فجأة ، عاد الزورق يدور ، ويدور ، ويدور ببطء .. وعاد الزحف ، والافلات ، والتسلق ، تتكرر فى ارهاق وضنى مؤلمين .. ولكن الفترة القصيرة التى كان ايزارت قد قضاها متشبثا بحافة القارب - دون كفاح - ساعدته كثيراً ، واطالت من فترة نضاله الجديد .. وشعر - مرة اخرى - بأن انفاسه تتقطع ، واحس بصدره يكاد ينفجر .. ونفدت قواه ، ولم يعد يدرى ما اذا كان قد بقى منها مايمكنه

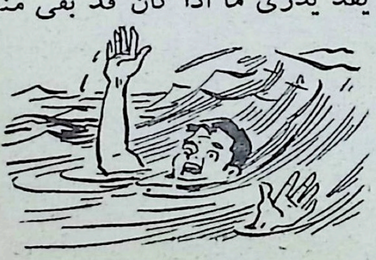

من السباحة الى الشاطىء ..

وعلى حين غرة ، سمع صرخة .. وتبين صوت كامبيون يصيح قائلا : « ايزارت ! النجدة ! .. النجدة ! »

وكانت صرخة ألهبت أعصاب ايزارت .. واخذ يردد في نفسه : « كامبيون ! .. كامبيون ! » .. وماذا يهمه من أمر كامبيون ؟ ! .. **واستولى عليه الخوف .. خوف حيواني اعمى ، أشاع فيه قوة جديدة . واذا هو لايجيب النداء والاستصراخ ، وانما قال لحسن : « ساعدني ! انقذني ! .. أسرع ! أسرع ! »**

وفهم حسن جلية أمره في الحال .. وبمعجزة ما ، ظهر احد المجاديف باقرب منهما ، فأمسك به حسن ، ودفع به الى « ايزارت » . ثم وضع يده تحت ذراع « ايزارت » ، وابتعدا عن الزورق .. وكان قلب « ايزارت » يدق بعنف . وانفاسه تنبعث بعناء . واحس بضعف بالغ .. وأخذت الموجات تلطمه في وجهه .. وبدا الشاطىء وكأنه على بعد سحيق ، فلم يخالجه رجاء في ان يستطيع الوصول اليه ..

وفجأة ، صاح الخادم قائلا انه استطاع ان يلمس قاع النهر. مبشرا بأنهما بلغا بقعة ضحلة ، فأنزل ايزارت ساقيه ، ولكنه لم يشعر بشيء تحته .. وتحول يسبح ويضرب الماء بذراعيه بضع ضربات واهنة ، وعيناه مركزتان لاتتحولان عن الشاطىء . وعاد يجرب حظه مرة اخرى، فأنزل ساقيه ومدهما في الماء. واذ ذاك شعر بقدميه تغوصان في طمي كثيف . وامتلأ قلبه فرحا وحمدا . **وأخذ يتقدم ويخوض الماء متخبطا ، واذا الشاطىء على قيد ذراع منه . وغاصت ساقاه في الطمي الى ركبتيه . فناضل مستيئسا لكي يخرج من هذه المياه القاسية .**

واخيرا ، وجد امامه بقعة مسطحة من الارض ، مكسوة بحشائش طويلة ، فارتمى وحسن عليها .. واستلقيا برهة بلا

حراك ، وكأنهما ميتان ، وقد كساهما الطمى الاسود من قمتى رأسيهما الى ادنى اقدامهما !

* * *

ولكن عقل ايزارت لم يلبث أن بدأ يعمل من جديد . واذا بوخز أسى مفاجىء يهز كيانه .. لقد غرق « كامبيون » ! يا له من أمر مروع!..ولم يدر كيف سيتسنى له أن يشرح هذه النكبة عندما يعود الى (كوالا سولور) .. لسوف يوجه اليه اللوم ، اذ كان ينبغى له أن ينتبه الى موجة المد ، والمويجات التى تثيرها ، فيأمر قائد الدفة بأن يحول الزورق الى الشاطىء عندما رأى هذه الموجات مقبلة .. **ولكن ذلك لم يكن خطأه ، وانما كان خطأ قائد الدفة الذى كان يعرف النهر خير معرفة . فلماذا ـ بحق السماء ـ لم يخطر له أن يخرج الى بر الامان ؟ .. وكيف كان بوسعه أن يتوقع أنه فى الامكان امتطاء هذا السيل العرم ؟ !**

واخذت ركبتا « ايزارت » ترتجفان عندما تذكر جدار المياه الضخم الذى داهمهم . ورأى لزاما عليه أن يعثر على الجثة ، وأن يأخذها الى (كوالا سولور) .. ولم يكن يدرى ما اذا كان أحد من البحارة قد غرق كذلك .. وبلغ من ضعفه أنه لم يستطع حراكا ، ولكن حسنا كان قد قام ونفض الماء عن « الساورنج » ، واخذ ينظر الى النهر ، ثم تحول بسرعة الى ايزارت وقال :

ـ سيدى .. هناك قارب يقترب !

ولكن الحشائش الطويلة حالت دون أن يرى ايزارت شيئا. فاكتفى بأن قال لحسن : « نادهم ! »

وغاب حسن عن النظر واتجه نحو جذع شجرة كانت تميل على الماء ، فتسلقه ، واخذ يصيح ويلوح بيديه . وما لبث « ايزارت » أن سمع ـ فى النهاية ـ أصواتا .. كانت أصوات

حديث سريع بين الخادم وركاب القارب ، ثم عاد حسن فقال لايزارت :

- لقد شاهدونا عندما انقلب الزورق بنا ، فعادوا الينا حالما مرت موجة المد .. انهم يقولون ان هناك بيتا طويلا على الجانب الآخر ، فاذا عبرنا النهر معهم قدموا لك ((السارونج)) والغذاء .. ويمكننا أيضا أن ننام هناك !

على أن ايزارت شعر - لبرهة - بأنه لم يعد يستطيع أن يطمئن على نفسه مرة أخرى ، وسط هذه المياه الغادرة . وأخيرا سأل الخادم :

- وما أمر السيد الابيض الآخر ؟

- انهم لا يعرفون عنه شيئا

- اذا كان قد غرق ، فعليهم أن يبحثوا عن جثته !

- هناك قارب آخر خرج الى عرض النهر

ولم يعرف ايزارت ماكان ينبغى ان يفعل ، فقد كان مشتت الحس والحركة . ووضع حسن ذراعه تحت أبطه ورفعه وأوقفه على قدميه . ثم سعى به وسط الحشائش الكثيفة ، متجها الى حافة الماء . وهناك ، رأى ((ايزارت)) القارب الصغير الذى كان يستقله اثنان من ((الدياك)) . وكان النهر قد عاد الى هدوئه ، بعد أن مرت الموجة الكبرى . وما كان لانسان أن يتصور ان هذا السطح الهادىء كان منذ لحظات اشبه ببحر مصطخب !

وأعاد الرجلان ((الدياك)) على مسمع ((ايزارت)) ماقالاه للخادم حسن .. ولم يكن فى ميسور ايزارت ان يحمل نفسه على الكلام ، اذ كان يشعر بأنه لن يتمالك أن يجهش بالبكاء ، اذا هو حاول ان ينبس بكلمة واحدة !

وساعده حسن فى الصعود الى القارب ، فأخذ الوطنيان يجدفان . وشعر ايزارت بأنه فى أشد الحاجة الى مايدخنه،

ولكن سجايره وعلبة الثقاب كانت مبتلة فى جيبه .. وخيل اليه أن طريق عبور النهر لايكاد ينتهى ! .. وكان الليل قد حل ، فلما وصلوا الى الضفة الاخرى ، كانت النجوم المبكرة تشع فى السماء . ونزل « أيزارت » الى الشاطىء ، فأخذه أحد الرجلين « الدياك » وذهب به الى المنزل الطويل . أما حسن ، فاخذ المجداف الذى تركه الرجل ، وانطلق بالقارب - بمعونة الرجل الآخر - الى عرض النهر .

* * *

وجاء رجلان أو ثلاثة رجال وبعض الاطفال لاستقبال « أيزارت » . وما لبث أن تسلق صاعدا الى المنزل ، وسط اصوات مختلطة انطلقت بالحديث فى آن واحد ، فكأنه كان فى برج بابل . حتى اذا تسلق السلم ، أقتيد - وسط ايات الترحيب والتعليقات المثيرة - الى المكان الذى كان شبان القرية ينامون فيه عادة . وفرشت الحصائر المصنوعة من الخيزران بسرعة ، فأعد منها فراش أنقى « ايزارت » بنفسه عليه .

وأحضر له أحد الموجودين دنا من العرق ، فشرب جرعة كبيرة ، نزلت فى جوفه وكأنها لهب من نار ، بعد أن كوت حنجرته . ولكنها مالبثت ان بعثت الحرارة فى قلبه . ثم خلع ملابسه ، وارتدى « السارونج » الذى قدمه له أحد الحضور ولمح - بمحض المصادفة - القمر الاصفر اللون ، وقد بزغ على شكل هلال ارتكز على ظهره ، فبعث مرآه الغبطة والسرور فى نفسه .. ولم يتمالك أن يفكر فى أنه كان من المحتمل أن يكون الآن جثة طافية على النهر ، يسحبها المد معه !..وخيل اليه أن القمر لم يبد له يوما بمثل الجمال الذى تراءى له اذ ذاك !

وبدأ يحس بالجوع ، فذهبت احدى النسوة الى الغرفة لتعد له الارز . وكان قد تمالك نفسه فى تلك الاثناء ، وشرع يفكر

من جديد فى الايضاحات التى سيقدمها فى (كوالا سولور) .. ورأى انه لم يكن لأى انسان أن يلومه لانه نام فى القارب .. ولسوف يؤكد لاولى الامر انه لم يكن مخمورا ، ولن يتردد هتشينسون فى أن يظاهره على ذلك ! .. ثم ، كيف كان له ان يتصور أن يكون قائد الدفة بمثل هذا الغباء ؟! .. ان المسألة كلها كانت مجرد سوء حظ !

ومع ذلك فانه لم يكن يستطيع التفكير فى ((كامبيون)) دون أن يشعر برجفة !

وأخيرا ، قدم اليه طبق من الارز . وبينما كان يهم بتناوله دخل رجل مهرولا ، وهو يصيح قائلا : « لقد حضر السيد الابيض ! » .. فأمسك ايزارت عن الطعام ، وهتف مأخوذا : « أى سيد ؟! »

وقفز واقفا .. وسمع هرجا عند المدخل ، فخطا نحوه . وبرز حسن من الظلام مهرولا صوبه . وعندئذ سمع صوتا يقول :

– ايزارت ! .. أأنت هنا ؟

ذلك كان صوت « كامبيون » ، الذى تقدم منه وهو يقول :

– حسنا ! .. هانحن قد اجتمعنا مرة أخرى . لقد كان منظرا جميلا ، والله .. أليس كذلك ؟ .. الظاهر أنك قد استرحت واستردت جأشك وهدوءك .. وهذا ما سوف تفعله بعد جرعة من الشراب !

وكانت ملابسه المبتلة ملتصقة بجسمه .. كما كان ملطخا بالطمى ، مشعث الهيأة . ولكنه كان فى خير حالاته النفسية ! .. وعاد يقول :

– لم أكن أعلم الى أى مكان كانوا يقودوننى .. وكنت قد رضت نفسى على أننى قد أضطر الى أن أمضى الليل على ضفة

النهر .. وقد ظننت أنك غرقت !

فقال له ايزارت : « هاك بعض العرق ! »

ووضع كامبيون شفتيه على الدن وشرب . ثم غص حلقه، فأخذ يدمدم لحظة ، عاود بعدها الشرب . ثم قال : « يالهمن شراب قذر ، ولكن ماأشد مفعوله ! »

ونظر الى ايزارت فى ابتسامة ساخرة كشفت عن أسنانه المهشمة ، الحائلة اللون ، وقال :

- يبدو لى أيها العزيز أن الاستحمام قد يفيدك وينعشك!

- سأستحم فيما بعد !

- حسنا ! .. وكذلك سأفعل أنا الاخر ، فأرجو ان تطلب منهم احضار ((سارونج)) لى ! .. ولكن كيف قدر لك ان تنجو من النهر ؟

ولم ينتظر جوابا ، وانما مضى فى حديثه قائلا :

- لقد ظننت أننى انتهيت ، ولكنى مدين بحياتى الى هذين الشهمين !

وأشار الى اثنين من المسجونين « الدياك » ، تبين ايزارت نهما كاناضمن بحارة الزورق.. واستطرد كامبيون فى حديثه:

- كانامعلقين على ذلك القارب المنكود،كل منهماالى أحدجانبى القارب . ولم يكن فى ميسورى اذ ذاك ان اصمد دقيقةاخرى، فأشارا الى . وفهمت أنهما ارادا أن يقولا انه كان فى امكاننا

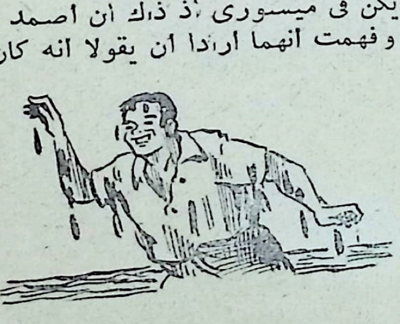

أن نجازف فنحاول الوصول الى الضفة ، ولكنني لم أكن اعتقد ان لدى القوة الكافية ، فما شعرت فى حياتى قط بمثل هذا الضعف . ولست أدرى كيف دبرا مافعلا ، وانما الذى أدريه هو انهما حصلا ـ بطريقة ما ـ على الحصيرة التى كنا مستلقيين عليها ، وعمدا الى لفها فجعلا منها عمودا .. والحق أنهما شهمان ، فلست أدرى لم لم ينجوا بنفسيهما دون ان يشغلا بأمرى ؟ ! .. ولكنهما أعطيانى الحصيرة ، فخيل الى انها حزام انقاذ ضعيف لايصلح .. غير أننى رأيت بعينى صدق الحصيرة فعلا ، بينما أحاط بى الرجلان ، وأخذ يجرانني الى الشاطىء بكل حيلة وسعتهما ! فلقد تشبثت المثل القائل بأن الغريق يتشبث بأية قشة !

* * *

وكان الخطر الذى نجا منه « كامبيون » قد أشاع فيه انفعالا ، وأطلق لسانه بالثرثرة . ولكن « ايزارت » لم يكن يصغى الى مايقول ، وانما هيأ له خياله أنه كان يسمع من جديد ، تلك الاستغاثة الحافلة بالذعر والهلع ، التى أطلقها كامبيون مستنجدا ، وهما فى النهر .. وكان الصوت واضحا ، وكأنه لايزال يدوى فى الفضاء المحيط به ، فشعر « ايزارت » بالرعب ، ودب الفزع الأعمى فى جميع أوصاله ! .. وكان كامبيون لايزال ماضيا فى الحديث ، فساءل ايزارت نفسه : أتراه كان يتحدث ليخفى حقيقة ماكان يجول بأفكاره ؟ ..

وتطلع الى العينين الزرقاوين محاولا ان يقرأ المعانى المستترة وراء هذا السيل المتدفق من الكلام .. وأخذ يسائل نفسه : أفكان فى العينين وميض قاس ، أم كان فيها شىء من السخرية اللاذعة ؟ .. وهل كان « كامبيون » يعرف أن « ايزارت » قد هرب منه ، وتخلى عنه ، وتركه يلاقى مصيره وحيدا ؟

وتضرج وجهه ، ولكنه حاول أن يقنع نفسه بأنه لم يكن

بوسعه أن يفعل شيئا ما . ففى لحظة كهذه ، لا يفكر الانسان الا فى نفسه ، وليأخذ الشيطان الآخرين ! .. ولكن ما الذى سيقوله المسئولون فى (كوالا سولور) ، اذا ابلغهم كامبيون ان ايزارت هجره ؟ ! .. لقد كان من واجبه أن يبقى ، وقد اصبح يود من صميم قلبه او انه كان قد بقى .. ولكن حكم الظروف – اذ ذاك – كان أقوى من نفسه ، فلم يستطع ابقاء .. فهل يلومه أحد ؟!.. لايمكن لاى شخص رأى هذا السيل العرم المخيف ، أن يلومه !

وقال لكامبيون : « اذا كنت جوعانا مثلى ، فمن الخير ان تشاركنى هذا الارز ! »

واكل كامبيون بنهم ، اما ايزارت فانه لم يلبث – بعد ان ملأ فمه مرة او مرتين – أن تبين أن شهيته للأكل قد ولت .. وكان كامبيون يواصل الحديث ، فأخذ ايزارت يصغى فى شك .. وشعر بأنه يجب أن يكون يقظا متنبهـا ، فشرب المزيد من العرق . وبدأ يشعر بأنه مخمور قليلا .

ولم يلبث ايزارت ان قال : « اسوف أتعرض لضجة معينة عندما نصل الى كوالا سواور ؟ » .. فقال كامبيون : « لست ادرى ما الذى يجعلك تتوقع هذا ! »

– لقد كلفت بأن أعنى بك وأرعاك ، ولن يرى المسئولون انها كانت براعة منى أن أعرضك لان توشك على الغرق .

– لم يكن ذلك خطأك ، وانما هو خطأ قائد الدفة المغفل للعين .. ثم ان أهم مافى الامر – مع ذلك – هو اننا نجونا .. يا الهى ! .. لقد ظننت مرة أننى هالكت ، فصرخت أناديك .. ولست أدرى ما اذا كنت قد سمعتنى أم لا !

– لا . لم أسمع شيئا ، فقد كانت هناك ضجة كبيرة .. أليس كذلك ؟

– أعلك كنت قد تمكنت من الافلات قبل ذلك .. فلست

اعرف متى قدر لك أن تفلت !

وتطلع اليه ايزارت بحدة. وخيل اليه أن فى عينى «كامبيون» نظرة غريبه ، فقال : « لقد كان ثمه ارتباك شديد .. ورحت اغوص واطفو . ثم ألقى خادمى بمجداف الى ، واوحى الى بأنك كنت على مايرام .. بل قال لى انك خرجت الى الشاطىء؟»

وامسك « ايزارت » عن الكلام ، وقد فطن الى أمر المجداف ؟ ! .. كان من الواجب عليه أن يعطى المجداف لكامبيون ، وأن يطلب الى حسن — وهو أسباح القوى — أن يقدم له المساعدة ! .. ولكن ، اكان الوهم هو الذى اوحى اليه مره اخرى أن كامبيون كان يلقى عليه نظرة سريعه فاحصة ، وهو يتكلم ؟

وقال ايزارت : « وددت لو اننى كنت أكثر نفعا لك ! »

— آه ، اننى موقن من انك كنت فى موقف لايتيح لك سوى العناية بنفسك !

* * *

وأحضر الزعيم اليهما كؤوس العرق ، فشربا معا قدرا كبيرا . وبدأ راس ايزارت يدور ، فاقترح ان يذهبا للنوم . وكان ثمه فراشان قد اعدا لهما ، وبسطت فوقهما كلتان ..

وكان لابد لهما من ان يقلعا مع الفجر ، ليستكملا رحلتهما النهرية .. وكان فراش كامبيون مجاورا لفراش ايزارت ، فان هى الا دقائق معدودات ، حتى سمع هذا غطيط الاول ، اذ استغرق فى النوم منذ اللحظة التى استلقى فيها على فراشه! .. فى حين راح شباب المنزل الطويل ، والسجناء — ملاحو الزورق — يقضون شطرا طويلا من ليلهم فى السمر .

وشعر « ايزارت » بألم فظيع فى راسه ، ولم يستطع ان يفكر فى امره ! .. وعندما أيقظه حسن مع بزوغ الفجر ، خيل اليه انه لم ينم .. وكانت ملابسهما قد غسلت وجفت ، ومع

ذلك فقد كانا فى مظهر رث مزر ، عندما سارا فى الطريق الضيق المؤدى الى النهر ، حيث كان الزورق فى انتظارهما ..

وسرعان ما اقلع بهما الزورق يتهادى .. وكان الصباح جميلا ، وتلك المساحة الممتدة امامهما من الماء الهادىء ،تلمع تحت ضوء البكور .. فهتف كامبيون : « يا الهى ، ما اجمل ان يكون المرء على قيد الحياة ! »

وكان مشعثا ، نامى اللحية .. وراح يعب الهواء فى أنفاس طويلة ، وقد انفرج فمه بعض الشىء ، حتى لتستطيع أن تدرك من منظره أنه كان يجد فى استنشاق الهواء لذة صافية، ومن ثم فقد راح يستنشقه فى نهم وقوة ليملأ به رئتيه ،وقد بدا مبتهجا بمنظر السماء الزرقاء ، واشعة الشمس الوضاحة، وخضرة الاشجار اليانعة !

وشعر ((ايزارت)) نحوه بحقد ، اذ داخله يقين بأن خلقه كان ــ فى هذا الصباح ــ مغايرا لما كان عليه من قبل . ولم يكن ((ايزارت)) يدرى ما ينبغى عليه أن يفعل ! .. وتمنى لو انه استطاع أن يلوذ برحمة كامبيون ! .. لقد سلك سلكا خسيسا مزريا ، ولكنه ندم على ذلك ، وبات على استعداد لان يجود بكل شىء فى سبيل أن تتاح له فرصة جديدة ! .. ومع ان أى امرىء غيره ماكان ليفعل سوى مافعل هو ، الا انه ايقن من أن « كامبيون » خليق بأن يقضى عليه قضاء مبرما ، لو انه كشف عما حدث منه ! .. **انه ــ اذ ذاك لن يستطيع البقاء فى (سمبوا) ، وسيغدو أسمه ملطخا بالوحل فى (بورنيو) ومستعمرات المضايق . انه لو اعترف لكامبيون، لكان بوسعه ــ يقينا ــ ان يحصل منه على وعد بان يعقل لسانه . ولكن .. أترى كامبيون يبر بالوعد حقا ؟ ! ..**

وأخذ يتأمله : لقد كان رجلا ضئيل الجسم ، مراوغا ، متقلبا ، فكيف يركن اليه ؟ . وفكر « ايزارت » فيما قاله

« كامبيون » فى الليلة السابقة .. انه لم يقل الحقيقة فى الواقع ، ولكن منذا الذى يستطيع ان يعرف ذلك ؟ .. او ، منذا الذى يستطيع ـ على اية حال ـ ان يثبت انه لم يكن يعتقد ـ مخلصا ، صادقا ـ ان كامبيون كان قد نجا وصار فى مأمن ؟ ..

ومهما يقل كامبيون فلن يكون هناك غير كلامه ليعارض كلام « ايزارت » ، وفى امكان هذا ان يضحك من اقوال كامبيون ، وان يهز كتفيه ، وان يقول أن كامبيون قد فقد صوابه ، فلم يكن يدرى عم يتكلم ! .. ثم انه ـ فوق هذا ـ لم يكن موقنا من ان كامبيون لم يصدق روايته ، فما عاد ـ فى هذا الصراع الرهيب فى سبيل الحياة ـ يملك ان يوقن من شىء ! .. وكان يشعر برغبة قوية تغريه بالعودة الى الموضوع ، ولكنه خشى أن يثير شك كامبيون ، اذا هو فعل ذلك . ومن ثم فقد كان من الواجب عليه أن يحفظ لسانه ، فقد كانت فى ذلك فرصته الوحيدة للنجاة .. حتى اذا عاد الى « كوالا سولور » ، حرص على ان يكون هو البادىء برواية القصة !

وقال كامبيون : « لو اننى وجدت شيئا ادخنه ، لاكتملت سعادتى الآن ! »

ـ سنستطيع ان نجد بعض السجاير الرديئة ، على ظهر السفينة

ـ ياللبشر من مخلوقات جائرة !.. لقد فرحت ـ فى بادىء الامر ـ لاننى على قيد الحياة ، فلم أفكر عندئذ فى شىء آخر . ولكنى بدأت الآن آسف على ضياع نقودى وصورى وادوات الحلاقة !

وضاع ايزارت الفكرة التى كانت تقبع فى مؤخر راسه ولكنه ظل ـ طيلة الليلة السالفة ـ يأبى السماح لها بالتسرب الى عقله الواعى .. فاذا بها تتخذ هذا الشكل :

« وودت من الله لو أنه كان قد غرق ، فكنت ـ اذ ذاك ـ اغدو فى أمن وسلامة ؟ !

* * *

وصاح كامبيون فجأة : « هاهى ذى ! »

فنظر ايزارت حوله .. كان القارب قد بلغ مصب النهر . ورأى الباخرة « السلطان أحمد » تنتظرهما ، فغاص قلبه عندما تذكر ما كان قد نسيه من أن لهذه السفينة ربانا انجليزيا ، وأنه لابد من أن يعرف قصة مغامرتهما . فما الذى سيقوله كامبيون له ؟

وكان ربان السفينة يدعى « بريدون » ، وقد اعتاد « ايزارت » أن يلتقى به كثيرا فى (كوالا سولور) . وكان رجلا صريحا ، خفيف الروح ، ذا شاربين أسودين . واذ رأى القارب ، صاح بهم يحثهم على سرعة التجديف ، وهو يقول : « هيا .. أسرعوا ، فاننى فى انتظاركم منذ الفجر ! »

ولكنه بهت لمنظر صاحبينا حين صعدا الى ظهر السفينة ، فقال . « عجبا .. ماالذى أصابكما ؟ »

فقال كامبيون وهو يبتسم ابتسامته الماكرة : « أعطنا شرابا ، وسوف تسمع كل شىء ! »

فهتف الربان مشوقا : « هيا .. تعاليا ! »

وجلسوا تحت المظلة ، وعلى المائدة زجاجة ويسكى وزجاجات

الصودا . واصدر الربان امرا ، فان هى الا بضع دقائق حتى اقلعت السفينة ، وانبعث ضجيج محركاتها .

وشعر « ايزارت » بأن عليه أن يقول شيئا . وكان فمه جافا الى حد فظيع ، برغم الشراب الذى احتساه .. وقال أخيرا : « لقد داهمتنا موجة المد ! »

ــ يا الهى هل حدث هذا حقا ؟.. انكما لسعيدا الحظ لانكما لم تغرقا . فماذا حدث ؟

وكان يوجه الخطاب الى « ايزارت » لانه كان يعرفه . ولكن كامبيون هو الذى تولى الرد ، بينما ظل ايزارت يصغى فى انتباه ! ..

وتحدث كامبيون ــ بضمير الجمع ــ عندما روى الجزء الاول من القصة . ولكنه مالبث ان استخدم ضمير الفرد عندما وصل فى حديثه الى اللحظة التى سقطوا فيها الى الماء .. وبعد ان كان يتحدث عما « كنا نفعله » ، أصبح يتحدث عما « جرى لى » ، مغفلا « ايزارت » فى هذا الجزء من القصة **.. ولم يدر ايزارت أيرتاح الى هذا أم ينزعج ؟ .. لماذا لم يكن يشير اليه بشىء ؟ .. أذاك لانه لم يكن يفكر فى شىء غير نفسه ، خلال ذاك النضال المميت فى سبيل الحياة ؟ أو .. أتراه كان يعرف ؟ ! .. يعرف ماكان من مسلك « ايزارت » فعلا !**

وتحول الربان « بريدون » الى « أيزارت » ــ بعد دلك ــ فسأله : « وماذا حدث لك انت ؟ »

وهم « ايزارت » بأن يجيب ، ولكن « كامبيون » سبقه الى الكلام قائلا :

« كنت انى وقت وصولى الى الجانب الآخر من النهر اعتقد انه غرق ! .. ولست اعرف كيف نجا ، بل انى لاعتقد انه هو نفسه لا يعرف كيف تسنى له هذا ! »

لماذا قال كامبيون ذلك ؟ .. ووقع نظره على عينى « كامبيون » فتأكد عندئذ من أن فيهما بريقا ينم عن طرب ! .. وكان من الفظيع حقا أن يجد نفسه غير واثق من أمر كامبيون .. واحس بالخوف .. وتولاه الخجل . واخذ يسائل نفسه : ترى هل بوسعه أن يقود دفة الحديث ـ سواء الآن او فيما بعد ـ بحيث يسأل كامبيون عما اذا كانت هذه هى عين القصة التى يعتزم ان يرويها فى (كوالا سولور) ؟ .. ذلك لانها كانت خالية من اى شىء يشيرظنون اى أحد .. **ولكن ، اذا لم يقدر لاحد أن يعرف الحقيقة ، فان ((كامبيون)) كان يعرفها ! .. لكم كان خليقا به ان يقتله !**

وقال الربان : « أعتقد أنكما سعيدا الحظ جدا ، لانكما مازلتما على قيد الحياة ! »

وكانت المسافة الى (كوالا سولور) قصيرة .. وبينما كانت السفينة تمخر مياه نهر (سمبونو) ، أخذ ايزارت يرقب الشاطئين فى كآبة وكمد ، وقد ظهرت على الجانبين الحشائش التى كانت المياه ترتطم بها .. ووراءها كانت ثمة غابة كثيفة خضراء ، وقد تناثرت بين أشجار الفاكهة بعض منازل أهل الملايو .

* * *

وحل الليل عندما ألقت السفينة مرساها . وصعد « جرنج » ـ مندوب البوليس ـ الى ظهر السفينة . فصافحهما . وكان يقيم فى « الاستراحة » الحكومية ـ التى كان مقررا أن ينزلا فيها ـ فى تلك الفترة . واذ شرع فى اداء مهمته وتفقد الركاب من أبناء البلاد ، انبأهما بأنهما كانا مقدمين على لقاء شخص آخر يدعى « بورتر » ، فى الاستراحة ، وانهم جميعا سيتقابلون فى وقت العشاء .

وأخذ الخدم يعنون بمتاعهما وينقلونه .. وسار « كامبيون »

و « ايزارت » الى الاستراحة ، فبادرا الى الاستحمام واستبدل ملابسهما . وفى الساعة الثامنة والنصف ، اجتمع الاربعة فى القاعة العامة لتناول بعض المشروبات !

وقال جورنج وهو يدخل : « ماهذا الذى أخبرنى به « بريدون » من انكما كنتما موشكين على الغرق ؟ »

فشعر ايزارت بأن وجهه قد تضرج .. وقبل أن يجيب بشىء انبرى كمبيون للكلام ، وقد بدا جليا لايزارت انه كان يبغى البدء بالكلام لكى يقدم القصة كما يروق له ! .. وشعر بخجل شديد ، فما من كلمة واحدة انطوت على استخفاف به .. بل ما من كلمة عنه اطلاقا ! .. وساءل نفسه : ألم ير هذان الرجلان اللذان كانا يصغيان — جورنج وبورتر — مايدعو الى الاستغراب ، لاقصائه عن القصة ، بهذا الشكل ؟ ! .. وراح يتفرس فى « كامبيون » وهو ماض فى سرد القصة .. كان يرويها بروح مرحة ، ولم يحاول اخفاء الخطر الذى كانا فيه ، وكنه جعل منه موضوع فكاهة وتندر ، حتى ان المستمعين ضحكا من هذا المأزق الذى وجدا نفسيهما فيه !

وقال كامبيون : « والامر الذى يضحكنى — منذ ذلك الحين — هو انى عندما خرجت الى الشاطىء الآخر ، كان الطمى يكسونى من رأسى الى أخمص قدمى . وشعرت بأن من الجدير بى حقا أن اقفز الى النهر لاغتسل ، ولكنى شعرت بأننى — كما تقرأننى — قد قضيت فى هذا النهر اللعين زمنا اطول مما أردت فى اى يوم من أيام حياتى . فقلت لنفسى : « لا بحق السماء ، سأظل متسخا ! » . **وعندما وصلت الى البيت الطويل ، ورأيت ايزارت فى الحال ذاتها ، أدركت أنه شعر بعين الشعور الذى خالجنى ! »**

فضحكوا ، وارغم « ايزارت » نفسه على الضحك . ولاحظ ان «كامبيون» روى القصة مستخدما عين الكلمات والتعبيرات

التى استخدمها عندما رواها لربان السفينة «السلطان أحمد». وادرك أنه لم يكن هناك غير تفسير واحد لهذا ، ذلك هو : ان كامبيون كان يعرف كل شىء ، وقد فكر ودبر القصة التى سيرويها ، حرفا بحرف ! .. وكان دهاء حسنا من «كامبيون» أن يتوخى الدقة فى سرد الوقائع ، وان كان قد أغفل كل شىء من شأنه أن يضير «ايزرت» . ولكن : لماذا كان يمسك يده عن أن يبطش به ؟ .. انه لم يكن من النوع الذى لايشعر بأى سخط أو كراهية نحو الشخص الذى هجره بقسوة فى لحظة الهلاك المريع !

وعلى حين غرة ، اومضت الفكرة فى راس ايزارت ، ففهم جلية الامر .. ان كامبيون كان يحتجز الحقيقه ليبلغها للمقيم «ويليس» ! .. وارتجف ايزارت عندما فكر فى مراجهة «ويليس» . صحيح أن بوسعه أن ينكر ، ولكن هل سينفعه الانكار ؟ .. ان ويليس لم يكن غبيا ، بل انه لن يلبث أن يسأل «حسنا» ، ولم يكن بوسع «ايزارت» الاطمئنان الى حسن .. فمن غير المرتقب أن يلتزم الصمت ، بل انه سيفضحه ، وهذا معناه هلاكه .. فسيقترح عليه «ويليس» ان يعود الى الوطن !

واصابه صداع شديد ، فأوى بعد العشاء الى غرفته ، اذ اراد أن يخلو الى نفسه ليتمكن من تدبير خطة للعمل .. وما لبث أن طرأ بباله خاطر أفزعه : فلقد أدرك ان السر الذى حافظ عليه طويلا ، لم يعد سرا .. لقد أصبح موقنا من هذا فجأة ! .. لماذا قدر له أن تكون له هاتان العينان الزرقاوان ، وهذا الجلد الاسمر ؟ .. لماذا يتكلم لغة الملايو بهذه السهولة ، ولماذا تعلم لغة «الدياك» بهذه السرعة ؟ .. انهم يعرفون ولا بد ! .. ماكان اغباه اذا كان قد فكر يوما فى أنهم قد صدقوا تلك القصة التى ابتكرها عن جدته الاسبانية ! .. لابد

انهم ضحكوا ملء أشداقهم عندما روى لهم هذه القصة ، ولعلهم كانوا يسمونه ـ من وراء ظهره ـ بالزنجي اللعين !

وطرأ له خاطر آخر عذبه ، فراح يسائل نفسه : **أبسبب هذه القطرة الملعونة من الدم الوطنى ـ التى تجرى فى عروقه ـ خانته أعصابه ، عندما صاح كامبيون يطلب النجدة ؟ ..** ان أى شخص قد يصاب بالهلع فى لحظة كتلك اللحظة التى خبرها ، على أية حال !.. ولم ، بحق السماء يضحى بحياته لينقذ حياة شخص آخر لا يهمه امره اطلاقا ؟ .. انه من الجنون أن يفعل هذا . ولكنهم ـ بطبيعة الحال ـ سيقولون فى (كوالا سولور) ان هذا ماكانوا يتوقعونه !

واخيرا ذهب الى الفراش ، ولكنه اخذ يتقلب فيه بقلق وتعب . وقضى على هذه الحال فترة لايعلم مداها الا الله ، ثم غلبه النعاس ـ أخيرا ـ فنام . ولكنه لم يلبث ان صحا مفزوعا بعد حلم رهيب . فقد تراءى له فى المنام انه اصبح ـ مرة أخرى ـ وسط تلك الموجات العاتية ، وان الزورق كان يدور ويدور .. وكان بعد ذلك التشبث المستيئس بقاع الزورق ، والحزن والالم عندما أفلت القاع من يديه ، بينما كان الماء يصطخب حوله وفوقه !

* * *

واستيقظ « ايزارت » قبيل الفجر .. كانت فرصته الوحيدة هى أن يرى « ويليس » ليكون السباق الى رواية قصته . وأخذ يفكر بعناية فيما يعتزم أن يقول ، ويختار الكلمات التى يريد ان يستخدمها بالنص !

وغادر فراشه مبكرا .. وبارح المنزل دون أن يتناول فطورا ما ، لكى يتجنب مقابلة ((كامبيون)) .. وسار فى الطريق العام . وظل يسير الى الوقت الذى كان يعرف أن المقيم يكون فيه فى مكتبه . واذ ذاك عاد أدراجه .. وأرسل اسمه ،

فسمح له بدخول مكتب « ويليس » .. وكان « ويليس » شيخا متقدما فى السن ، ذا شعر أشيب خفيف ، ووجه شاحب مستطيل . وقد بادر ايزارت وهو يصافحه : « اننى مسرور اذ أراك قد عدت سالما معافى .. ولكن ، ماهذا الذى سمعته من انكما كنتما على وشك الغرق ؟! »

وكان ايزارت بملابسه النظيفة يبدو فى مظهر الرجل الانيق، وقد نسق شعره الاسود بدقة ، وقص أطراف شاربيه بعناية . وكان يقف منتصب القامة فى مظهر عسكرى .. ورد على ويليس بقوله : **« لقد رأيت انه يحسن بى أن آتى فأبلغك الامر فورا ياسيدى ، لانك عهدت الى بان أرعى كامبيون ! »**

ـ هات ماعندك !

وروى ايزارت قصته ، فخفف من مدى الخطر الذى تعرضا له ، وحمل « ويليس » على أن يفهم ان ذلك الخطر لم يكن بالغا ، وانهما ماكانا يتعرضان لاى شىء ، لولا انهما شرعا فى الرحلة متأخرين !

ومضى ايزارت يقول : **« ولقد حاولت أن احث كامبيون على بدء الرحلة فى ساعة مبكرة ، ولكنه آثر أن يشرب كأسين او ثلاثا . والواقع انه لم يكن يبغى أن يتحرك ! »**

ـ هل كان محمورا ؟

ـ لا أعرف ، وان كنت لا أملك أن أقول أنه كان فى كامل وعيه !

ومضى يسرد قصته . وحاول ان يوحى بأن كامبيون كان قد فقد وعيه ـ بعض الشىء ـ تحت تأثير الخمر . وقال انها كانت مهمة فظيعة ـ فى الواقع ـ بالنسبة لشخص لم يكن يجيد السباحة ، وانه ـ أى ايزارت ـ كان اكثر اهتماما به من نفسه ، وقد عرف ان الفرصة الوحيدة هى فى الاحتفاظ

بالهدوء ورباطة الجأش . ولكنه ـ عندما وقعت الراقعة ـ رأى كامبيون يخور وينهار !

فقال المقيم : « لا تستطيع أن تلومه على هذا ! »

ـ لقد بذلت ، بطبيعة الحال ، كل مافى وسعى ياسيدى . غير اننى لم أكن أملك شيئا كثيرا من اجله !

ـ حسنا .. المهم هو أنكما نجوتما .. لو انه غرق ، لكان الامر جد محرج لنا !

ـ لقد رأيت أنه من الخير أن آتى فأبلغك جميع الحقائق قبل أن تقابل « كامبيون » ياسيدى ، لانه ـ كما تراءى لى ـ يميل الى المبالغة فى رواية القصة . ولكن .. ما من فائدة فى المبالغة !

فقال ويليس باسما : « ان روايتيكما تكادان أن تتطابقا فى مجموعهما ! »

فتفرس « ايزارت » فيه مأخوذا . واذ ذاك قال له ويليس:

ـ ألم تر « كامبيون » هذا الصباح ؟ .. لقد سمعت من « جورنج » انكما صادفتما بعض المتاعب ، فعرجت على الاستراحة بنفسى فى الليلة الماضية ـ وأنا فى طريقى الى ذرى من القلعة ـ بعد العشاء .. وكنت أنت قد ذهبت الى الفراش!

وشعر أيزارت برجفة تسرى فى جميع جسمه ، وقد بذل

جهدا كبيرا للمحافظة على تماسكه ، وقال ويليس :
ـ وعلى فكرة .. انك خرجت من الماء قبل كامبيون . اليس كذلك ؟

ـ لست ادرى ياسيدى فى الواقع ، فقد كان الارتباك بالغا !

ـ لابد أن تكون قد خرجت قبله ، مادمت قد ذهبت الى الجانب الاخر قبله !

ـ أظن اننى فعلت ذلك !

ونهض ويليس واقفا وهو يقول : « حسنا .. وشكرا لك اذ حضرت لانبائى بما حدث ! »

وكان قد تعمد ان يوقع بعض الكتب ـ وهو ينهض ـ فسقطت على الارض بصوت مرتفع ، مفاجىء .. فاذا بايزارت يجفل بعنف ويشهق . واذ ذاك ، رماه المقيم بنظرة سريعة ، وقال : « أرى أن اعصابك مضطربة للغاية ! »

ولم يستطع ايزارت السيطرة على الرجفة التى اصابته ، ودمدم يقول :

ـ اننى جد آسف يا سيدى !

ـ اظنك قد اصبت بصدمة ، ومن الخير أن ترتاح بضعة أيام ، وتذهب الى الطبيب ليعطيك شيئا من العلاج !

ـ اننى لم أنم جيداً فى الليلة الماضية !

فأومأ المقيم وكأنه فهم .. وغادر ايزارت الغرفة . وبينما هو سائر ، قابله شخص كان يعرفه ، وهنأه بنجاته . اذن فقد كان الجميع يعرفون ؟ ! ..

وعاد الى الاستراحة . واخذ ـ وهو متجه اليها ـ يعيد لنفسه القصة التى رواها ليويليس ، ويسائل نفسه : أكانت تشبه القصة التى سمعها المقيم من كامبيون حقا ؟ .. **ولم يكن قد خطر بباله قط أن يكون كامبيون قد سبقه لابلاغ القصة .. لكم كان غبيا اذ ذهب الى الفراش مبكرا ، وكان من**

الواجب ألا يدع ((كامبيون)) يغيب عن نظره ! .. ولكن لماذا أصغى اليه انسيم – في بدىء الامر – دون ان يبلغه انه عرف بالقصه فعلا ؟ .. واخذ يلقن نفسه لانه اوحى بأن كامبيون كان مخمورا فاقد الرشد .. لقد قال هذا ليحط من قدره ، ولكنه تبين الآن انه كان غبيا فى هذا .. ولماذا قال ويليس تلك العباره التى توحى بأنه خرج من الماء قبل كامبيون ؟ .. لعله كان يريد التحرى ، فقد كان ويليس ماكرا وداهيه !

ولكن ، ترى ما لدى قانه كامبيون ؟ .. يجب أن يعرف ذلك ، ويجب أن يعرفه بأية وسيلة ، ومهما يكن الثمن !

وكان رأس ((ايزارت)) يغلى ويفور ، حتى انه شعر بأنه لم يكن يستطيع السيطرة على انكاره . ولكن الواجب كان يقتضيه أن يلتزم الهدوء ! .. وشعر بأنه اشبه بحيوان مطارد . فما كان يصدق أن ويليس يحبه ، اذ انه سبق أن وبخه فى المكتب – مرة أو مرتين – لاهماله .. ولعله لم يكن ينتظر الا ريثما يجمع المعلومات والحقائق .. وكاد ايزارت أن يجن !

* * *

ودخل الى الاستراحة فوجد كامبيون يجلس فى مقعد طويل ، باسطا ساقية ، وهو يقرأ الصحف التى وصلت خلال فترة غيابهما فى الادغال . وشعر ايزارت بموجة من الكراهية العمياء تطغى عليه ، عندما تفرس فى هذا الرجل الضئيل ، الرث ، الذى كان يقبض عليه فى فراغ كفه !

وعندما رآه كامبيون صاح مرحبا : ((هالو .. اين كنت ؟))

وخيل لايزارت انه راى فى عينيه نظرة تطفح بسخرية لاذعة ، فشد قبضتى يديه ، وأخذ تنفسه يزداد سرعة وتهدجا .. وسأل كامبيون بحدة : ((ماالذى قلته لويليس عنى ؟))

وكانت اللهجة التى ألقى بها هذا السؤال المفاجىء حادة الى درجة جعلت كامبيون ينظر اليه فى دهشة ويقول : « ما أرانى قد قلت شيئا كثيرا عنك .. ولكن ، لماذا تسألنى ؟ »

– لقد أتى الى هنا فى الليلة الماضية ..

وكان « ايزارت » ينظر اليه وقد ضم حاجبيه فى غضب . واخذ يحاول قراءة افكار كامبيون ، الذى قال :

– لقد ابلغته انك كنت تشعر بصداع فذهبت الى الفراش .. وكان يريد أن يعرف ما حدث لنا !

– لقد رأيته منذ برهة !

وأخذ « ايزارت » يسير روأحا وجيئة ، فى الغرفة الكبيرة الظليلة . فمع ان الوقت كان مبكرا ، الا ان الشمس كانت شديدة الحرارة ومتوهجة .. وشعر « ايزارت » بانه وقع فى شبكة صياد ، فأعماه الغضب ! .. وكان فى استطاعته ان يقبض على عنق كامبيون ويشدد الضغط عليه حتى يخنقه ، ولكنه شعر بانه مسلوب القوة ، لانه لم يكن يعرف ما الذى ينبغى أن يكافحه ! .. واحس بنفسه عاجزا .. كان متعبا ، ومريضا . وكانت اعصابه مهتزة ، مختلة !.. وعلى حين فجأة ، فارقه الغضب الذى منحه نوعا من القوة ، فشعر باليأس والقنوط ، وكأن الذى كان يجرى فى عروقه ماء وليس دما . **وغاص قلبه بين ضلوعه ، وتخاذلت ركبتاه ، وشعر بانه اذا لم يتملك نفسه ، فقد ينخرط فى النحيب .. فقد كان فى اشد الحزن على نفسه !**

وصاح بلهجة تثير الرثاء والاسى : « عليك اللعنة ! .. الا ليت نظرى لم يقع عليك قط ! »

فسأله كامبيون فى دهشة : « ما الذى جرى بحق السماء ! »

– دع عنك الادعاء ، فقد ظللنا يومين ندعى ماليس حقيقة! .. لقد ضقت ذرعا بهذا !

واخذ صـوته يعلو فى نبرة رفيعة حادة ، فبـدا غريبا ان يصدر من مثل ذلك الرجل القوى ، الكبير . ومضى يقول :

ـ لقدضقت ذرعا بهذا ..أجل لقد تخليت عنك ، وهربت من نجدتك .. تركتك تغرق ! .. وانى لاعرف أنى تصرفت تصرف الجبناء ، ولكنى لم أكن أملك أن أقاوم !

ونهض كامبيـون ببطء من المقعـد ، وقال : « ما الذى تتحدث عنه ؟ »

وكانت لهجته تنم عن دهشة حقيقية .. مما جعل ايزارت يجفل ، ويشعر برعدة باردة تسرى فى فقاره . وقال :

ـ عندما صرخت تطلب النجدة ، كنت أنا فى ذعر بالغ ، فلم أتمالك أن تشبثت بالمجداف ، وحملت حسنا على ان يساعدنى على النجاة !

ـ كان هذا احكم ما تملك أن تفعله !

ـ لم يكن فى وسعى ان اساعدك .. ولم يكن هناك مااستطيع ان افعله !

ـ طبعا لم يكن ثمة ماتستطيع أن تفعله لى ، ولقد كان غباء مزريا منى ان صحت طالبا النجدة ، اذ ان الصراخ كان تبديدا للتنفس ، وهو الشىء الوحيد الذى كنت بحاجة اليه !

ـ هل تريد أن تقول انك لم تكن تعرف بتصرفى ؟

ـ عندما قدم لى البحارة الحصير ، كنت أظن أنك مازلت متشبثا بالزورق ، واعتقدت أننى سانجو قبلك !

فوضع ايزارت يديه على راسه ، وصاح فى الم ويأس :

ـ يا الهى ، اى غبى كنته ؟

* * *

ووقف الرجلان برهة ، يتفرس كل منهما فى الآخر . وبدا كأنما لانهاية للصمت الذى سيطر عليهما. واخيرا قطعه ايزارت، اذ قال لكامبيون : « وماذا تراك فاعلا الآن ؟ »

ـ لا تقلق ياعزيزى .. لقد كنت أنا الآخر من الذعر بدرجة لا تجعلنى ألوم أى واحد يهز الخوف كيانه .. ولن اقول شيئا لاى مخلوق !

ـ أجل ، ولكنك تعلم بما كان منى !

ـ اننى أعدك ، وبوسعك أن تثق بى .. هذا فضلا عن ان مهمتى هنا قد انتهت ، وسأعود الى الوطن .. اننى أعتزم أن ألحق بأول سفينة مسافرة الى (سنغافورة)

وسادهما الصمت من جديد .. وأخذ كامبيون يتأمل ايزارت برهة ثم قال : « هناك شىء واحد اود ان اطلبه منك .. لقد اكتسبت هنا عددا كبيرا من الاصدقاء ، وهناك أمر او أمران اراني مرهف الحساسية ازاءهما . فعندما تروى قصة مغامرتنا ، أكون ممتنا لك اذا أنت لم تذكر أننى سلكت مسلكا مشينا .. فلست أود أن يعرف الناس هنا أنى فقدت أعصابى ! »

وتضرج وجه ايزارت واحتقن بالدم .. وتذكر ما قاله للمقيم ، فبدا له الامر كما لو ان كامبيون كان عندئذ واقفا وراءه ينصت الى حديثه . فسعل ليجلو حلقه ، وقال : « لست أدرى لماذا تظن أننى سأفعل ذلك ! »

وتهلل وجه كامبيون وشع بريق الاغتباط فى عينيه الزرقاوين واجاب فى ابتسامة اظهرت أسنانه المهشمة المعدومة اللون يقول :

ـ خيط من الدم الاصفر ! .. أليك سيجارة يا صديقى العزيز !

انتصار قاتل!

(ماكنتوش)

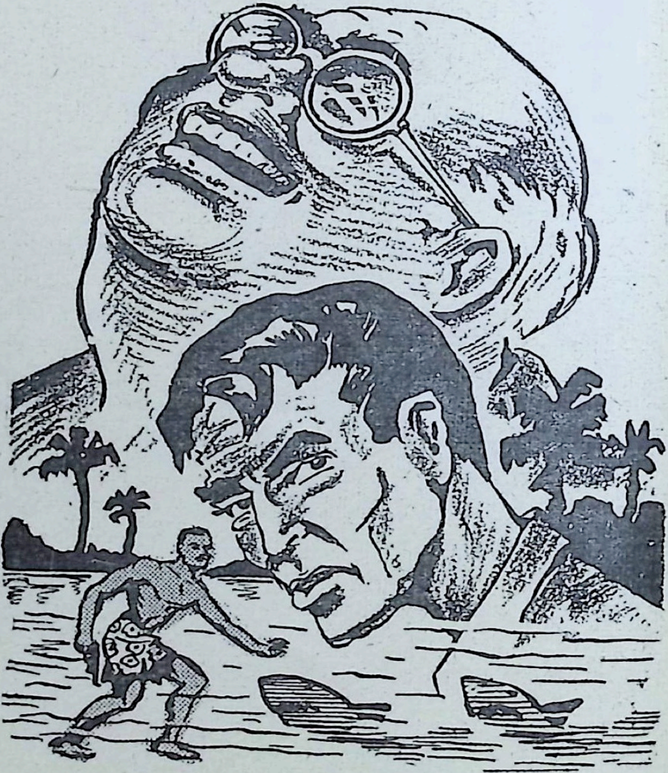

MACKINTOSH

خاض ماء البحر لبضع دقائق ، اذ كان من الضحل بحيث لم يكن بوسعه السباحة فيه ، كما انه لم يكن يستطيع ان يمضى الى عرض البحر ، خوفا من أسماك القرش .. وما لبث ان خرج الى البر ، وسعى الى الحمام ، يغتسل تحت المرذاذ (الدوش) . فاذا برودة الماء المنساب تنعشه ، بعد لزوجة الماء الملح الثقيل .. **ماء المحيط الهادى ، الذى كان من الدفء — رغم أن الساعة لم تكن قد تجاوزت السابعة صباحا — بحيث أن الاستحمام فيه لم يكن لينشط بدنك ، وانما كان خليقا بأن يزيد خمولك !**

وعندما جفف بدنه ، واندس فى ثوب الحمام ، صاح منبها الطاهى الصينى الى انه لن يلبث أن يكون متأهبا للفطور ، بعد خمس دقائق . ثم سار حافيا ، مجتازا الرقعة التى كان ينمو فيها العشب الخشن ، والتى كان « ووكر » — المدير (المأمور) — يزهو بها ويرى انها مرج أخضر .. وبلغ مسكنه، فارتدى ملابسه . ولم يستغرق هذا منه وقتا طويلا ، اذ انه لم يرتد غير قميص وسروال (بنطلون) من الكتان . ثم يمم — بعدذلك — شطر دار رئيسه ، فى الجانب الآخر من الفناء، فقد اعتاد الاثنان ان يتناولا وجبات الطعام سويا . ولكن الطباخ الصينى قال له — فى هذه المرة — ان « ووكر » خرج

راكبا جوادا ، فى الساعة الخامسة ، ولم يكن من المنتظر ان يعود قبل ساعة اخرى .. ولم يكن ((ماكنتوش)) قد حظى بنوم هادىء منتظم ، فأخذ ينظر - بغير شهية - الى الفطور الذى وضع أمامه !

كان البعوض قد أقض مضجعه فى تلك الليلة ، وكاد يذهب بعقله . اذ راح يحوم حول الكلة (الناموسية) - التى كان ماكنتوش ينام تحتها - بكثرة بالغة ، حتى لقد كان طنينه المزعج الكئيب، أشبه بنغمة متهالكة رتيبة ، صادرة عن ارغول فى بقعة نائية . وكان ماكنتوش - كلما غلبه النعاس - لايلبث أن يستيقظ فجأة فى فزع ، وهو يعتقد ان بعوضة قد نفذت الى داخل الكلة . وكان الطقس حارا ، فنام عاريا ، وظل يتقلب على جنبيه ، وهو يسمع هدير الامواج وصوت تكسرها على الشاطىء بانتظام رتيب ، غير منقطع ، لم يكن يفطن اليه من قبل .. بل ان رتابته أخذت تدق أعصابه المتعبة دقا .. وراح يتجلد - وقد تقلصت قبضتاه - ويحاول جاهدا تحمل هذا العذاب . ولكنه وجد من المستحيل عليه أن يحتمل مجرد التفكير فى انه ما من شىء يستطيع أن يوقف هذا الصوت، بل انه سيظل كذلك الى ما لا نهاية !.. وعندما كان يخال ان قواه تستطيع الصمود لقوى الطبيعة القاسية ، كانت تجتاحه رغبة جنونية فى أن يقدم على عمل عنيف ! ..

وشعر ماكنتوش بأن عليه ان يسيطر على أعصابه ، والا انتهى الامر به الى الجنون ، فنهض عن المائدة ، وسار الى النافذة ، حتى اذا رمى ببصره نحو الشاطىء ، ورأى خط الزبد الذى يميز حافته ، أحس برعدة تجرى فى أوصاله ، كراهية لهذا المنظر الواضح المنبسط ! .. وكانت السماء الصافية أشبه بوعاء مقلوب ! .. واشعل غليونه ، وراح يعبث بكومة الصحف التى وردت من (آبيا) منذ بضعة أيام ..

كانت احدث هذه الصحف قد صدرت منذ ثلاثة أسابيع، وكان مظهرها يبعث على السأم والملل !

وقصد ــ بعد ذلك ــ الى « المكتب » .. وكان عبارة عن غرفة كبيرة عارية ، ضمت مكتبين واريكة امتدت فى أحد جوانب الغرفة .. وقدجلس عليها ــ اذ ذاك ــ بعض الاهالى ، وبينهم سيدتان . وكان الجميع يتجاذبون أطراف الحديث ، فى انتظار « المدير » . واذ وصل « ماكنتوش » ، بادروه بالتحية فحياهم بدوره ، ثم جلس الى مكتبه ، وبدا يكتب مستكملا تقريرا طلبه محافظ (ساموا) مرارا ، ولكن «ووكر» أهمل اعداده كعادته .. وبينما عكف ماكنتوش على تدوين ملاحظاته ، فطن ــ فى حقد وتشفى ــ الى أن تلكؤ « ووكر » فى كتابة التقرير ، انما كان راجعا الى جهله . والواقع انه كان من الجهل بدرجة جعلته يتحاشى اى عمل له صلة بالاقلام والاوراق ! .. **ومع هذا ، فانه لن يحجم ــ اذا ما انتهى ماكنتوش من اعداد التقرير ، فى دقة وعناية ــ عن أن يتقبله منه ، كما يتقبل الرئيس عملا مفروضا على مرؤوسه .. دون كلمة تقدير ! بل انه ربما تقبله بشىء من التجهم ، أو بكلمة لاذعة ، ثم ان يلبث أن يرسله الى السلطات وكانه من وضعه هو وانشائه ، وان لم يكن قد كتب كلمة واحدة منه ــ فى الواقع ــ وما كان بوسعه أن يكتب !** .. ولقد لاحظ ماكنتوش ــ بشىء من السخط ــ ان رئيسه كان يعمد ــ فى الحالات التى يرى ان يضيف فيها عبارة ما ــ الى التعبير عنها بأسلوب كأسلوب الاطفال ، وبلغة كلها اخطاء ! .. فاذا ما اراد ماكنتوش اصلاح الخطأ ، أو اعادة صوغ العبارة لتصبح مفهومة ، ثار « ووكر » وصاح قائلا : « فيم تعنينى قواعد اللغة ، بحق الجحيم ؟ .. هذا هو ما اريد ان أقوله ، وهذه هى الطريقة التى اريد ان أقوله بها ! »

ووصل « ووكر » أخيرا ، فما ان دخل المكتب ، حتى احاط به الاهالى محاولين الظفر باهتمامه . ولكنه تحول اليهم ، فأمرهم بغلظة ان يجلسوا ولا ينطقوا بكلمة ، منذرا بأنه سيأمر بطردهم ـ اذا لم يلزموا الهدوء ـ وبأن يمتنع عن مقابلة أحد منهم فى ذلك اليوم . ثم أومأ الى ماكنتوش ، قائلا: **« هالو ماك ! .. هل استيقظت أخيرا ؟ .. لست أدرى كيف يمكنك أن تضيع خير فترة من النهار مستلقيا فى الفراش ، وكان خليقا بك أن تستيقظ قبل الفجر مثلى ، أيها الكسول! »**

وألقى بنفسه على المقعد ـ فى تهالك ـ ومسح وجهه بمنديل كبير ، وقال : « آه يا الهى ! .. اننى ظمآن ! » . والتفت الى الشرطى الواقف بالباب ، والذى كان يبدو بديع الشكل فى سترته البيضاء ، و « اللافا لافا » .. ذلك المئزر من القماش الذى يلفه أهل جزر (ساموا) حول أردافهم .. وطلب اليه أن يحضر « الكافا » . وكان وعاء شراب « الكافا » موضوعا على الارض ـ فى أحد اركان الغرفة ـ فملأ منه الشرطى قدحا صنع من نصف قشرة « جوزة الهند » ، وقدمه لووكر ، الذى اراق بعض قطرات منه على الارض ، وغمغم موجها الى الحضور الدعوة المألوفة ـ على سبيل المجاملة ـ ثم احتسى « الكافا » باستمراء ، وطلب من رجل البوليس ان يقدم الشراب الى القوم الذين كانوا فى انتظاره . فدارت قشرة « جوز الهند » عليهم واحدا بعد آخر ، بترتيب عمره ، أو قيمته .. وكان كل منهم يفرغها بالطريقة ذاتها !

وانصرف بعد ذلك الى عمله اليومى .. وكان ضئيل الجسم ، أقصر بكثير من الطول المتوسط .. بدينا ، مكتنز الوجه ، حليق الذقن ، ذا خدين ترهلا على الجانبين متدليين ، فكأنه أوتى ثلاث ذقون كبيرة . وكانت قسمات وجهه الصغيرة تذوب فى كتل من الشحم . وفيما عدا هلال من الشعر الابيض ـ فى مؤخر راسه ـ كان أصلع تماما .. وكان منظره

يذكرك بالمستر « بيكويك » . فقد كان غريب الشكل .. وكان طروبا يحب الضحك . ومع ذلك ، فانه — للعجب — لم يكن يخلو من مهابة ! .. وكانت عيناه الزرقاوان تومضان — من خلف منظاره ذى الاطار الذهبى — بأشعة الذكاء والمرح . كما كانت ترتسم على وجهه أمارات العزيمة القوية . وكان فى الستين من عمره ، ولكن حيويته الاصيلة انتصرت على شيخوخته .. وبرغم ضخامته ، كان خفيف الحركة ، يمشى بخطوات ثقيلة ثابتة ، وكأنه يريد أن يهز الارض بثقله .. كما كان يتكلم بصوت عال ، خشن .

* * *

وكان قد انقضى عامان على تعيين « ماكنتوش » مساعدا لووكر . ولقد كان « ووكر » ، الذى ظل ربع قرن مديرا — (مأمورا) لتالوا — وهى من أكبر الجزر فى مجموعة جزر (ساموا) — معروفا فى طول البحار الجنوبية وعرضها ، سواء بشخصه أو بالانباء المتناقلة عنه . لذلك كان ماكنتوش راح يتطلع — فى فضول متلهف — الى أول لقاء به . وقد مكث فى (آبيا) اسبوعين — لسبب أو لاخر — قبل أن يتولى منصبه . فسمع فى فندق « شابلن » ، وفى النادى الانجليزى ، قصصا عديدة عن المدير . ولقد اصبح يسخر من نفسه كلما تذكر اهتمامه بهذه القصص ، التى سمعها مائة مرة — منذ ذلك الحين — من « ووكر » نفسه . اذ كان « ووكر » يعرف انه شخصية ذات شأن ، وكان يزهو بشهرته ، ويتعمد أن يكون أهلا لها .. كان غيورا على « الاسطورة » التى نسجت حوله ، تواقا الى أن تعرف التفصيلات الدقيقة لاى من هذه القصص التى كانت تروى عنه . وكان يغضب كل الغضب من أى شخص يرويها للأغراب بشىء من التحريف !

وكان « ووكر » يتسم بلون من الود المقترن بالخشونة .

والذى لم ير « ماكنتوش » فيه بأسا ، فى بادىء الامر . لهذا اغتبط « ووكر » اذ وجد فيه مستمعا سيكون كل ما يقول له جديدا عليه ، فأفرغ له خير ما فى جعبته. وكان بشوشا ، صادق الود ، حفيا .. وكان « ماكنتوش » قد عاش فى طمأنينة ودعة الموظف الحكومى ـ فى لندن ـ حتى بلغ الرابعة والثلاثين ، ثم أصيب بالتهاب رئوى تركه مهددا بالسل ، فاضطر الى البحث عن منصب فى المحيط الهادى .. **لذلك خيل اليه أن حياة « ووكر » كانت شاعرية ، عجيبة . فان المغامرة التى بدأ بها كفاحه ضد الظروف ، كانت مثالا لروحه وشخصيته . فقد هرب الى البحر عندما كان فى الخامسة عشرة من العمر ، وظل أكثر من عام يحمل الفحم على سفينة لنقل الفحم** . وكان صبيا ضئيل الجسم ، فترفق به البحارة وعمال السفينة ، ولكن الربان شعر نحوه ـ لسبب غير معروف ـ بكراهية ضارية . فكان يقسو فى معاملته ، حتى ان الصبى كثيرا ما كان يفتقد النوم لكثرة ما كان يضرب ويركل ، ويروح الالم يفرى أطرافه . ومن ثم فقد حقد على الربان من كل قلبه . وقد حدث ـ ذات مرة ـ ان تحمس لجواد كان مزمعا أن يجرى فى سباق الخيل ، فسعى حتى اقترض خمسة وعشرين جنيها من صديق التقى به فى (بلفاست) ، وقامر بها كلها على هذا الجواد الذى كان ضعيف الامل فى الفوز . ولم يكن لديه من الموارد ما يمكنه من السداد، ولكنه لم يتصور قط انه قد لايربح ، وانما شعر بأن الحظ معه! .. **وقد ربح الجواد فعلا ، وكسب « ووكر » أكثر من ألف جنيه نقدا وعدا ، فشعر بأن الفرصة قد واتته . وبحث عن خير محام فى المدينة ـ وكانت ناقلة الفحم راسية عند مكان ما من الشاطىء الايرلندى ـ وقصد اليه ، وأبلغه بانه سمع أن السفينة معروضة للبيع ، وطلب اليه أن ينوب عنه فى السعى لشرائها ..**

واهتم المحامى بهذا العميل الصغير ، الذى لم يكن — اذ ذاك — قد تجاوز السادسة عشرة ، ولم يكن يبدو أنه بلغها .. ولعل العطف دفعه الى أن يعده ، لا بتدبير الامر له فحسب ، بل وبالعمل على أن تكون الصفقة طيبة . وبعد فترة قصيرة ، وجد « ووكر » نفسه مالكا للسفينة ، فعاد اليها ، ونعم بما كن يصفه بأنه « أروع لحظة فى حياته » . وذلك عندما أنذر الربان وأمره بمغادرة السفينة فى غضون نصف ساعة ، ثم عين مساعد الربان فى مكانه ، وظل يمخر البحار بناقلة الفحم تسعة أشهر أخرى ، ثم باعها ببعض الربح !

وذهب الى جزر (ساموا) وهو فى السادسة والعشرين ، فعمل مزارعا ، وكان أحد البيض القلائل الذين استقروا فى (تالوا) خلال عهد الاحتلال الالمانى . وكان قد اكتسب بعض النفوذ بين الاهالى ، فعينه الالمان فى المنصب الذى ظل يشغله عشرين عاما . **وقد عزز مركزه فى الوظيفة عندما استولى البريطانيون على الجزيرة ، فحكمها بالشدة ولكنه أصاب نجاحا تاما . فكان هذا النجاح سببا آخر من أسباب اهتمام ماكنتوش بأمره !**

بيد انه لم يقدر لهذين الرجلين أن يتفقا .. كان ماكنتوش قبيح الصورة ، غير متناسق القسمات ، طويل القامة ، نحيفا ، ذا صدر ضيق ، وكتفين محدودبتين ، وخدين غائرين ، وعينين واسعتين كئيبتين . وكان مشغوفا بالقراءة ، وعندما وصلت كتبه وفض أربطتها وأخرجها من اغلفتها ، دخل عليه « ووكر » ، فتأملها ثم تحول اليه قائلا ، وهو يطلق ضحكة نابية : « لاى شىء جلبت كل هذه التوافه .. بحق الجحيم ؟ » .

فتجهم وجه ماكنتوش وقال : « **يؤسفنى أن تراها توافه . لقد أحضرت كتبى لاننى أريد أن أقرأها ! »**

— عندما قلت انك ستأتى بكثير من الكتب ، ظننت ان سيكون بينها ما يروق لى . أفليست لديك قصص بوليسية ؟

— ان القصص البوليسية لا تلذ لى !

— انك لغبى مأفون ، اذن !

— اننى أقنع بأن تظننى كذلك !

وكان كل بريد يحمل الى «ووكر» من (نيوزيلند) كميات كبيرة من المجلات الادبية والصحف ، ومن (أمريكا) مجلات اخرى . وقد أسخطه أن يظهر ماكنتوش ازدراءه بهذه النشرات القصيرة العمر . ولم يكن صبره يحتمل الكتب التى كانت تشغل جميع أوقات فراغ ماكنتوش . ولما لم يكن قد تعلم قط أن يكبح جماح لسانه ، فقدعبر عن رأيه بصراحة لمساعده. وبدأ ماكنتوش يعرف الرجل على حقيقته ، فرأى انه كان يخفى تحت مظهر الطيبة والبشاشة خبثا سوقيا مكروها ، وانه كان مغرورا متغطرسا . والغريب انه كان — بجانب هذا — على نوع من الحياء جعله يكره الذين ليسوا من طرازه. وكان يحكم على الاخرين بلغتهم ، فاذا خلت من الايمان الصاخبة، والقحة التى تؤلف الجزء الاكبر من حديثه ، نظر الى المتحدثين فى ارتياب . وكان الرجلان يلعبان الورق فى المساء . **وما كان ((ووكر)) بالماهر فى اللعب ، ولكنه كان مدعيا ، يسخر من خصمه عندما يكسب ، ويفقد صوابه اذا خسر ! ..** وكان يفد عليهما — فى مناسبات نادرة — زوج من المزارعين او

استجار ، ليلعبا معهما « البريدج » . واذ ذاك ، كان «ووكر» يتجلى تحت ضوء مميز . فكان يلعب دون أن يأبه بزميله ، ويصيح فى لعبه ، ويجادل بلا انقطاع ، ويطغى على أيةمعارضة بارتفاع صوته . وكان لايفتأ يرجع عن لعبة لعبها ، فاذا فعل ذلك قال فى عواء مستعطفا : « آه ! .. ماأراكم ستحسبون هذه على رجل مسن لايكاد يرى ! » . **فهل كان يعرف أن غرماءه كانوا يرون الخير فى أن يرضوه ، ومن ثم فانهم كانوا يحجمون عن التشبث بأصول اللعب ؟**

وكان « ماكنتوش » يراقبه فى ازدراء جليدى . فاذا ما انتهى اللعب ، كانوا يشرعون فى رواية النوادر ، أثناءتدخين غلايينهم واحتساء الويسكى . وكان « ووكر » يروى — فى تلذذ — قصة زواجه . فقد أفرط فى الشراب فى حفلة زفافه، حتى لقد اضطرت العروس الى الفرار ، فلم يرها قط بعد ذلك . **وكانت له مغامرات لا حصر لها . مغامرات وضيعة ، ودنيئة ، مع نسوة الجزيرة . وكان يرويها بشىء من الزهو ، فكانت قحته فى الحديث تؤذى اذن ماكنتوش المرهفة الحس** .. كان كهلا بليد الاحساس ، شهوانيا . وكان يرى فى ماكنتوش زميلا مسكينا،لانه كان يرفض مشاركته فى مغامراته الغرامية الرعناء ، ولانه كان يظل محتفظا بجميع حواسه ، بينما يكون بقية الحضور قد ثملوا !

كذلك كان يزدرى ماكنتوش لما كان يؤدى به عمله الرسمى من نظام دقيق . والواقع أن ماكنتوش كان يحب ان يؤدى كل شىء على هذا النسق . وكان مكتبه منظما على الدوام ، وأوراقه مرتبة بعناية دائما ، حتى لقد كان فى استطاعته أن يمد يده فتقع على أية وثيقة مطلوبة ، كما كان يضع فى متناول يده كافة اللوائح والنظم اللازمة لتأدية أعمالهما الادارية . **فكان ووكر يقول له : « بخ ! بخ .. لقد أدرت هذه الجزيرة عشرين عاما بغير الاجراءات الرسمية العقيمة . ولست أريد**

الآن استخدامها ! » . وكان ماكنتوش يجيب بقوله . « هل من الاسهل عليك أن تضطر — عندما تريد خطابا ما — الى أن تظل نصف ساعة أو نحوها تبحث عنه وتتصيده ؟ »

— انك لست غير متعنت فى تمسكك بقيود الوظيفة . ولكن .. لا بأس بك ، وسينصلح أمرك عندما تقضى هنا عاما او عامين .. عيبك انك لاتشرب ، ولن يكون بك بأس ، لو انك أسرفت فى الشراب حتى تفقد الوعى .. مرة فى الاسبوع !

* * *

والغريب ان ووكر ظل جاهلا كل الجهل بالكراهيه التى كان مرؤوسه يشعر بها نحوه، والتى اخذت تزداد على مر الايام. ومع انه كان يسخر منه ، الا انه اخذ يحبه بعد أن ألف وجوده وأخلاقه . فلقد كان طويل الاناة متسامحا مع الناس فيما يتعلق بخصالهم وطباعهم . فقبل « ماكنتوش » على انه « سمكة » شاذة . ولعله لم يفطن الى انه ربما أحبه لانه كان يستطيع ان يسخر منه . وكان مجونه منطويا على قدر من البساطة الخشنة ، حتى لقد كان ينقصه شىء من الكز ليكون غلظة . وكانت صراحة ماكنتوش واستقامته ورزانته موضوعات خصبة للتندر والمزاح . وقد أتاح أسمه الاسكتلندى فرصة لذكر النكات المألوفه عن (أسكتلندا) . وكان « ووكر » يتلذذ ويستمتع الى اقصى حد ، عندما تسنح الفرصة فيجتمع اثنان او ثلاثة اشخاص ، فيسعى الى اضحاكهم على حساب ماكنتوش . كما انه ما كان ليحجم عن أن يذكر أشياء سخيفة عنه للاهالى . ولما كان ماكنتوش حديث معرفة بأهل الجزيرة، فقد راح يتقبل بالابتسام والحلم ضحكاتهم وقهقهاتهم وسرورهم الطاغى ، كلما ألقى ووكر بنكتة أو بدرت منه اشارة ماجنة اليه ! .. **وما درى ووكر أن ماكنتوش لم يكن يكره شيئا قدر كراهيته هذا النوع من المماجنة ، فكان**

يستيقظ فى الليل ـ ليل فصل الامطار الخانق ـ ويفكر فى اكتئاب فى نكتة لاذعة أطلقها ووكر قبل ذلك بأيام .. فيتقد حقده ، ويتملكه الغضب ، ويصور لنفسه الطرق والوسائل التى تجعله نداً لهذا العربيد ! .. ولقد حاول الرد عليه ، ولكن ووكر كان يتمتع بسرعة البديهة .. وهى موهبة قاسية واضحة ، أكسبته التفوق !.. ومع ذلك فقد كان يتسم ببلادة فكر تمنعه من سرعة التأثر بأية أمزوحة لاذعة . كما أن صوته العالى وضحكته المدوية ، كانا من الاسلحة التى لم يجد ماكنتوش ازاءها أى دفاع . ولهذا أدرك أن من الحكمة أن لا يكشف عن انفعاله ، وتعلم كيف يضبط أعصابه .. **ولكن كراهية ووكر ظلت تنمو فى أعماقه ، حتى بلغت حد الجنون ، فأخذ يرقبه فى يقظة وانتباه ، ويغذى اعتداده بنفسه على ما كان يظهر من ووكر من وضاعة ، وخيلاء صبيانية ، وخبث، وفظاظة** .. وبشعر بالارتياح حينما يراقب ووكر وهو يأكل فى نهم وشراهة ـ ولتلمظه صوت مسموع ـ وحينما يلاحظ الاقوال السخيفة التى كان يتفوه بها ، ويسجل الاخطاءاللغوية التى كان يقع فيها ! .. وكان يعلم أن ووكر لا يكن له من التقدير شيئا كثيرا ، فشعر بارتياح مرير لرأى رئيسه فيه ، اذ زاد ذلك من اشمئزازه من هذا الكهل الضيق الافق .. وكان اغتباطه يتضاعف ليقينه من أن ووكر لم يكن يدرك قط تلك الكراهية التى كان يكنها له. فقد كان غبيا ، يحب الشهرة، ويتخيل أن كل الناس معجبة به . **ولقد سمعه مرة يتكلم عنه قائلا : ((لسوف يتحسن عندما انتهى من تدريبه ، فهو جرو طيب ، يحب سيده !))**

وقد ضحك ماكنتوش طويلا من أعماق قلبه ، دون أن تتحرك نأمة فى وجهه الطويل الشاحب !

على أن كراهية ماكنتوش لم تكن عمياء ، وانما كانت ذات بصيرة ! .. ولهذا جاء حكمه على ميزات ((ووكر)) وكفاءته

حكما دقيقا . فقد أدرك أن الرجل يحكم مملكته الصغيرة بكفاءة وعدل وأمانة ، وانه – برغم الفرص التى كانت تسنح له للاثراء – أفقر مما كان عندما عين فى هذا المنصب ، وان المورد الوحيد الذى سيعتمد عليه فى شيخوخته ، هو ذلك المعاش الذى سيتقرر له فى النهاية ، عند التقاعد.. وكان ووكر يفخر بأنه تمكن – بمعاونة مساعد واحد وكاتب – من ادارة هذه الجزيرة بكفاءة تفوق ما كانت تدار به جزيرة (اوبولو) – الجزيرة الكبرى التى كانت (آبيا) كبرى مدنها – على أيدى ذلك الجيش من الموظفين الذى اعد لها . ولم يكن لديه غير عدد قليل من الشرطة ، كلهم من أهل الجزيرة . ولكنه لم يكن يستخدمهم فى تثبيت سلطانه ، بل انه كان يعتمد فى حكمه على الحيلة وعلى مجونه الايرلندى ! .. وكان يقول : « لقد اصروا على أن يبنوا لى سجنا ، ولكن ما حاجتى الى السجن بحق الشيطان ؟.. اننى لن أودع الاهالى السجن ، لانى أعرف كيف أعاملهم اذا اخطأوا ! »

وكان بين الخلافات التى قامت بينه وبين السلطات فى (آبيا) – قصبة الحكم فى الجزر – انه ادعى لنفسه السلطة القضائية والتشريعية بالنسبة لاهل الجزيرة، فلم يكن يحولهم الى المحاكم المختصة ، مهما تكن جرائمهم !.. وكم من مرة تبودلت بينه وبين محافظ (اوبولو) مكاتبات مشحونة بعبارات السخط والغضب ! .. ذلك لانه كان ينظر الى الاهالى كأنهم اولاده ، فكان هذا هو اغرب ما فى الرجل الانانى الفظ السوقى ، اذ أحب الجزيرة التى عاش فيها طويلا ، فأصبح يطوى بين جناحيه عاطفة غريبة من الحنان الخشن نحو أهل الجزيرة .. عاطفة تدعو الى العجب فعلا ! .. وكان يحب الطواف حول الجزيرة على فرسه العجوز الشهباء ، دون أن يمل قط من جمالها . بل كان يجوس خلال طرقاتها المعشوشبة ، بين اشجار «جوز الهند» ، ويقف بين الفينة والاخرى ليتأمل فى اعجاب

المناظر الحبيبة الممتدة أمامه.. وكان يمر ــ من وقت لآخر ــ بقرية ، فيتوقف ريثما يقدم له زعيمها قدحا من « الكافا » ــ الشراب الوطنى ــ وهو يتأمل الاكواخ المصنوعة على شكل النواقيس ، وسقوفها المبنية بالقش ، وكأنها خلايا نحل ! .. وإذ ذاك ، كانت ترتسم على وجهه المكتنز ابتسامة هانئة . وتستقر عيناه ــ فى سعادة تامة ــ على المروج الخضراء . والاشجار الباسقة المنتشرة أمامه .. ويقول لنفسه : « تالله انها لاشبه بجنة عدن ! »

وكانت جولاته تمتد أحيانا ، فيصل الى الشاطىء ، ويرى ــ من خلال الاشجار ــ البحر الخالى المترامى الاطراف ، لا يعكر صفو هدوئه شراع واحد . وقد يتسلق ــ فى بعض الاحيان ــ تلا ، فيرى رقعة كبيرة ممتدة أمامه ، تتناثر فيها قرى صغيرة قابعة فى أحضان أشجار باسقة . فيتخيل أنه أمام مملكة الممالك . فيجلس ساعة فى نشوة وسرور . ولكنه لم يكن يملك من الكلام ما يعبر عن مشاعره ، فلا يجد ما ينفس به عنها سوى نكتة بذيئة يطلقها ! .. والظاهر أن هذه المشاعر كانت من العنف الى الحد الذى يحتاج الى الفظاظة لكسر حدتها!

وكان ماكنتوش يلاحظ هذه العواطف فى ازدراء جليدى . فلقد كان ووكر مسرفا فى الشراب دائما ، وكان يفخر بمقدرته

على أن يرى رجالا لم يبلغوا نصف عمره . صرعى الخمر ، تحت الموائد ، حين كان يقضى ليلة فى (آبيا) ، ويجد من نفسه ميلا الى الشراب ! .. أما هو ، فكان يروى - بأعلى صوته - القصص التى قرأها فى مجلاته .. ومع ذلك فقد كان يأبى أن يقدم أى قرض لأى تاجر قد يقع فى ضيق ، ولو كانت معرفته بهذا التاجر ترجع الى عشرين عاما ! .. فقد كان حريصا على ماله ، حتى لقد قال له ماكنتوش ذات مرة : « ليس بوسع أحد أن يتهمك بتبديد المال ! » . فأخذها على محمل المديح !

* * *

وكان شغفه بالطبيعة مجرد احساس من الاحاسيس الغامرة التى تخامر مدمن الخمر !

ولم يشعر ماكنتوش بأى اعجاب بشعور رئيسه نحو الاهالى . فقد كان « ووكر » يحبهم لانهم كانوا فى قبضة يده وتحت سيطرته .. كان يحبهم كما يحب الرجل الانانى كلبه !.. **وكانت عقليته فى مستوى عقليتهم ، ولهذا فقد كان يفهمهم وكانوا يفهمونه . ومن هنا كان زهوه بسيطرته عليهم ونظرته اليهم كما لو أنهم كانوا ابناءه !..** ولقد اندمج فى جميع شؤونهم ، ولكنه كان غيورا الى حد كبير على سلطته . ومع انه كان يحكمهم بعصا من حديد ، دون ان يرضى معارضة ما ، الا أنه لم يكن يرتضى قط أن يستغلهم أحد من البيض المقيمين فى الجزيرة . وكان يرقب الارساليات فى شك وحذر ، فاذا قام أحد رجالها بعمل لا يرضاه هو ، لم يحجم عن أن يجعل الحياة بالنسبة لهم جحيما لا يطاق ، حتى يضطرهم الى أن يؤثروا مغادرة البلاد بمحض اختيارهم اذا عجز عن ابعادهم . **وكانت سيطرته على الاهالى قوية الى حد أنهم كانوا - بكلمة منه - يرفضون أن يحملوا احساب راعى الكنيسة ، ويأبون أن يمدوه بالطعام !**

كذلك لم يكن ووكر يبدى أى ود للتجار ، وكان يحرص على أن لا يخدعوا الاهالى ، كما كان يعنى بأن يحصل الاهالى على مكافآت طيبة جزاء أعمالهم وتجارتهم ، وبأن لا يغالى التجار فى الكسب من وراء السلع التى يبيعونهم اياها . وكان لا يعرف الرحمة اذا ما اعتقد أن هناك صفقة غير عادلة .. فاذا ما شكا التجار أحيانا - فى (آبيا) - من انهم لايحظون بفرص مناسبة للاتجار ، قاسوا الامرين من جراء هذه الشكوى ، اذ كان « ووكر » لا يتردد - عندئذ - ولا يتورع عن اختلاق أية أكذوبة ظالمة لمعالجة الامر ، فلا يلبث هؤلاء التجار أن يجدوا أن لا سبيل لهم الى أن يعيشوا فى سلام ، او أن يكون لهم كيان ، الا بأن يتقبلوا الموقف وأن يرتضوا ما يمليه هو من شروط . وكم من مرة شبت النار فى حانوت تاجر ممن كان يناصبهم العداء ، دون أن تكون هناك مرية فى أن (المأمور) هو المحرض على ذلك ! .. ولقد حدث مرة أن سويديا - من أم من بنات الجزيرة - حاق به الخراب بسبب الحريق ، فبادر بالذهاب الى « ووكر » واتهمه جهارا بتدبير الحريق . فضحك ووكر ، وقال له : « أيها الكلب القذر ! .. لقد كانت أمك من الاهالى ، وها أنت ذا تحاول خداع الاهالى وغشهم . فاذا كان متجرك العتيق قد احترق فهذا من أحكام العناية الالهية ! .. أجل انه جزاء من القدر ، فاغرب عن وجهى ! » .. وأخذ (المأمور) يضحك ملء شدقيه ، بينما راح اثنان من الشرطة - من أهل الجزيرة - يخرجان التاجر ، وهو يردد : « انه حكم العناية الالهية ! »

* * *

وأخذ ماكنتوش يراقب « ووكر » وهو يشرع فى عمل اليوم - فى ذلك الصباح - مبتدئا بالمرضى . اذ كان قد أضاف الى نواحى نشاطه أمر علاج المرضى ، وافرد غرفة صغيرة - خلف

المكتب – ملأها بالادوية والعقاقير .. وتقدم رجل مسن ، أشيب الشعر ، يرتدى ثوبا ازرق مخططا من « اللافا لافا » ، وقد تغضن جلده فأصبح كجلد القربة . فسأله ووكر : «لماذا جئت ؟ » .. وبصوت خفيض واهن ، قال الرجل انه لا يكاد يأكل حتى يلفظ ما أكل ، وانه كان يشعر بالآلام هنا ، وهناك فى جسمه .. فقال ووكر : « أذهب الى عيادة المبشرين ، فأنت تعلم أننى لا اعالج الا الاطفال ! » .. فقال الرجل : « لقد ذهبت الى الارساليات ، ولكنها لم تفدنى بشىء ! » . فقال ووكر : « **اذن ، فاذهب الى منزلك ، وتاهب للموت .. لقد عمرت طويلا ، فهل لا تزال ترجو أن تطول أيامك أكثر من هذا ؟ .. انك لغبى ! »**

واندفع الرجل فى احتجاج صاخب ، ولكن ووكر أشار الى سيدة تحمل بين ذراعيها طفلا مريضا ، وطلب اليها أن تتقدم بالطفل الى مكتبه ، ووجه اليها بعض الاسئلة ، ثم نظر الى الطفل ، وقال : « سأعطيك دواء ! » .. ثم تحول الى الكاتب – الذى كان خليطا من اب أبيض وأم من بنات الجزيرة – وقال : « اذهب الى مخزن الادوية فاحضر بعض حبوب الكالوميل » . وأغرى الطفل بابتلاع احدى الحبوب ، ثم أعطى حبة أخرى الى امه وقال : « **خذى الطفل واحرصى على تدفئته ، وسوف يتحسن غدا .. أو يموت ! »**

واضطجع فى مقعده ، وأشعل غليونه ، ثم قال : « ان الكالومبل عقار عجيب ، وقد انقذت به حياة عدد من المرضى يفوق كثيرا عدد من انقذهم أطباء مستشفى (آبيا) مجتمعين !» .. كان ووكر مزهوا ببراعته ، وكان – بفضل ما يزينه له الجهل من غرور – لا يرضى عن اهل الطب ! .. ولم يلبث أن قال : « **ان الحالة التى يحلو لى علاجها ، هى تلك التى يعتقد الاطباء جميعا أنها ميئوس منها . فعندما يقول الاطباء انهم لا يستطيعون علاجك ، أقول لهم : « تعالوا الى ! » ..**

الم أحدثك يوما عن الشخص الذى أصيب بالسرطان ؟ » .
فقال ماكنتوش : « كثيرا ! » .
– لقد عالجته فى ثلاثة أشهر
– ولكنك لم تخبرنى عن الذين لم تشفهم !
واذ انتهى ووكر من هذا الجزء من عمله ، تحول الى بقية الاعمال ، وكانت مزيجا عجيبا : فهذه امرأة لم تعد تستطيع العيش مع زوجها .. وهذا رجل يشكو من ان زوجته قد هربت منه .. وقال ووكر : « يا له من كلب محظوظ ! .. ان أغلب الرجال يتمنون لو هربت زوجاتهم ! »
وعرضت عليه قضية نزاع – طويل معقد – على ملكية بضع ياردات من الارض . ونزاع على صيد الاسماك ، وشكوى ضد تاجر أبيض غش فى المكاييل . وكان ووكر يصغى بانتباه لكل قضية ، ثم يعمل فكره بسرعة ، ويصدر قرارا فيها . وما أن يصدر القرار حتى يرفض الاستماع الى شىء بصدد القضية . فاذا استمر الشاكى فى عرض أمره ، تولى شرطى طرده من القاعة . وكان ماكنتوش يستمع الى هذا كله بانفعال وغيظ صامت . كان من الجائز التسليم – بوجه عام – بأن هناك عدالة وان كانت بدائية ، ولكن الامر الذى أحنق المساعد هو : ان رئيسه كان يعتمد على سليقته أكثر من اعتماده على القرائن . ولم يكن يستمع الى الحجج ، وهو ينتهر الشهود عادة . فاذا ما تبين انهم لم يفهموا ما كان ينبغى أن يفهموه ، رماهم بأنهم لصوص وكاذبون !
وترك « ووكر » – الى نهاية أعماله – طائفة من الرجال – كانوا يجلسون فى ركن من الغرفة – متعمدا أن يتجاهلهم . وكانت هذه الطائفة تضم شيخ احدى القرى – وهو شخص متقدم فى السن ، طويل القامة ، مهيب الطلعة ، ذو شعر أبيض ، وقد ارتدى ثوبا جديدا رسم على صدره شعار الوظيفة – ونجله ، وستة من ذوى الشخصيات الهامة فى

القرية . وكان ووكر قد ناصبهم العداء ، وانتصر عليهم ، فأخذ يتعمد اظهار انتصاره — كما هي شيمته — ويسعى الى أن يفيد من ضعفهم بعد أن قهرهم . وكانت وقائع قضيتهم عجيبة . فقد كان لووكر ولع بشق الطرق . وعندما وفد على (تالوا) لم يكن فيها غير دروب قليلة ، متناثرة هنا وهناك . فلم يلبث — على مر الايام — أن شق طرقا فى البلاد تربط القرى بعضها ببعض . ويرجع الى هذه الطرق فضل كبير فى الرخاء الذى ساد الجزيرة . وبعد أن كان من المتعذر — فى الماضى — نقل المنتجات ، لا سيما جوز الهند ، الى الشاطىء ، حيث يتسنى نقلها على السفن والزوارق البخارية الى (آبيا) . أصبح هذا النقل ميسرا سهلا .

وكان الامل الاكبر ، الذى يراود ووكر ، هو شق طريق حول الجزيرة ، وقد تم انشاء جزء كبير منه فعلا . وكان لا يفتأ يقول : ((سأنجزه فى عامين . وان يهمنى — بعد ذلك — أن أموت ، أو أن أطرد من عملى !))

وكانت الفرحة تملأ قلبه بهذه الطرق التى شقها فى البلاد ، فلم يكن ينفك عن القيام برحلات كى يطمئن الى انها مصونة .. وكانت طرقا بسيطة فى تكوينها .. دروبا واسعة مكسوة بالحشائش ، تتخلل الريف أو المزارع . غير أنه لم يكن ثمة بد من اقتلاع بعض الاشجار ، وحفر بعض الصخور أو نسفها ، وتمهيد التربة فى بعض الانحاء . وكان ووكر يفخر بأنه تمكن بفضل مهارته من تذليل هذه الصعاب ، ويبتهج عندما يرى ان هذه الطرق لم تكن مجرد أسباب للتيسير ، وانما كانت تكشف كذلك عن مفاتن الجزيرة التى احبها . فاذا ما تكلم عن الطرق أوشك أن يصبح شاعرا .. ذلك لانها كانت تمتد بين المناظر الجميلة . وقد عنى ووكر بأن يبسطها فى خط مستقيم — بين كل مسافة وأخرى — وبهذا تتجلى المروج الخضراء من خلال الاشجار الطويلة ، كما كانت تتخللها

انحناءات وتعرجات لكى تستريح النفس لهذا الاختلاف والتنويع فى المناظر .. **وكان من الغريب حقا أن يظهر الرجل الخشن البهيمى ، كل هذه البراعة فى تحقيق النتائج التى أوحى بها خياله اليه ، حتى لقد استخدم فى شق هذه الطرق ، كل ما يبذله البستانى اليابانى من عناية مشغوفة ، فى تنسيق حديقته** .. وكان قد تلقى من المركز العام للادارة ، اعتمادا ماليا للمشروع ، ولكنه كان يفخر بأنه لم ينفق غير جزء صغير منه ، فلم يتجاوز ما انفق فى العام السابق غير مائة جنيه من الالف التى خصصت له !

وكان يقول مزمجرا : « فيم حاجتهم الى المال ؟ .. انهم سينفقونه فى جميع اوان السفاسف التى لا حاجة لهم اليها .. او بعبارة أخرى ، سينفقونه فيما يتبقى فى الجزيرة من سلع بعد أن تستكفى الارساليات منها ! » . وقد نجح فى حمل الإهالى على تأدية اى عمل يريدهم على أدائه ، بأجور تكاد تكون اسمية . وما كان هذا لسبب معين ، اللهمَّ الا أن يكون من قبيل الزهو بقلة انفاقه فى تحقيق أعماله الادارية ، ورغبته فى اظهار براعته بالقياس الى الاساليب العقيمة التى تتبعها السلطات فى (آبيا) .

★ ★ ★

ولكن هذا المسلك أدى به أخيرا الى مواجهة بعض الصعاب مع القرية التى جاء زعماؤها — فى ذلك الصباح — لمقابلته . اذ كان ابن شيخ القرية قد قضى عاما فى (اوبولو) ، فلما عاد الى قومه حكى لهم عن المبالغ الكبيرة التى تدفع فى (آبيا) فى مقابل الاعمال العامة .. ونجح على مر الايام فى الهاب نفوسهم وبث روح الكسب فى قلوبهم .. وراح يصور لهم الثراء الطائل ، حتى انهم أخذوا يفكرون فى « الويسكى » الذى سيغدو فى ميسورهم أن يشتروه .. اذ انه كان غالى الثمن نظرا لان

القانون كان يحرم بيعه للاهالى . ومن ثم فقد كانوا يدفعون فيه ضعف ما يدفعه الرجل الابيض ! .. واخذوا يتصورون كذلك ، الصناديق المصنوعة من خشب الصندل ـ والتى يحفظون فيها ثرواتهم ـ والصابون المعطر ، وسائر الكماليات التى يبذل أهل الجزيرة أرواحهم للحصول عليها . **ولهذا فانهم ـ عندما استدعاهم المدير وأنبأهم برغبته فى شق طريق من قريتهم الى نقطة على الشاطىء ـ طلبوا منه أن يدفع لهم مائة جنيه ! ..**

وكان نجل شيخ القرية يدعى « مانوما » : طويل القامة ، جميل الطلعة ، نحاسى اللون ، له شعر صبغ باللون الاحمر ، وحول عنقه طاقة من زهر الكرز الاحمر ، ووراء أذنه زهرة كانت ـ بالنسبة لوجهه الاسمر ـ أشبه بجذوة قرمزية .. وكان نصفه الاعلى عاريا . ولكنه شاء أن يظهر انه لم يعد همجيا ـ بعد أن قضى فترة فى آبيا ـ فارتدى السراويل بدلا من المئزر . وقد الح على الاهالى بأن يتكاتفوا ، حتى يضطر المدير (المأمور) الى قبول شروطهم . **فلقد كان تواقا الى شق هذا الطريق ، ومن ثم فانه سيضطر الى الاستجابة لطلباتهم اذا أيقن من انهم لن يعملوا بأقل مما طلبوا .. وأهاب بهم أن لايتزحزحوا عن موقفهم مهما يقل لهم المدير ، واذا طلبوا مائة**

جنيه ، وجب عليهم أن يتمسكوا بكلمتهم !

وإذ ذكروا الرقم لووكر ، صاح مطلقا ضحكته الطويلة العميقة العالية ، ونصحهم بالا يكونوا أغبياء ، وأن يبدأوا العمل فورا . وكان فى ذلك اليوم فى خير حالاته ، فوعدهم بان يقيم لهم وليمة بعد اتمام الطريق ، ولكنه لم يكد يتبين أنهم لم يبدوا أية محاولة للبدء فى العمل ، حتى ذهب الى القرية ، فسألهم عن الحيلة الرعناء التى كانوا يلعبونها . وكان «مانوما» قد أعدهم للموقف ، فاعتصموا بالهدوء التام . ولم يحاولوا مجادلة ووكر — رغم أن أبناء عشيرة ((الكاناكا)) مغرمون بالجدال — وانما اكتفوا بهز أكتافهم ، مرددين انهم كانوا على استعداد لان يشقوا الطريق لقاء مائة جنيه ، ولن يقدموا على عمل ما اذا هو لم يدفعها ، وليفعل مايشاء ، فقد وطنوا أنفسهم على أن لا يحفلوا !

وعندئذ ثار غضب ووكر . فأصبح قبيح الطلعة ، اذ اشتد تضخم عنقه المكتنز ، واشتد احتقان وجهه الاحمر ، وخرج الزبد من شدقيه ، وأخذ يصب جام غضبه على الاهالى .. وكان يعرف تماما كيف يجرح النفوس وكيف يذلها .. كان مرعبا ، حتى قد شحبت وجوه المتقدمين فى السن ، وشعروا بالقلق ، وترددوا ، ولولا « مانوما » ومعرفته بالعالم الكبير — خارج جزيرتهم — وخوفهم من سخريته ، للانوا .. وكان مانوما هو الذى رد على ووكر بقوله : « ادفع لنا مائة جنيه ، نؤد لك العمل ! » . فهز ووكر قبضته فى وجه مانوما ، ونعته بكل صفة طرأت على مخيلته ، وصب عليه وابلا من السخط ولكن مانوما ظل ساكنا ، مبتسما . وكان فى ابتسامته من التظاهر بالشجاعة أكثر مما كان فيها من الاعتداد بالنفس . فقد كان مضطرا الى أن يظهر بمظهر طيب أمام الآخرين ، فكرر عبارته : ((ادفع لنا مائة ، نؤد العمل !))

وظنوا أن ووكر سينقض على « مانوما » .. ولو ان هذا

حدث لما كانت المرة الاولى التى يعتدى فيها على أحد الاهالى بيديه .. وكانوا يعرفون قوته ، فمع انه كان يبلغ من العمر ثلاثة أمثال ما بلغه « مانوما » . ومع انه كان أقصر منه بشبر تقريبا ، الا أنهم لم يرتابوا مطلقا فى انه كان يفوق « مانوما » قوة . فما خطر لاحد قط أن يقاوم العدوان الوحشى الذى كان بوسع المدير ان يشنه !

ولكن ووكر لم يقل شيئا ، وانما سعل ليجلو حلقه . وقال لهم بعد برهة : « لن اضيع وقتى مع طائفة من الاغبياء. فتشاوروا ثانية فى الامر ، وأنتم تعرفون ماعرضته ، فاذا لم تبدأوا العمل فى خلال اسبوع ، فخذوا الحذر لانفسكم ! » . وأستدار فغادر كوخ شيخ القرية ، وفك رباط فرسه ، بعد أن كان من مظاهر العلاقات بينه وبين الاهالى ان يتقدم أحد شيوخهم فيقف ممسكا ركاب الفرس . بينما يقف ووكر على بقعة عالية ويرفع نفسه ببطء الى صهوة الجواد .

وفى الليلة ذاتها ، كان ووكر يتمشى كعادته فى الطريق الذى يمر بجوار داره ، واذا به يسمع شيئا يمرق بجانبه ، ثم يرتطم بشجرة .. وكان جليا أن قذيفة ما قد وجهت اليه ، فدفعته غريزته الى التنحى ، وصاح : « من هذا ؟ » . ثم جرى نحو المكان الذى انبعثت منه القذيفة . فسمع صوت شخص يهرب خلال الشجر . وأدرك أن من العبث مطاردة هذا الشخص فى الظلام ، فضلا عن أن انفاسه سرعان ما تهدجت ، فوقف . ثم عاد الى الطريق ، وأخذ ينظر حوله ليعرف كنه الشىء الذى سدد اليه . ولكنه لم يعثر على شىء ، اذ كان الظلام دامسا . فرجع مسرعا الى الدار ، ونادى ماكنتوش والخادم الصينى ، وقال لهما : « لقد رمانى أحد هؤلاء الشياطين بشىء ما . فتعاليا معى لنبحث عنه ! » . وطلب من الصبى أن يحضر مصباحا .. واتجه ثلاثتهم الى مكان الحادث ، فأخذوا يبحثون ، ولكنهم لم يجدوا ما كانوا

ينشدون .. وما لبث الخادم أن صاح فجأة ، فالتفت اليه ووكر وماكنتوش. **واذ رفع المصباح الى أعلى، ظهرت فى الضوء – الذى شق الظلام المحيط بالمكان – سكين رهيبة الشكل ، انغرست فى جذع شجرة من أشجار جوز الهند . وتبين أنها رميت بقوة بالغة ، حتى لقد اقتضى نزعها من الجذع جهدا كبيرا !**

وهتف ووكر : « يالله ! .. لولا انه أخطأنى ، لكنت الآن فى حال بديعة ! » وامسك بالسكين ، فاذا بها من تلك السكاكين المصنوعة على نمط مدى الملاحين التى أحضرها – منذ مائة عام – أولئك الذين كانوا أول من ارتاد الجزيرة من البيض.. وهى مدى كانت تستخدم فى شطر ثمرة « جوز الهند » الى نصفين ، لتجفيف لبها .. كما كانت سلاحا قاتلا ، اذ كان نصلها – الذى يبلغ اثنتى عشرة بوصة طولا – حادا جدا ! .. وأخذ ووكر يضحك بصوت خافت ، وقال : « ياله من شيطان! .. ياله من شيطان غبى ! »

ولم يداخله شك فى أن « مانوما » هو الذى رماه بهذه السكين ، وقد نجا من الموت الذى لم يكن يبعد عنه بأكثر من ثلاث بوصات .. ولم يغضب ، وانما كان – على العكس من هذا – فى خير حالات الحبور . والظاهر أن المغامرة أفعمت قلبه سرورا ، حتى انه عندما عاد الى المنزل ، طلب خمرا ، وأخذ يفرك يديه فى ابتهاج ، وهو يقول : « سوف اجعلهم يدفعون ثمن هذا ! » .. وأخذت عيناه الصغيرتان تبرقان ، وانتفش كالديك الرومى ، وأصر للمرة الثانية – فى نصف ساعة – على أن يروى لماكنتوش تفصيلات المسألة ، ثم طلب منه أن يلعب الورق معه .. وظل خلال اللعب يتحدث ويتشدق بما سوف يفعله . وكان ماكنتوش يصغى اليه وشفتاه مغلقتان

ولم يلبث ماكنتوش أن قال له : **« ولكن .. لماذا تحاول**

أن تستحقهم بهذا الشكل ؟ .. ان عشرين جنيها مبلغ زهيد جدا بالنسبة للعمل الذى تريدهم على ان يعملوه ! » فقال : « جدير بهم أن يشكروا لى اننى سأمنحهم أجرا ! » . فقال ماكنتوش : « ولكنه ليس مالك ، فان الحكومة تخصص لك مبلغا معقولا ، ولن تشكو اذا أنت أنفقته كله ! » . فقال ووكر : « انهم عصبة من الاغبياء .. أولئك القوم فى آبيا ! » . وأيقن ماكنتوش من أن الدافع لووكر كان مجرد الزهو والعجرفة . فهز كتفيه ، وقال : « لايجدر بك أن تعادى هؤلاء القوم الى الحد الذى يكلفك حياتك ! »

— كلا فليبارككك الله ! .. انهم لن يؤذونى ، ولن يستطيعوا الاستغناء عنى ، فهم يعبدوننى ، وماتوما غبى ، وما رمى السكين الا لمجرد ارهابى !

وذهب ووكر فى اليوم التالى الى القرية مرة أخرى .. وكانت تدعى (ماتوتو) . ولم يترجل عن جواده ، وانما يمم شطر كوخ شيخ القرية ، فرأى الرجال جالسين على الارض فى حلقة ، وهم يتحدثون . وحدس انهم كانوا يعاودون بحث مسألة الطريق .. وكانت الاكواخ فى جزر (ساموا) تبنى على هذا النحو : تقام جذوع الاشجار الرفيعة فى حلقة على أبعاد تتراوح بين خمس أقدام وست ، ثم تقام شجرة طويلة فى الوسط ، وينساب السقف من هذه فى ميل . وتستخدم أستار مصنوعة من ألياف شجر جوز الهند ، فتسدل فى الليل أو عند هطول المطر ، وفيما عدا ذلك ، تكون الاكواخ — عادة — مفتوحة من جميع جوانبها ، حتى يتسنى للهواء أن يتخللها

وتقدم ووكر الى حافة الكوخ ، ونادى الشيخ قائلا : « **اسمع ياتانجاتو .. لقد ترك ابنك سكينه فى شجرة ، فى الليلة الماضية ، وها أنذا أعيدها اليك !** » . وألقى بالسكين على الارض — وسط حلقة الرجال — ثم استدار بجواده وابتعد !

* * *

وخرج فى يوم الاثنين يتبين ما اذا كانوا قد بداوا العمل . ولكنه لم ير مايوحى بذلك ، فانطلق الى القرية ، واذا رجالها يقومون بأعمالهم اليومية : بعضهم ينسج الحصير من أليـاف الشجر ، ورجل مسن مقبل على احتساء شراب « الكافا » ، والاطفال يلعبون ، والنساء يؤدين أعمالهن المنزلية .. وتقدم ووكر — والابتسامة على شفتيه — الى دار الشيخ الذى قابله بالتحية فردها اليه . ورأى ((مانوما)) يصنع شبكة ، وقد جلس والسيجارة بين شفتيه .. وما أن رأى ووكر ، حتى تطلع اليه وعلى شفتيه ابتسامة الانتصار .

وقال ووكر : « هـل قررتم أن لا تعملوا فى الطريق ؟ » . فرد الشيخ قائلا : « ليس قبل أن تدفع مائة جنيه ! »

واذ ذاك قال ووكر : « لسوف تندم على هـذا ! » . ثم التفت الى مانوما وقال : « وأنت أيها الصبى .. لن أعجب اذا مارأيت ظهرك متقرحا من ضرب السياط ، قبل أن يطول بك العمر ! » . ولكز جواده مبتعدا ، وهو يقهقه تاركا القوم فى قلق . فقد كانوا يرهبون هذا الكهل البدين الاثيم . ولم يفلح غضب الارساليات عليه ، ولا روح السخط التى تعلمها ((مانوما)) فى (آبيـا) ، فى حملهم على أن ينسـوا انه كان شيطانا ماكرا ، وانه ما من شخص أساء اليه ، الا وانتهى به الامر الى مكابدة الامرين !

وقدر لهم أن يتبينوا — فى غضون اربع وعشرين ساعة — الخطة التى دبرها .. كانت خطة عجيبة ! .. فما ان انبلج صباح اليوم التالى ، حتى وفد فريق كبير من الرجال والنساء والاطفال .. وقال زعماؤهم أنهم اتفقـوا مع « ووكر » على شق الطريق ، وانه عرض عليهم عشرين جنيها فقبلوها ! .. اما موطن الخبث فى الخطة ، فيتجلى فى أن لعشائر ((البوانيز)) تقاليد فى الضيافة لها حكم القانون . فهناك تقاليد صارم يقضى على أهل القرية بأن لايكتفوا بايواء الاغراب ، وانما كان لزاما

عليهم كذلك أن يزودوهم بالمأكل والمشرب طول فترة اقامتهم .. وهكذا تورط أهل (ماتوتو) ، ووقعوا فى الفخ ! ..

وأخذ العمال يخرجون فى كل صباح ، فى عصبة مرحة ، فيقطعون الاشجار ، وينسفون الصخور ، ويمهدون الارض هنا وهناك ، ثم يعودون فى المساء الى القرية ، فيأكلون ويشربون ، ويرقصون ويغنون الاناشيد ، ويتمتعون بالحياة ! .. كانت المسألة بالنسبة اليهم أشبه برحلة للترويح . ولكن أهل القرية لم يلبثوا أن أظهروا التجهم والتبرم . فقد كان الاغراب ذوى شهية نهمة .. وأخذت ثمار الفاكهة كالموز وغيره تختفى بفضل ضراوتهم فى الاكل . وتعرت أشجار الكمثرى التى كانت ثمارها ترسل عادة الى (آبيا) جميعها . وبدأ شبح الخراب يلوح أمام الاهالى الذين لاحظوا أيضا أن الغرباء كانوا يعملون فى بطء شديد .. فهل أوحى اليهم ووكر بأن يتلكأوا ؟ .. لو أنهم استمروا على هذا البطء فلن تبقى فى القرية لقمة من طعام ، عندما تحين نهاية العمل فى الطريق ! .. والانكى من ذلك انهم أصبحوا اضحوكة . فما ان يذهب أحدهم الى أية قرية بعيدة — فى مهمة ما — حتى يجد أن القصة قد سبقته ، فيقابل بالضحك والسخرية . وليس ثمة ما يضيق به أبناء عشيرة « أكاناكا » كالسخرية منهم ! ولم يطل الوقت حتى أخذ هؤلاء المنكوبون يتبادلون الحديث فى غضب ، ولم يعد « مانوما » بطلا فاضطر الى أن يصبر على ما كان يوجه اليه من حديث صريح . وقد وقع ذات يوم ما كان « ووكر » يرتقبه . اذ احتدم الجدال وتحول الى شجار ، فاندفع ستة من الشباب ، وهجموا على نجل شيخ القرية ، وكالوا له من الضرب ماجعله يرقد أسبوعا على الحصير ، لايستطيع حراكا من الجروح والكدمات التى أصابته .. ولبث يتقلب من جنب الى آخر ، دون أن يجد راحة فى التقلب !

وكان المدير يفد على فرسه — كل يوم أو يومين — يراقب

سير العمل فى شق الطريق . ولم يكن من الذين يستطيعون مقاومة اغراء الشماتة فى عدو مهزوم ، فلم يترك فرصة الا انتهزها ليذكر أهل « ماتوتو » بمرارة هوانهم . وبذلك حطم روحهم المعنوية . وفى صباح ذات يوم ، وضعوا كبرباءهم فى جيوبهم — وهذا تعبير على سبيل المجاز فقط ، اذ لم يكن لهم جيوب ما ! — وخرجوا مع الغرباء ، وشرعوا يعملون فى الطريق ، مدركين ما لانجاز العمل بسرعة من أهمية ، اذا أرادوا أن ينقذوا ما كان لديهم من أغذية . وهكذا اشتركت القرية بأسرها فى العمل .. ولكنهم كانوا يعملون فى صمت ، بقلوب عامرة بالغضب والكمد .. وشاع هذا الصمت حتى شمل الاطفال أيضا . وكانت النسوة يبكين وهن ينقلن حزم الاعشاب . فلما رآهم ووكر ، ضحك ملء شدقيه ، حتى كاد يقع عن الجواد ! .. وسرعان ما انتشرت الانباء ، فود أهل الجزيرة أن يموتوا خزيا !

وكانت هذه كبرى المهازل ، وتاج النصر لذلك الكهل الابيض الماكر ، الذى لم يستطع أحد من ((الكاناكا)) أن يغلبه مرة !..
وأخذ الناس يتوافدون من القرى البعيدة، مصطحبين نساءهم وأطفالهم ، ليشهدوا أهل القرية الاغبياء ، الذين رفضوا عشرين جنيها مقابل شق الطريق ، ثم اضطروا الى العمل بلا مقابل ! .. وكلما زادوا من نشاطهم فى العمل ، وضاعفوا من جهودهم ، اشتد تباطؤ الضيوف . اذ لم يكن ثمة مايدعو الى التعجل ، ماداموا يحصلون على أغذية وافرة بلا مقابل !

* * *

وأخذت المهزلة تزداد طرافة ، بازدياد الفترة التى كانوا يستغرقونها فى انجاز العمل ، حتى لم يعد لدى القوم طاقة على الصبر ، فجاءوا — فى ذلك الصباح — ليلتمسوا من المدير ان يعيد الاغراب الى ديارهم ، واعدين اياه بأن ينجزوا العمل

فى شق الطريق بغير مقابل !.. وكان هذا نصرا تاما – لا نزاع فيه – لووكر . فقد أذلهم !

وانتشرت على وجهه الكبير امارات غبطة متعجرفة ، وقبع فى مقعده وكأنه ضفدعة كبيرة ، وشاعت فى أساريره امارات الشر – مما جعل ماكنتوش يرتعد اشمئزازا واستهجانا – ثم أخذ يتكلم بصوته العالى قائلا : « أترونني أشق هذا الطريق لمصلحتى ؟ .. ماذا تظنوننى أفيد من ورائه ؟ .. انما أصنعه لكم ، حتى تتمكنوا من السير فى راحة ، وحتى تنقلوا جوز الهند فى يسر . وقد عرضت أن أدفع لكم أجرا عن عملكم . مع أن الطريق يشق لمصلحتكم .. عرضت عليكم أجرا سخيا. وقد حق عليكم أن تدفعوا أنتم الآن .. سأعيد أهل (مانوا) الى ديارهم اذ أنتم أتممتم الطريق ودفعتم العشرين جنيهـا التى يجب أن أعطيهم اياها ! »

وصدرت صيحة عالية من الرجال .. وحاولوا أن يتفاهموا معه، ذاكرين أنهم لم يكونوا يملكون المبلغ . ولكنه قابل أقوالهم بالتهكم والتشفى . ثم دقت الساعة ، فقال : « لقد حان وقت الغداء .. فاخرجوهم من هنا ! » . ثم نهض بتثاقل وغادر الغرفة . وعندما لحق به ماكنتوش ، وجده قد جلس فعلا الى المائدة ، وربط المنشفة حول عنقه ، وأمسك بالشوكة والسكين استعدادا للطعام الذى كان الطاهى الصينى يوشك أن يحضره . وكان فى خير حالات الانشراح !

وعندما جلس ماكنتوش قال ووكر : « لقد قهرتهم بشكل جميل ، ولن أجد بعد ذلك صعوبة كبيرة فى انشاء الطرق !» . فقال ماكنتوش ببرود : « أعتقد انك تمزح ! » . فهتف به « ماذا تعنى ؟ »

– ما أراك ستحملهم حقا على دفع العشرين جنيها !

– بل أراهن بحياتى على أننى سأحملهم على هذا !

– لست أرى أن هناك أى حق يخولك هذا .

ـ أحقا ؟ ! .. ولكنى أعتقد أن لى الحق فى أن افعل أى شىء يروق لى فى هذه الجزيرة ...

ـ أعتقد أنك قد أرهبتهم بما فيه الكفاية

فقهقه ووكر ، ولم يأبه لما كان ماكنتوش يراد ، وانما قال : ((عندما أحتاج الى رأيك سأطلب منك أن تدلى به !))

فشحب وجه ماكنتوش .. وكان يعرف بالتجربة المريرة انه لا يملك سوى التزام الصمت ، وقد أدى به ما بذله من مجهود عنيف فى ضبط أعصابه ، الى الشعور بالتوعك ، وبأنه مشرف على الاغماء ، فلم يستطع أن يأكل كل الطعام الذى كان أمامه ، وأخذ ينظر فى اشمئزاز الى ووكر وهو يلقى بقطع اللحم فى فمه الواسع .. كان قذرا فى طريقة أكله ، وكان الجلوس معه على مائدة واحدة يتطلب معدة قوية . وارتجف ماكنتوش ، وتملكته رغبة جامحة فى تحقير هذا الرجل الضخم القاسى .. وود لو استطاع أن يبذل أى شىء فى العالم كى يراه متمرغا فى التراب ، يقاسى بقدر ما كان يحمل سواه على أن يقاسوا ! .. أبدا ما شعر ماكنتوش بالكراهية نحو هذا الثور بقدر ما شعر اذ ذاك !

وأخذ اليوم يولى .. وحاول ماكنتوش النوم بعد الغداء ، ولكن الانفعالات التى أحس بها فى فؤاده منعته من ذلك . وحاول أن يقرأ ، ولكن الحروف والكلمات كانت تتراقص أمام عينيه . وكانت الشمس ترسل أشعتها فى قسوة ، فتاق الى المطر ، وان أدرك أن المطر لن يأتى معه بشىء من البرودة ، وانما كان خليقا بأن يزيد الجو حرارة ويفعمه بالرطوبة . ولقد كان من أهل (أبردين) ، ولهذا هفا قلبه فجأة الى الرياح المثلجة التى تصفر خلال الشوارع الجرانيتية فى هذه المدينة . أما هنا ـ فى هذه الجزيرة ـ فقد كان أسيرا .. لم يسجنه البحر وحده ، وانما كان حبيس كراهيته لهذا الكهل الفظيع كذلك !

وأخذ ماكنتوش يضغط رأسه المصدوع .. وود لو استطاع

ان يقتل ذلك الرجل ، ولكنه استطاع أن يتمالك نفسه ، ورأى ان عليه ان يفعل شيئا ليبعد عقله عن التفكير فى هذه الناحية . وإذ لم يستطع القراءة ، فكر فى ترتيب أوراقه وتنظيمها . وهى مهمة فكر فى القيام بها منذ فترة ، ولكنه كان يرجئها باستمرار . وفتح درج مكتبه فأخرج حزمة من الرسائل .. ووقع نظره على مسدسه ، فأومضت فى رأسه فكرة سرعان ما تلاشت .. **تلك هى أن يطلق رصاصة على رأس ووكر ، لينجو من ذلك القيد غير المحتمل فى الحياة ! .. ولاحظ أن بالمسدس شيئاً من الصدأ بسبب رطوبة الجو ، فأخذ ينظفه ..** وفيما كان منهمكا فى هذا ، اشتد به شعور بأن هناك من كان يتلصص حول الباب ، فرفع رأسه وصاح : « من هناك ؟ » . ومضت برهة ،ثم ظهر مانوما فقال له : « ماذا تريد ؟ »

ووقف نجل الشيخ برهة فى صمت ، فلما تكلم كان صوته مختنقا .. وقال : « ليس بوسعنا أن ندفع عشرين جنيها ، اذ أننا لا نملك المبلغ ! » . فقال ماكنتوش : « وماذا أملك أن أفعل ؟ .. لقد سمعت ما قاله المستر ووكر ! » . وأخذ مانوما يرجو ويستعطف فى كلمات نصفها بلغة أهل (ساموا) ، ونصفها الآخر بالانجليزية ، وكلها رجاء واستعطاف ، وكأنها أنشودة شحاذ ، مما ملأ قلب ماكنتوش بالاشمئزاز . **فقد احنقه أن يرى الشاب يسمح لسواه بأن يسحق بهذا الشكل ، وأن**

يصبح ((شيئا)) يدعو الى الرثاء !

وقال ماكنتوش اخيرا : ((لا أستطيع عمل شيء ، فأنت تعرف أن المستر ووكر هو الصيد هنا !)) . فعاود مانوما صمته ، وظل واقفا عند الباب . وأخيرا قال : ((اننى مريض ، فاعطنى بعض الدواء !))

ـ وماذا بك ؟

ـ لا أعلم .. اننى مريض ، وأشعر بالآلام فى كل جسمى

ـ لا تقف هناك .. تعال ودعنى أراك !

فدخل مانوما الغرفة ، ووقف قبل أن يصل الى المكتب ، وقال : ((أشعر بالألم هنا .. وهنا)) . ووضع يديه على ردفيه ووجهه . وارتسمت على وجهه معالم الالم . وفجأة ، شعر ماكنتوش بأن عينى الفتى كانتا مصوبتين الى المسدس الذي كان قد وضعه على المكتب عندماظهر مانوما عندالباب . وساد الصمت بين الرجلين ، وخيل لماكنتوش أنه صمت لا ينتهى .. وتراءى له أنه يقرأ الافكار التى كانت تتردد فى عقل الفتى ، فراح قلبه يدق بعنف .. ثم شعر بأن شيئا ما قد تملكه ، فاصبح يتصرف تحت دفع ارادة أجنبية عنه ، ولم يعد هو الذى يوجه حركات جسمه ، وانما كانت تحركه قوة غريبة عليه ! .. وأحس بأن حلقه قد جف فجأة ، فوضع يده عليه بحركة آلية ، ليتمكن من الكلام . واضطر الى تجنب عينى مانوما .. وقال فى صوت كأنه خارج من حنجرة قبض على قصبتها الهوائية شخص ما : ((انتظر هنا ، وسوف احضر لك شيئا من الصيدلية !))

ونهض .. أفكان وهما أن أحس بأنه يترنح ؟. ووقف مانوما فى صمت ، ومع أن ماكنتوش كان محولا عينيه عن مانوما ، فانه أحس بأن الفتى كان يتطلع فى بلاهة الى البـــاب . وكان الشخص الآخر الذى تقمص ماكنتوش هو الذى راح يدفعه الى خارج الغرفة ، ولكنه كان هو نفسه الذى اخذ حفنة من

الاوراق المتناثرة ، والقاها على المسدس ليخفيه عن البصر ، قبل أن يذهب الى الصيدلية ، فيأخذ منها قرصا من دواء ، ويصب سائلا أزرق اللون فى زجاجة .. ثم خرج الى الفناء . ولم يشأ أن يعود الى مسكنه ، ولهذا نادى مانوما ، وأعطاه الدواء وزوده بالتعليمات الخاصـــة بتعاطيه .. **ولم يدر ما الذى جعل من المستحيل عليه أن ينظر الى مانوما ، فقد ظل ـ وهو يحدثه ـ مثبتا عينيه صوب كتفى الفتى . وأخذ مانوما الدواء وتسلل من الباب .**

ودخل ماكنتوش الى غرفة الطعام ، وعاد يقلب الصحف القديمة ، ولكنه لم يستطع القراءة .. كان السكون مخيما على المنزل ، وكان ووكر نائما فى غرفته فى الطابق الاعلى ، والطاهى الصينى مشغولا فى مطبخه ، والشرطيان يصطادان السمك . وخيل اليه أن السكون الذى خيم على المنزل كان سكونا غير طبيعى .. وكان التساؤل عما اذا كان المسدس لا يزال فى المكان الذى تركه فيه يطرق رأسه كالمطرقة ! .. ولم يستطع أن يحمل نفسه على التحقق من ذلك .. كان عدم التأكد فظيعا ، ولكن التأكد كان أفظع . وأخذ العرق يتصبب منـــه .. ولم يستطع فى النهاية احتمال هذا السكون ، فاستقر رايه على أن يخرج الى الطريق ، ويذهب الى التاجر : وكان رجلا يدعى جرفيس ، يمتلك متجرا على حوالى ميل .. وكان خليطا ـ من أب أبيض وأم من الاهالى ـ ولكن هذا القدر من الدم الابيض الذى يجرى فى عروقه ، جعل تبادل الحديث معه أمرا محتملا .. **ولقد كان ماكنتوش تواقا الى الابتعاد عن مسكنه ، وعن مكتبه الذى تناثرت فوقه الاوراق ، وتحتها شىء ما ، أو .. لا شىء ؟!**

ومشى فى الطريق ، وكلما مر بكوخ احد الزعماء ، تصاعدت اليه التحيات . واخيرا وصل الى المتجر ، فاذا ابنة التاجر تجلس وراء منضدة البيع .. وكانت فتاة ســمراء ، ذات قسمات عريضة ، وقد ارتدت سترة وردية اللون ، «وجونلة»

بيضاء . وكان ابوها «جرفيس» يأمل أن يوفق الى تزويجها . فقد كان يملك مالا . وقد قال لماكنتوش أن من يتزوجها يصبح فى سعة !

* * *

وعندما رأت ماكنتوش يدخل المتجر ، تضرج وجهها هونا ما ، وقالت : « ان أبى يفض بعض الصناديق التى وصلت هذا الصباح ، وسوف أبلغه أنك هنا ! » . فجلس ، بينما ذهبت الفتاة الى ما وراء المتجر . وان هى الا برهة حتى دلفت ام الفتاة الى الحانوت . وكانت سيدة ضخمة الجثة ، تحب السيطرة وتتمتع بقدر كبير منها . وكانت بدانتها الفظيعة تبديها بمظهر مستهجن ، ولكنها استطاعت أن توقع فى نفس رائيها وقارا . فكانت تظهر الود فى غير تذلل ، وتظهر التواضع وهى تشعر بمركزها .

ومدت يدها الى ماكنتوش وقالت : « ما أغربك يا مستر ماكنتوش ! . . لقد كانت تريزا تسألنى فى هذا الصباح بالذات عنك ، قائلة : لماذا لم نعد نرى المستر ماكنتوش ! » . وشعر برجفة خفيفة اذ تصور نفسه زوجا لابنة هذه السيدة الوطنية العجوز . فقد كان المعروف عنها أنها تتحكم فى زوجها برغم دمه الابيض ، وتقبض عليه بيد من حديد . فكانت السلطة سلطتها ، وكانت هى الرأس المفكر المدبر للعمل . . وقد

لا تكون أكثر من المسز جرفيس فى نظر البيض ، ولكن والدها كان زعيما من الدم الملكى ، وقد كان أبوه وجده يحكمان كملكين!
وأقبل التاجر وكان يبدو ضئيلا بجوار زوجته .. كان رجلا أسمر ، ذا لحية سوداء أخذ المشيب يدب فيها ، وعينين جميلتين ، وأسنان ناصعة البياض . وكان بريطانيا قحا ، كما كانت لغته انجليزية عامية . ولكنك تشعر بأنه يتكلم بالانجليزية كلغة أجنبية ، إذ كان يتكلم مع أسرته بلغة أمه التى كانت من أهل الجزيرة .. وكانت تبدو عليه علامات الخضوع والخوف والذلة . وقد رحب بماكنتوش قائلا : « آه يامستر ماكنتوش ، أنها لمفاجأة مبهجة حقا ! .. احضرى لنا الويسكى يا تريزا ، فلسوف يتناول المستر ماكنتوش جرعة معنا ! » .
وأخذ يروى جميع أخبار (آبيا) ويرقب عينى الضيف فى الوقت ذاته ، ليعرف الحديث الذى يروق له . وما لبث أن سأله : « وكيف حال ووكر ؟ .. اننا لم نره فى الايام الاخيرة . وسوف ترسل له المسز جرفيس خنزيرا رضيعا فى يوم ما . خلال هذا الاسبوع ! » . وقالت تريزا : « لقد رأيته عائدا على جواده هذا الصباح » . وقدم جرفيس الويسكى لماكنتوش . فشرب هذا كأسه ، بينما جلست السيدتان تتأملانه : الام هادئة متشامخة ـ فى ثوبها الاسود ـ وتريزا تحاول أن تبتسم كلما وقعت عينها على عينه .. بينما كان التاجر يثرثر دون أن يتعب !
وقال جرفيس : « يقولون فى آبيا أن الوقت قد اقترب لكى يعتزل ووكر الخدمة ، اذ انه لم يعد صغير السن ، وقد تغيرت الاحوال منذ حضوره الى هذه الجزر ولكنه لم يتغير معها ! » . وقالت الرئيسة العجوز : « انه يتمادى .. والاهالى غير راضين ! » . فضحك التاجر قائلا : « لكم كانت مسألة الطريق مضحكة . وعندما رويتها للقوم فى (آبيا) قهقهوا جميعا حتى كادت جنوبهم أن تنفجر .. يا لووكر العجوز ! »

فنظر اليه ماكنتوش بحدة ، وحار فى تعرف ما كان التاجر يعنيه بكلامه عن ووكر بهذه الطريقة . فقد كان ووكر بالنسبة لتاجر من أم من الاهالى « مستر ووكر » . وكان ماكنتوش على وشك أن يوجه لوما مقذعا من جراء هذه الفقحة . ولكنه لم يعرف ما الذى منعه !

وقال جرفيس: « آمل أن تحل محله يا مستر ماكنتوش اذا ما ذهب . فانت تفهم الاهالى ، وقد أصبحوا متعلمين ، ولا بد من معاملتهم بطريقة تختلف عن ذى قبـل .. أن الحاجة تدعو الآن الى مدير متعلم ، ولم يكن ووكر غير تاجر مثلى ! ».

فلمعت عينا تريزا ، بينما تابع والدها الحديث قائلا : « وثق أنه لو كان هناك أى شىء يمكن الانسان هنا أن يفعله ـ عندما يحين الوقت ـ فسوف نفعله . وسأجمع كل الزعماء ، ونذهب الى آبيا لنقدم التماسا ! »

وشعر ماكنتوش بغثيان شديد ، فما سبق له ان فكر فى أنه قد يخلف ووكر اذا حدث لهذا المدير شىء ، وان لم يكن ثمة شخص ـ فى مركزه الرسمى ـ يعرف الجزيرة كما كان يعرفها هو . فنهض فجأة ، وخرج عائدا الى الدار ، دون أن يحيى مضيفيه تقريبا . فلما بلغها ، قصد الى غرفته رأسا ، وألقى نظرة خاطفة على مكتبه ، ثم نبش ما عليه من أوراق ونقب خلالها وتحتها ..

ولم يكن المسدس موجودا ! .. ودق قلبه بعنف ، حتى كاد يخرج من بين ضلوعه . وأخذ يبحث عن المسدس فى كل مكان، ففتش المقاعد والادراج . وكان يبحث بيأس ، اذ كان يوقن من أنه لن يجده ! .. وفيما كان كذلك ، سمع صوت ووكر الجهورى الخشن ، يسأله قائلا : « ماذا تفعل يا ماك ، بحق الشيطان ؟ » . فجفل ماكنتوش اذ وجد ووكر واقفا بالباب ، وتحول بغريزته ليخفى الاشياء الملقاة على مكتبه . بينما قال ووكر فى حيرة : « هل ترتب أشياءك ؟ .. لقد طلبت اسراج

الفرس فى المركبة ، اذ أننى ذاهب الى « تافونى » للاستحمام ويحسن بك أن تأتى انت كذلك ! »

ووافق ماكنتوش ، فما كان من المحتمل ان يقع لووكر شيء طالما كان هو معه . وكان المكان الذى يقصدان اليه يبعد نحو ثلاثة أميال ، وفيه بركة من الماء العذب يفصلها عن البحر حاجز رقيق من الصخر ، كان المدير قد نسفه لكى يتيح للاهالى منطقة للاستجمام .. وقد فعل مثل هذا فى مناطق كثيرة حول الجزيرة ، لا سيما فى البقاع التى كانت تجرى فيها جداول .. وكان الماء العذب يبدو باردا منعشا ، اذا قورن بماء البحر الدافىء اللزج !

وسارا فى الطريق المعشوشب الساكن . وكانت المركبة تمر بين الحين والآخر فى مخاضة من المخاضات الكثيرة التى شق البحر طريقه اليها بين القرى . وكانت الاكواخ المبنية على شكل الاجراس متناثرة على أبعاد متسقة وفى وسطها الكنيسة البيضاء الصغيرة . وعندما وصلا الى القرية الثالثة ، ترجلا من المركبة واوثقا الفرس ، ومشيا الى البركة . ورافقتهما أربع فتيات أو خمس ، ونحو ستة من الاطفال . وسرعان ما كان الجميع فى الماء يلعبون ويتصايحون ويتضاحكون ، بينما أخذ ووكر يسبح رائحا غاديا - وكأنه خنزير بحرى ضخم - وهو يداعب الفتيات بفجور ، فيغطسن تحت الماء ، ويحاولن الافلات كلما حاول الامساك بهن .. حتى اذا تعب ، جلس على صخرة . فسرعان ما تلتف الفتيات والاطفال حوله ، وكأنهم أفراد أسرة سعيدة . وكان الكهل يبدو بضخامته وهلال الشعر الابيض الذى فى مؤخرة رأسه ، وصلعته اللامعة ، كأنه من آلهة البحر .. ولقد فاجأه ماكنتوش مرة وفى عينيه نظرة رقيقة غريبة ، وما لبث أن قال : « انهم أطفال أعزاء ، ينظرون الى كما لو اننى كنت أباهم ! »

وتحول الى احدى الفتيات فأبدى لها ملاحظة بذيئة اسلمت

الجميع الى نوبات من الضحك . واخذ ماكنتوش يرتدى ملابسه ، فبدا بساقيه الرفيعتين وذراعيه النحيلتين ، هيكلا مضحكا ، أشبه بدون كيشوت ، مما جعل ووكر يطلق عليه دعابات قاسية قوبلت بضحكات مكتومة . واخذ ماكنتوش يناضل كى يرتدى قميصه ، وهو يعرف أنه يبدو فى مظهر مضحك .. وكان يكره أن يكون موضع سخرية ، فوقف يحملق فى صمت ! .. وما لبث أن قال لووكر : « اذا شئت أن تعود فى موعد العشاء ، فعليك بالتعجيل ! »

ـ أنك لست فتى شريرا يا ماكنتوش ، وانما أنت غبى .. فبينما تكون منهمكا فى عمل ، اذا بك تريد أن تعمل شيئا آخر ، واليست هذه بالطريقة المثلى للحياة !

ولكنه ـ مع هذا ـ نهض ببطء ، واستوى على قدميه ، واخذ فى ارتداء ملابسه . ثم عادا الى القرية وشربا قدحا من « الكافا » مع زعيمها . وما لبثا أن عادا بالعربة الى دارهما بعد وداع مرح من جميع القرويين الكسالى . حتى اذا فرغا من تناول طعام العشاء ، أشعل ووكر سيجارا ، واستعد كعادته للخروج فى جولة . وما ان لاحظ ماكنتوش هذا ، حتى تملكه الخوف فجأة ، وقال : « الا ترى أنه ليس من الحكمة أن تخرج الآن فى الليل وحدك ! »

فاستدار ووكر وتفرس فى وجهه بعينيه الزرقاوين المستديرتين وقال : « ماذا تعنى بحق الشيطان ؟ »

ـ تذكر حادث السكين منذ ليال ، لا سيما بعد أن أثرت هؤلاء الناس وأغضبتهم !

ـ انهم لا يجرؤون على شىء البتة !

ـ لقد تجرأ أحدهم من قبل ..

ـ كان ذلك من قبيل الارهاب ، ولكنهم لن يؤذونى ، فهم ينظرون الى كأنى والدهم ، ويعرفون ان كل ما افعله لمصلحتهم .

وكان ماكنتوش يراقبه ويشعر نحوه باشمئزاز ، وقد غاظه

أعتداد الرجل بنفسه . ومع هذا ، فقد كان هناك شيء — لم يدرى كنهه — يدفعه الى الالحاح . فقال : « تذكر ما حدث صباح اليوم !.. انك لن تضار اذا بقيت فى البيت الليلة فقط، وسوف العب الورق معك ! »

— سألعب معك عندما أعـود .. لم يخلق بعـد بين هؤلاء الاهالى من يستطيع أن يحملنى على تغيير خططى !

— اذن يحسن أن تدعنى أذهب معك

— بل ابق حيث أنت !

فهز ماكنتوش كتفيه ، اذ أنه أنذر الرجل انذاراً تاما . فاذا كان قد اغفله فهذا شأنه . ووضع ووكر القبعة على رأسه وخرج . وبدأ ماكنتوش يقرأ ، ولكنه رأى فجأة أنه قد يكون من الخير أن يثبت وجوده فى ذلك المكان . فنهض ودخل المطبخ منتحلا ذريعة لدخوله ، وظل يتحدث بضع دقائق مع الطاهى ، ثم أخرج « الجراموفون » ووضع اسطوانة عليه .. وبينما كانت نغمات الاغنية اللندنية المرحة تتردد ، كانت أذنه مرهفة لسماع صوت فى وسط هذا الليل .. وظلت الاسطوانة تدور عند كتفيه ، ونغماتها تعلو فى صـوت أجش . ومع ذلك فقد خيل اليه أنه محاط بصمت شيطانى . وكان يسمع هدير الامواج تارتيب المد على الشاطىء ، وتأوهات النسيم تنبعث من بين أوراق شجر جوز الهند العالية .. والى متى يطول هذا ؟ .. ياله من شىء رهيب !

وسمع قهقهة خشنة ، وصوت ووكر يقول : « ان العجائب لا تنقطع، فليس من عادتك أن تسمع اسطوانات يا ماكنتوش!» .. وكان ووكر يقف فى باب الشرفة ، ووجهه أحمر يشيع فيه السرور . ومضى يقول : « ها انتذا ترانى حيا . ولكن .. لماذا كنت تدير الجراموفون ؟ » . ودخل الى القاعة ، وهو يقول : « هل أعصـابك متوترة ، فأدرت الجراموفون لتروح عن نفسك ؟ »

ـ لقد كنت أسمع لحن جنازتك !

ـ وما هو بحق الشيطان ؟

ـ انها أغنية : « نصف من البيرة المرة وقدح من الاستاوت » !

ـ انها أغنية جميلة ، لا أمل سماعها فى أغلب الاوقات . والآن . . اننى على استعداد لان أستولى على نقودك فى لعب الورق !

ولعب الاثنان ، وشق ووكر طريقه الى الربح بالخداع والتهريج والسخرية من أخطاء ماكنتوش ، والمراوغة والتهويش . . وأخيرا ، استعاد ماكنتوش رباطة جأشه ، واستطاع أن يشعر بتسرية اذ راح يراقب هذا الكهل المتغطرس . . وكان يعلم أن « مانوما » يجلس فى مكان ما ، يتحين فرصته !

* * *

وظل ووكر يربح اللعبة بعد الاخرى . وفى النهاية ، وضع ما كسبه فى جيبه وهو جذل فرحان ، وقال لماكنتوش : « يجب أن تكبر سنا قبل أن تستطيع مجاراتى فى اللعب يا ماك ، لانى فى الواقع موهوب بالسليقة فى لعب الورق ! »

ـ لا اعرف أن من المواهب أن يأتى اليك الورق جزافا !

ـ الاوراق الرابحة تأتى للاعب الماهر ، ومع هذا فقد كان فى استطاعتى أن أكسب لو لعبت بورقك !

واخذ يروى قصصا طويلة عن مختلف المناسبات التى لعب فيها الورق مع لاعبين مشهورين باتقانهم للعب وتوسلهم بالاحتيال والنصب ، فكانت النتيجة انه اخذ منهم كل اموالهم . وظل يفخر ويزهو ويمدح نفسه ، وكان ماكنتوش يصغى باهتمام ، لانه يريد أن يغذى كراهيته له ، فكانت كل كلمة يقولها ووكر وكل ايماءة منه تزيد فى بغضه له . وأخيرا نهض ووكر وتثاءب بصوت عال وقال : « سأذهب للنوم لان امامى

يوما طويلا غدا ! »

ــ ما الذى ستفعله ؟

ــ سأذهب الى الجانب الآخر من الجزيرة . ولذلك فسأخرج فى الساعة الخامسة صباحا ، ولا ينتظر أن أعود فى موعد العشاء ، بل سأعود فى ساعة متأخرة !

وكانا يتناولان طعام العشاء عادة فى الساعة السابعة مساء . فقال ماكنتوش : « فليكن العشاء فى الساعة السابعة والنصف ! »

ــ أظنه موعدا مناسبا

وراقبه ماكنتوش وهو ينفض بقايا التبغ من غليونه ، فاذا حركاته خشنة وحيويته طاغية . وكان من الغريب حقا التفكير فى أن الموت مسلط فوق رأسه .. وما لبثت أن لمعت فى عينى ماكنتوش الباردتين الكئيبتين ابتسامة باهتة ، وقال : « هل تحب أن آتى معك ؟ . »

ــ لماذا بالله أحب ذلك ؟ .. أننى سأستخدم الفرس ، ويكفيها أن تحملنى ، وهى لا تود أن تجرك فى طريق طوله ثلاثون ميلا !

ــ لعلك لا تدرك تماما ما هو الشعور السائد فى (ماتوتو) ، وأعتقد أنه من الخير أن أذهب معك !

فانفجر ووكر ضاحكا فى استهتار ، وقال : « انك لخليق بأن تكون ذا نفع كبير فى أى مأزق . أما أنا فلست أجيد اطلاق الساقين للريح ! » . وهنا انسابت الابتسامة من عينى ماكنتوش الى شفتيه ، فاذا بهما تختلجان بشدة . وقال باللاتينية : « من أراد الله أن يقضى عليه ، بعث الغرور فى نفسه ! » . فتساءل ووكر : « ما هذا بحق الجحيم ؟ » . فأجاب ماكنتوش وهو يغادر المكان : « عبارة لاتينية ! »

وأخذ يضحك فيما بينه وبين نفسه ، وقد تغير مزاجه .

لقد بذل كل ما كان فى وسعه ، وأصبحت المسألة ـ بعد هذا ـ فى يد القدر !

ونام ماكنتوش فى هذه الليلة نوما عميقا لم يستمتع به منذ اسابيع . وعندما استيقظ فى صباح اليوم التالى خرج الى الفضاء . وشعر بعد هذه الليلة الطيبة ببهجة كبيرة لبرودة هواء الصباح المبكر . وتراءى له البحر أكثر زرقة ، والسماء أكثر صفاء منها فى أغلب الايام ، والريح رطبة . وكانت ثمة قشعريرة تسرى فى سطح البركة كلما مس النسيم ماءها ، فبدت كمخمل جرت عليه الفرشاة فى اتجاه عكسى . وشعر بنفسه اقوى واكثر شبابا من ذى قبل . وبهذا بدأ عمله اليومى بحمية ونشاط . وعاد الى النوم بعد الغداء . فلما كان الاصيل ، اسرج الجواد ، وقام بجولة خلال الشجيرات . **وخيل اليه أنه يراها بعينين جديدتين . وشعر بأنه فى حال طبيعية أكثر من ذى قبل ، وان كان الغريب فى الامر أنه استطاع أن يقصى ووكر عن تفكيره ، كأنما لا وجود له فى حياته !**

وعاد فى أواخر الاصيل ، وهو يشعر بالحرارة بعد هذه النزهة بالجواد . فدخل الحمام مرة أخرى ، ثم جلس فى الشرفة يدخن غليونه ، ويرقب النهار وهو يتراجع ويختفى وراء البحيرة .. كانت البحيرة تبدو جميلة للغاية فى وقت الغروب ، بفضل ما كان يضفيه عليها الغروب من الوان وردية وقرمزية وخضراء . وشعر بالهدوء ، واطمأن ، وارتاح للعالم ولنفسه . وعندما جاء الطاهى يعلن أن طعام العشاء قد أعد ، ويسأله عما اذا كان يرجىء اعداد المائدة ، ابتسم له ماكنتوش بود ، ثم نظر الى ساعته وقال : « انها الآن السابعة والنصف ، فلا داعى للانتظار ، اذ ليس بوسع أحد أن يحدس متى يحضر الرئيس » . فأومأ الطاهى برأسه . ورآه ماكنتوش يجتاز الفناء حاملا وعاء مملوءا بالحساء ، يتصاعد منه البخار . فقام بتكاسل ، وذهب الى غرفة الطعام ، وتناول عشاءه .

ترى هل وقع الحادث ؟.. كان عدم التأكد مثيرا للاهتمام ، فأخذ ماكنتوش يضحك فى نفسه فى صمت ، لا سيما وان الطعام لم يبـد رتيبا كالعادة . ومع أنه كان يضم قطعا من السجق ــ وهو صنف يلجأ الطاهى الى تقديمه عندما تخونه قوة الابتكار ــ الا ان السجق لاح ــ فى هذه المرة ــ لذيذا ، طريا ، حريفا ! .. حتى اذا انتهى من تناول العشاء نهض ومشى يتهادى الى كوخه ليحضر كتابا ، وقد أحب الهدوء الشامل ، لا سيما وقد اخذ الليل يخيم ، وبدأت النجوم تتألق فى السماء .. وصاح يطلب مصباحا ، فلم تمض لحظة حتى جاء الصينى يدب على قدميه الحافيتين . وتبدد الظلام بالنور الذى ترامى من المصباح الذى حمله .

ووضع الخادم المصباح على المكتب ، وتسلل بغير صوت خارجا من الغرفة . واذا بماكنتوش يقف فجأة وكأنه تسمر فى مكانه ، فقد رأى بين الاوراق المتناثرة مسدسه . فأخذ قلبه ينبض فى ألم ، وتصبب العرق منه .. **اذن فقد وقعت الواقعة !**

والتقط المسدس بيد مرتعشة ، فرأى ان اربعة خزانات من خزانات رصاصه فارغة . ووقف فترة لا ينبس ببنت شفة ، ثم وجه بصره فى شك الى الليل البهيم ، ولكنه لم ير أحدا . فأسرع ووضع أربع رصاصات فى الخزانات الفارغة ، ودس المسدس فى درج مكتبه ، وجلس ينتظر ! .. ومرت ساعة ، ثم أخرى ، دون أن يحدث شىء . وجلس الى مكتبه وكأنه يكتب ، ولكنه لم يكتب ولم يقرأ ، وانما ظل ينصت وقد ارهف أذنيه لعله يسمع صوتا آتيا من بعيد . وأخيرا سمع وقع خطوات مترددة ، فعرف أن صاحبها هو الطاهى الصينى ، فناداه : « آه سونج ! »

وجاء الخادم فوقف لدى الباب ، وقال : « لقد تأخر الرئيس كثيرا ، وأصبح الطعام غير ملائم ! » . فتفرس ماكنتوش

فيه ، وساءل نفسه : أترى الطاهى يعرف ما حدث ؟ .. وهل سيدرك - عندما يعرف - نوع العلاقة التى كانت بينه وبين ووكر ؟ .. ولكن الطاهى الصينى كان يعمل فى صمت وخفة ، والابتسامة مرتسمة على شفتيه . ومنذا الذى يستطيع أن يجزم بما يدور فى خلده ؟

وقال ماكنتوش أخيرا : « أعتقد أنه تناول العشاء فى الطريق ، ولكن عليك أن تحتفظ بالحساء ساخنا ، على أية حال ! »

* * *

وما أن انتهى ماكنتوش من قوله هذا ، حتى انقطع حبل الصمت المخيم ، اذ سمعت أصوات مرتبكة ، وصيحات ، ووقع خطوات سريعة لاقدام عارية . ودخل لفيف من الاهالى الى الفناء - رجالا ونساء وأطفالا - فازدحموا حول ماكنتوش، وتحدثوا جميعا فى وقت واحد . فكان حديثهم غير مفهوم .. كانوا مهتاجين ومذعورين .. وكان بعضهم يبكى ! .. فشق ماكنتوش طريقا وسطهم ، وذهب الى الباب . ومع أنه لم يفهم كلام الاهالى ، الا أنه كان يعرف تماما ما حدث . وما أن وصل الى الباب ، حتى وصلت - فى الوقت ذاته - مركبة جلس فيها شخصان يحاولان أن يحملا ووكر . وقد أحاط بالمركبة بعض الاهالى، كما كان أحدهم يمسك بمقود فرس «ووكر» .. واقتيدت الفرس الى الفناء ، وجرى الاهالى وراءها ، فصاح بهم ماكنتوش ليوقفهم . وظهر الشرطيان فجأة ، ولا يعلم الا الله من أين أتيا ، وأخذا يدفعان الاهالى بعنف ويبعدانهم .

وفهم ماكنتوش من الاحاديث المختلطة أن بعض الصبية كانوا يصيدون السمك ، وبينما هم فى طريق عودتهم الى قريتهم ، التقوا بالمركبة ، وكانت الفرس ترعى . ولم يستطيعوا أن يتبينوا فى الظلام غير جسد المدير الضخم المتشح بالبياض غارقا بين المقعد ومقدمة المركبة ، فظنوا فى بداية الامر انه

مخمور .. فأخذوا ينظرون بحزن ، ولكنهم ســـمعوه يئن ، فاعتقدوا أن فى الامر شيئا . **وهرولوا الى القرية طالبين النجدة ، وعندما عادوا ومعهم نحو خمسين شخصا ، اكتشفوا أن ووكر مصاب بالرصاص !**

وتملكت ماكنتوش موجة من الرعب فجأة ، وساءل نفسه : هل مات الرجل ؟ .. ولكن ، كان لا بد من نقله من المركبة قبل كل شىء . وكان الامر عسيرا ، نظرا لضخامة « ووكر » . وقد اقتضى رفعه من المركبة تعاون أربعة رجال أقوياء . وعندما اهتز جسده ، أطلق صرخة مكتومة ، فعرف الجميع أنه لم يزل حيا . فحملوه ودخلوا به المنزل وصعدوا الى الطابق الاعلى ، حيث وضعوه فى الفراش . وهنا تمكن ماكنتوش من رؤيته ، فقد كان كل شىء يبدو غير واضح فى الفناء الذى لم يكن مضاء بغير ستة من المصابيح التى تستخدم فى الاماكن الخلوية .. **وكانت ثياب ووكر البيضاء ملطخة بالدماء ، وقد أخذ الرجال الذين حملوه يفركون أيديهم ليزيلوا ما لصق بها من دماء لزجة ، يمسحونها فى مآزرهم .**

ورفع ماكنتوش المصباح .. ابدا لم يتوقع أن يرى ووكر فى مثل هذا الشحوب .. وكانت عيناه مغلقتين ، ولكنه كان يتنفس ، كما كان نبضه محسوسا ، وان تجلى انه كان يعالج سكرات الموت ! .. واستولى الرعب على ماكنتوش . ورأى الكاتب ـ الذى كان من أبناء الجزيرة ـ فطلب بصوت أحاله الذعر أجش ، أن يذهب الى الصيدلية ويأتى بمعدات الحقن .. وأحضر أحد الشرطيين زجاجة من الويسكى ، فصب ماكنتوش قليلا منها فى فم الكهل ..

وكانت الغرفة مزدحمة بالاهالى الذين جلسوا على الارض فى هلع ، لا ينبسون ببنت شفة ، وان راح يصدر من أحدهم ـ بين الحين والآخر ـ عويل مرتفع . واشتدت حرارة الجو ، ولكن ماكنتوش شعر بالبرد ، فاذا يداه وقدماه باردة كالثلج

.. وراح يبذل مجهودا عنيفـا ، لكى لا تدب القشعريرة فى جميع مفاصله . ولم يكن يدرى ماذا يفعل ، لا ولا كان يعرف ما إذا كانت الدماء لا تزال تنساب من ووكر ، واذا كانت كذلك فانه لم يكن يدرى كيف يوقف النزيف !

واحضر الكاتب ابرة الحقن ، فقال له ماكنتوش : « أحقنه أنت ، فانك اكثر منى مرانا على هذا العمل ! » . وراح يعانى من دق عنيف فى رأسه . وكأن اشياء ضارية تجاهد محاولة الخروج من يافوخه . وأخذ الجميع يرقبون أثر الحقنة .. **ولم يلبث ووكر أن فتح عينيه فى بطء .. ولاح أنه لم يعرف أين كان ! .. وقال ماكنتوش : « الزم الهدوء ، فأنت الآن فى دارك ، وفى أمان تام ! » . فارتسم على شفتى ووكر شبح ابتسامة ، وقال فى همس : « لقد ظفروا بى ! »**

ــ سأحمل جرفيس على ارسـال زورقه البخـارى الى (آبيا) فى الحال ، ولن ينتصف النهار غدا حتى يكون الطبيب قد حضر .

وسادت فترة صمت طويلة ، أجاب بعدها الكهل : « سأكون قد مت عندئذ ! » . وتبدى الجزع على وجـه ماكنتوش الشاحب ، ولكنه تظاهر بالضحك وقال : « ما هذا الهراء ؟ .. التزم الهدوء ، وسوف تتحسن سريعا ! »

ــ اعطنى شرابا ! .. جرعة قوية !

فصب ماكنتوش ــ بيد مرتعشة ــ قدرا من الويسكى ، ومثله من الماء ، وظل ممسكا بالكأس بينما راح ووكر يشرب بلهفة . والظاهر أن الجرعة انعشته ، فأطلق زفرة طويلة ، وبدأ شىء من الحمرة يدب فى وجهه المكتنز الضخم . وشعر ماكنتوش بأنه عديم الحيلة الى أبعد حد ، فوقف واخذ يحملق فى الكهل . ثم قال : « لو انك أبلغتنى ماينبغى أن أفعل لفعلته ! »

ــ ليس هناك مايعمل غير أن تدعنى وشأنى .. فقد انتهيت !

وكان منظره يدعو الى الشفقة ، وهو مسجى على الفراش

الكبير بجسده الضخم المترهل ، وقد بدا شاحب اللون ، ضعيفا الى حد تدمى له القلوب . وعندما استراح ، ظهر ان عقله قد صحا الى حد ما ، اذ قال : « **لقد كنت على حق يا ماك اذ حذرتنى !** »

– ألا ليتنى ذهبت معك !

– أنك فتى طيب يا ماك ، وعيبك الوحيد هو أنك لا تشرب الخمر !

وسادت فترة أخرى طويلة من الصمت ، ثم اتضح ان ووكر كان يحتضر من جراء نزيف داخلى . ولم يصعب على ماكنتوش برغم جهله أن يدرك أنه لم يبق فى عمر رئيسه أكثر من ساعة أو ساعتين ، فوقف بجوار الفراش جامدا ، دون حراك . وظل ووكر نحو نصف ساعة راقدا ، مغلق العينين . وأخيرا فتحهما ، وقال ببطء : « **سيمنحونك منصبى ، وقد قلت لهم فى المرة الاخيرة – التى ذهبت فيها الى آبيا – انك صالح .. فاتمم الطريق الذى بدأته ، فاننى أحب أن أتصور أنه سينتهى بأكمله ، ويدور حول الجزيرة !** »

– لست أريد منصبك ، ولسوف تتحسن حالك !

فهز ووكر رأسه فى عناء وقال : « اننى اخذت نصيبى .. عاملهم برفق ، فان هذا أمر مهم .. انهم أطفال ، ويجب ان تذكر هذا على الدوام ! .. يجب أن تكون حازما معهم ، ولكن من الواجب ان تكون رفيقا بهم ، وأن تكون عادلا كذلك ! .. اننى لم أجن من ورائهم بنسا واحدا ، ولم أقتصد مائة جنيه فى العشرين عاما التى قضيتها فى خدمتهم ! .. ان الطريق شىء عظيم ، فاتممه ! »

وصدر عن ماكنتوش ما يشبه التنهد . بينما واصل ووكر حديثه : « انك فتى طيب يا ماكنتوش ، وقد أحببتك على الدوام ! » . واغلق عينيه فظن ماكنتوش أنه لن يفتحهما بعد ذلك . وكان يشعر بجفاف فى فمه ، حتى أنه تاق الى أى

شراب .. ووضع الطاهى الصينى مقعدا له فى هدوء ، فجلس بجوار الفراش وانتظر .. **ولم يدر كم من الوقت انقضى عليه فى هذه الجلسة ، وكأنما لم تكن لليل نهاية .. وفجأة ، أصيب أحد الجالسين بنوبة من التشنج لم يستطع لها كبتا ، فأخذ يجهش بالبكاء بصوت عال وكأنه طفل .** وعندئذ فطن ماكنتوش الى أن الغرفة كانت مزدحمة بالاهالى ، وقد جلسوا جميعا متربعين على الارض — رجالا ونساء — يحملقون فى الفراش . فصاح : « ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا ؟.. ليس هذا من حقهم ، فاخرجوهم ! .. اخرجوهم ! .. اخرجوهم !»

والظاهر أن هذه الكلمات أيقظت ووكر ، اذ فتح عينيه مرة اخرى ، وأراد أن يتكلم .. ولكنه كان ضعيفا ، حتى لقد اضطر ماكنتوش الى أن يرهف أذنيه ليلتقط ما كان يقول : « دعهم يمكثوا ! .. انهم أبنائى ، وينبغى أن يكونوا هنا ! »

فاستدار ماكنتوش الى الاهالى وقال : « امكثوا .. فهو يريد ذلك ... ولكن اجلسوا فى صمت ! » .. **وارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه ووكر ، وهمس : « أقترب منى ! ». فمال ماكنتوش عليه .. وكانت عينا الرجل مغلقتين ، والكلمات تخرج منه وكأنها تنهدات الريح خلال أشجار جوز الهند ! ..** وقال : « اعطنى جرعة أخرى من الشراب ، فان لدى ما أريد أن أقوله ! » . فاعطاه جرعة من الويسكى لم يخففها بالماء .. واستجمع ووكر قواه ، وبذل فى ذلك آخر مجهود فى جعبة ارادته ، ثم قال :

— لا تحدث ضجة من أجل حادثتى هذه ، ففى عام ١٨٩٥ — عندما قامت الاضطرابات ، واغتيل البيض — جاء الاسطول وضرب القرى بالقنابل ، فقتل كثيرون ممن لم يكن لهم ناقة ولا جمل فى الامر .. **ان رجال الحكم فى (آبيا) أغبياء ، واذا أقدموا على شىء ، فسوف لاينزل عقابهم بغير الابرياء .. لست أريد معاقبة أحد !**

وسكت برهة ليستريح ثم قال : « يجب أن تقول انها حادث لا يلام أحد عليه .. عدنى أن تفعل هذا ! »

ـ سأفعل كل ما تريد !

ـ يا لك من فتى طيب .. أنت من خير الناس .. وهم أطفال ، وأنا أبوهم ، والاب لا يدع أطفاله يقعون فى المآزق اذا وسعه ذلك !

وصدر من حلقه ما يشبه الضحكة وقال : « انك رجل متدين يا ماك ، فما رأيك فى الصفح عنهم ؟ »

وظل ماكنتوش برهة لا يحير جوابا ، وشفتاه ترتجفان .. وأخيرا قال :

ـ هل يغفر لهم لانهم لا يعرفون ما يصنعون ؟

ـ أجل .. فليغفر لهم ! لقد احببتهم ... وكنت ـ كما تعلم ـ أحبهم على الدوام !

وتنهد .. وراحت شفتاه تتحركان ببطء ، مما اضطر ماكنتوش الى وضع اذنه على مقربة منهما ، لكى يستطيع السمع .. وكان ووكر يقول : « امسك يدى ! » . فشهق ماكنتوش ، وخيل اليه أن قلبه كاد يتوقف .. وأمسك بيد الكهل ، فاذا هى باردة وضعيفة وخشنة .. وظل ممسكا بها الى أن قفز فجأة من مقعده ، عندما سمع حشرجة طويلة ..

وكانت حشرجة مخيفة ، رهيبة ! .. ثم مات وؤكر !
واخذ الاهالى يصرخون بأصوات عالية ، والدموع تجرى على خدودهم . وراحوا يضربون صدورهم بأيديهم
وخلص ماكنتوش يده من يد الرجل الميت ، وسار مترنحا — وكأنه مخمور — حتى خرج من الغرفة ، فسعى الى الدرج المغلق فى مكتبه . وأخذ منه المسدس . **وقصد نحو البحر ، ثم سار الى البركة ، وأخذ يخوض الماء فى أناة وحذر ، حتى لا يتعثر فى صخرة مستترة . وظل هكذا الى أن بلغت المياه أبطيه . واذ ذاك وقف ، وأخرج المسدس ، وأطلق رصاصة على رأسه !**
وبعد نحو ساعة ، كانت أسماك القرش السمراء تتخبط وتتقاتل فى البقعة التى سقط فيها !

((تمت))

راجع مكتبتك الخاصة ، لتتأكد من وجود كل هذه الشوامخ العالمية ، التى قدمتها لك ((مطبوعات كتابى)) فى أعدادها السابقة .. انها ثروة أدبية لاتقدر بمال ، فاحرص على اقتنائها ، واجعل منها كنزا تورثه أبناءك .. واطلب ماينقصك من أعداد من ادارة ((كتابى)) ، ١٤ شارع ٢٦ يوليو ، بالقاهرة — راجع الاسعار فى ص٤

اعترافات جان جاك روسو (٥ أجزاء)

قصص من الصين	أروع نماذج لادب الصينى
ليالى بلزاك (ألف ليلة وليلة الفرنسية.)	أونوريه دى بلزاك
الالياذة (٣ أجزاء)	هوميروس
قصص من روما	البرتو مورافيا
المسبحة (جزءان)	فلورنس باركلى
سفينة الملذات	موريس ديكوبرا
دم .. وخمر !	ليو تولستوى
تحت ظلال الليلا	مبرورة سامى

مزيد من الكتب التى صدرت بها الاعداد السابقه من ((مطبوعات كتابى)) . أنظر القائمة فى الصفحة التالية

« مطبوعات كتابى »

السلسلة الوحيدة التى تقدم لك دائما الترجمة الكاملة الامينة للشوامخ الادبية العالمية

قصة مدينتين	تشارلس ديكنز
ذات الثوب الابيض	ويلكى كولينز
الخالدون	ديل كارنيجى
الخاطئة	سومرست موم
حياة امراة (**جزءان**)	جى دى موباسان
الخطيئة الاولى وفتاة من الاقاليم	البرتو مورافيا
أوديب	سوفوكليس واندريه جيد
مدام بوفارى (**جزءان**)	جوستاف فلوبير
عاشقات فى الخريف	ستيفان زيفايج
قلوب ضالة	طاغور
ديكاميرون (**ألف ليلة وليلة الايطالية**)	جيوفانى بوكاشيو
الظمأ للحب	ميكا والتارى
جين اير (**٣ أجزاء**)	شارلوت برونتى
فاتنات الرجال	مارجورى كورجين
رجال ونساء	جوركى
الثأر للوطن	جون شتاينبك
فرنسا الجريحة على ضفاف النيل	أدوين جون ديغيز
الابن الضال	هنرى بوردو
أسرار الجاسوسية	برنارد نيومان
بيلا دونا (**٣ أجزاء**)	روبرت هتشنز
بوشكين	ليديا لامبير

فى الصفحة السابقة تجد مزيدا من أسماء الكتب التى صدرت بها « مطبوعات كتابى »

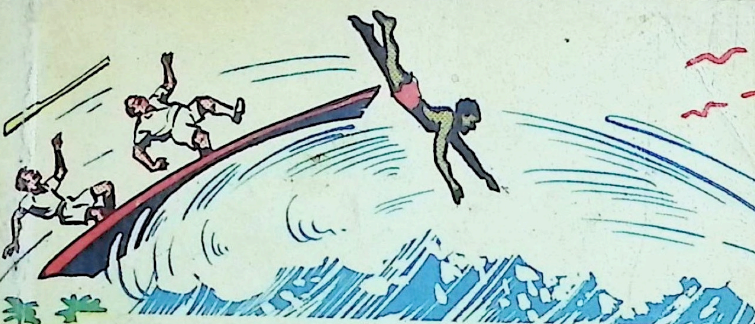

اشتهر الكاتب العالمي الصليت "سومرست موم" بأنه يغوص في أعماق النفوس، ليحللها ويصورها على حقيقتها، دون أن يحكم على ما فيها من سوء أو طيبة .. وبأنه بعد أن قرأ كثيراً، خرج إلى الدنيا، يجوب بلدانها، ويجرب بنفسه كل ما يعرض للنفس البشرية من ملاذ وآلام .. ومن كل هذا، استخلص مادة قصصه، ولعل أروعها هي:

أرواح هائمة في الأدغال

من ألياف الواقع وخيوط الخيال، نسج الكاتب الكبير هذه اللوحات التي تمثل أسمى ألوان الحب، إلى جانب أعتى الغرائز البهيمية .. ونواحي النبل الإنساني - التي قد تعثر عليها في أبسط النفوس البدائية الساذجة - إلى جانب أنذل ما خلقه جشع الاستعمار في نفس الإنسان الأبيض من ضراوة خرجت به عن مدنيته .. بل خرجت به عن إنسانيته!

إنها مادة رائعة، خليقة بالخلود .. الخلود لها .. والمجد لكاتبها!

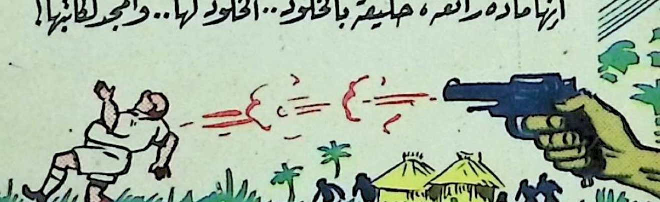

يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية